# رقصة الخذلان

# رقصة الخذلان

## رواية

## منى ياسين

اسم الكتاب: رقصة الخذلان

اسم الكاتب: منى ياسين

تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية

تصميم الغلاف: عبدالرحمن العجمي

الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم

الطبعة / الأولى – ديسمبر ٢٠١٩ م

رقم الإيداع: 2019 / 27605

للنشر والتوزيع

Arabic Library

١١٤ ع جنوب الأحياء – السادس من أكتوبر

Arabiclibrary2017@gmail.com

Facebook.com/arabiclibrary2017

ت / ٠١٠٣٠٣٦٥٨٠١

جميع الحقوق محفوظة

جميع الحقوق محفوظة للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

حينما تجتاحُ الخيولُ الجامحةُ أرضًا يابسةً؛
عَليْهَا أن تَتَحمَّل نقْعَها (*).

منى ياسين

-------------

(*) نقعها: غبارها

# إهداء

## إلى من:

وثقنا بهم حدَّ الإيمان، فاستهانوا بنا حدَّ الخذلان!

**منى ياسين**

# الفصل الأول

كنت في السادسة عشرة من عمري عندما تغير كل شيء، نظرتي لأبي، إدماني للقراءة والسهر، حنيني لأمي وأجواء العائلة، وإصراري على استكمال ما أحب رغم اعتراض أبي، تغيّرٌ فرضته حادثة تناقلتها وسائل الإعلام، وتصدى لها أبي في شجاعة وإصرار، أغلب الصحف أشارت إلى أن الحادثة عارضة، وأن السيرك القومي -الذي وقعت به الحادثة- مازال بخير، لكن أبي صاحب المقالات الحاسمة لم يعجبه الأمر، طوح قلمه هذه المرة في وجه الإهمال واللامبالاة، فالحادثة كانت مفجعة، والصور التي التقطتها كاميرات السيرك كانت مخيفة ومؤلمة، أسود تهجم على مدربها بعد سقوطه أمامها قدرا، كأن السقوط أعاد لها ذاكرتها المتوحشة، فاعتبرت المدرب فريستها المختارة، انقضت عليه مرة واحدة، وكأى كارثة صُدم أصحابها، ساد الحضور حالة من الهرج والمرج، صراخ وعويل، ومدرب يسقط على مسرح العرض، يحاول- عَبَثًا- أن يهرب من أنياب أسوده المفترسة دون أمل، المفاجأة أربكت الجميع، حتى أن رجال السيرك سقطوا في حالة من الذهول فلَم يحرِّكوا ساكنًا. باختصار وبحسابات الواقع لم يكن للرجل فرصة للنجاة، لولا أن تقدم أحد العاملين في جسارة مستخدمًا خرطوم الماء القوي، فتبعه زملاؤه في محاولة أتت بثمارها.

الحادثة لم تكن هينة على أصحابها ولا على المسئولين، ففي التحقيقات تعلَّل المُدرب بأن السجاد المفروش على أرضية السيرك كان باليًا، لدرجة أنه لم يكن ثابتا على الأرض، وأن سقوطه أمام أحد الأسود كان بداية التحول، تحوله لفريسة هجمت عليها الأسود واحدًا تلو الآخر، مدير السيرك حاول تبرئة نفسه، فأشار إلى أن وجود وفد جديد من الأسود هو مَنْ تسبب في الكارثة، وهو شيء يتحمله المُدرب وحده بسبب إصراره على إشراك الوفد في العرض، فقد كان من بينهم أسد هائج لكونه في فترة التزاوج ولم تتم إشباع رغبته، وهو مَنْ بدأ الهجوم وكان صاحب الغنيمة الأكبر. أشاعت هذه الحادثة حالة من الهياج أثناء العرض وكذلك فِي الوسط الثقافي المَعنِيِّ بالأمر، ورغم محاولة بعض الجهات والصحف إظهار الحادثة بأنها شيء عارض، أظهر قلم (فارس سيف الدين) كم الإهمال بأرواح مدربي السيرك، حين لا يكون هناك سيارة إسعاف مجهزة، وسيارة إطفاء لمثل هذه الحالات، فلولا استخدام خراطيم المياه القوية من قِبَل العاملين، ووجود سيارة مع أحدهم؛ لما تمكن أحد من إنقاذه. المُدرب اعتبر ما فعله أبي يستحق الامتنان؛ ربما لأنها تعتبر أول صرخة لوزارة الثقافة لإلقاء نظرة على هذا القطاع المُهمَّش، وربما لأنه شعر بأن حياته كادت أن تكون قربانًا لشيطان التجاهل والإهمال، ومن ثم كانت دعوة المدرب لوالدي واصطحابه لي- في لحظة استثنائية- لحضور عرض رقصة بحيرة البجع، كفقرة جديدة في السيرك القومي.

*****

مجموعة فتيات في مقتبل العمر، يرتدين فساتين بيضاء قصيرة، يرقصن في تناغم كزنبقات بيضاء تحركها الرياح. كَنَّ يتمايلن بقامات تلاحق الألحان، رقص يشبه تمايل الأغصان الهشَّة مع نسمات الهواء، حتى أنني كنت أسترق النظر إلى أبي عندما بدأ قلبي في الخفقان بقوة، فلم تكن روحي قادرة على الجلوس في وضعية المتأمل، كانت تراودني رغمًا عني، حتى شعرت وكأنها فارقت جسدي لتهيم عشقا في الفضاء، كأن لها جناحين قد نبتا من عدم، فصارت تحوم حولهن متمايلة كمن لامست السحاب.

"هل تريدا رؤية شيء فريد؟"

أيقظتني العبارة من تأملاتي دفعة واحدة عندما وجهها المدرب لأبي قرب نهاية العرض، لم أجب، ولم أستقبلها كسؤال عارض كما استقبلها أبي، وإنما تعلقت بها كهدية لا يمكن ردها، قادنا المدرب إلى ممر خلفي، ومنه إلى حجرة ملحقة بحوش كبير، كانت الهدية مفاجأة، (جومانة) اللبؤة تضع أول إنتاجها من الأشبال. لم يكن هذا المشهد يفوتني وأنا المولعة بالحيوانات، رأيتها مسجاة في حالة إنهاك شديد، وحين خرج منها الصغير أخذت تلعقه بلسانها، ولته كل اهتمامها مع أن مخاضها ما زال مستمرًّا، فقد كان هناك آخر في طريقه للخروج، ويبدو أنه حين شعرت بقدومه جلست القرفصاء فانسلَّ من داخلها بليونة،

استقبلته بلسانها لتزيل عنه شوائب رحلته. كانا اثنان يبدوان كالهرر بعيون مغمضة، لا يعلمان أين موضع الرضاعة، يحملهما الطبيب ليقربهما ناحية ثدي أمهما، وهما بلا حول لهما ولا قوة.

جال في خاطري أن آخذ أحدهما معي، صغر حجمهما جعلني أطرح رغبتي أمام الجميع، لكن وكعادة أبي أعلن اعتراضه بشدة، وعندما لاحت له نظرتي الغاضبة الحزينة، ساق لي حُججًا كثيرة، قال لي كيف يمكنني أن أحرم أمًّا من وليدها أو العكس، كما أن تربيتها مضيعة للوقت، وأنها سوف تؤثر على دراستي، أبي لم يتوقف عن ذرائعه إلا عندما تدخل مدير السيرك في الحوار وأخبرني ألا أتعجل الأمور، فالرضيع من حقه أن يشبع من أمه، لكنه أتاح لي زيارته في أي وقت أشاء مع الحرص الشديد في التعامل معه، فهو في النهاية حيوان مفترس، قد تغلبه طباعه فيلحق بي الأذى.. ثم سمح لي باختيار اسم له، فسميته "حمزة".

*****

في الطريق كانت العودة سريعة، سريعة جدا أكثر من أي مرة سابقة، ربما لأن الاستغراق في أحلام اليقظة فاتنة، حتى أنني لم أشعر بمرور الشوارع وقطع المسافات، فقد صرت أحلم بكيفية جعل (حمزة) يرتبط بي، أحلم برقصتي الروحانية التي شعرت بها أثناء مشاهدتي للعرض، وتمنيت أن يعزف جسدي أرقى الألحان؛ فأخبرت والدي أنني أريد الالتحاق بالمعهد العالي للباليه.

كاد رأسي يرتطم بزجاج السيارة الأمامي، عندما كبح فرامل سيارته فجأة وهو يقول في غضب عارم: ابنتي أنا تريد أن تصبح راقصة؟!

تصلبت مشاعر الخوف والغضب على وجهي وأنا أحاول أن أبرر رغبتي بما يجعله يقتنع.

- راقصة باليه يا أبي وليست راقصة بالمعنى المتعارف عليه.

عاد ينظر لي بطريقة مرعبة ثم قال بصرامته المعهودة:

لا تفرق كثيرا، ابنة الأستاذ الكاتب والصحفي المشهور لا يليق بها أن تصبح راقصة، حتى وإن كانت راقصة باليه.

- ولكن الراقصة ليست فتاة ليل. أجبته في عند.
- ليست قضيتي أين تقضي ليلتها. رد بعناد مماثل.

تحاشيت النظر إلى وجهه وأنا أتساءل بيني وبين نفسي ما ذنبي في مكانة والدي حتى أُحرم من شيء وجدت نفسي فيه، ثم عمَّ الصمت بيننا حتى وصلنا إلى المنزل.

منزل كبير، مكون من ثلاثة طوابق، على الطراز القديم، في الطابق الأول تسكن عمتي، ونقيم نحن في الطابق الثاني، أما الطابق الثالث جعله أبي قلعة لأشيائه الخاصة، أشياء أبي تمثل له أهمية كبرى، في البداية كنت أشاركه بعض وقته الذي يقضيه هناك، لكن مع الوقت بدأ يمارس عزلته، حتى حرَّمَ عليَّ دخولها.

لكن في هذه الليلة اتسعت العزلة لتشمل كل شيء، كان الصمت يخيم على الأجواء حينما دلفنا إلى الردهة ومنها إلى غرفة المعيشة، فقد جلس أبي متناولًا جهاز التحكم في التليفزيون، وقبل أن يدير قناته الإخبارية المفضلة حاولت أن أخفف من حدة الموقف قائلة:

-كيف لصاحب الفكر الواسع، والعقل المستنير أن تكون هذه نظرته للفنون؟

رد مُحاولًا تمالك أعصابه:

- ابنتي العزيزة، أبوكِ دمه حُر، شرقي حتى النخاع، مهما بدا تفكيره مستنيرًا كما تقولين، ثم إن على جسد الفتاة أن يكون أغلى ما تملك، فلا يراه أحد وهو في لحظات انتشائه كما تفعل الراقصات. اجعلي الرقص لحظاتك الخاصة لا يتمتع بها سواكِ. لستِ جارية يا ابنة فارس سيف الدين لتمتِّعي أحدهم بحركات جسدك. قالها مبتسمًا لعلِّي أرضخ.

التقطت نبرته الحاسمة التي بطنت كلماته فأجبته بغضب:

- وماذا عن رغبتي في تعلُّم جميع ألوانه؟ كيف لي بها؟

عاد محاولًا السيطرة على أعصابه وهو يقول بهدوء:

- اليوتيوب يا عزيزتي يغنيكِ عن أي شيء. شاهدي وتعلمي من خلاله، سأبحث لكِ عن روابط للتعلم تشاهدينها هنا، وتطبقينها في غرفتك، دون الحاجة لأن يمرر أحدهم يده على جسدك بدافع التعليم، أو أن يلتهم أحدهم

مفاتنك بدافع التشجيع.. ثم ماذا عن هوايتك القديمة في الرسم؟ وماذا عن مادة قدرات الفنون، التي ستحدِّد درجتها مصيرك، والتي ستساعدك على دخول كلية الفنون الجميلة كما تتمنين.

وكتب على الهواء بفخر: الرسامة ندى فارس، فمددت يدي إلى الهواء ومحوت (فارس) وكتبت (سيف الدين).. هكذا أريده (ندى سيف الدين).

انفجر غضبه وهو يصرخ في وجهي "هل جُننتِ أم أصاب عقلك مكروه، تحذفين اسمي يا ندى؟"

ارتبكت وشعرت بعظم ما فعلت؛ فاسمه يعني له الكثير كبقية ممتلكاته، ولا يقبل أن يمسه أحد ولو كان من جانبي أنا، ابنته الوحيدة.

تلعثمت وحاولت تهدئة الموقف:

- لم أقصد الإساءة يا أبي، فقط أراه سيصبح هكذا له نغمة خاصة.

أجاب صارمًا: ندى فارس سيف الدين هكذا اسمك. ثم أدار قناته الإخبارية تاركًا وجهه يرسم ملامح أخرى، ملامح لم أعرفها من قبل.

*****

وقت الصفاء النفسي واستقرار العلاقة بيني وبين أبي نادرًا ما تحدث، لا أراه رائق البال إلا في لحظات قليلة جدا ومن ثم ينعكس هذا على علاقته بي، لكن غضب أبي هذه المرة كان طويلًا حتى أنه لم ينته الحداد بيننا إلا يوم ظهور نتيجة

الثانوية العامة، وكأنها وسيلة ليمتنع عن محادثتي، وربما لأن ملامح أمي التي أحملها تقف عائقًا دومًا بيني وبينه.

كانت عمتي هي الملجأ الآمن لي في لحظات اختلافي مع أبي، أبثُّ إليها جل إحباطي النابع من معاملته، كنت دائمًا أحدثها عن طباعه الغريبة معي؛ فهو أمام الناس الأب الحنون المُحب الذي يحسدني الجميع عليه، ولكن حين نصبح وحدنا لا يكاد يراني ولا يكترث لشأني، للدرجة التي تشعرني أحيانا باليتم وهو على قيد الحياة.

عمتي عفاف هي أقرب الأشخاص إليّ على وجه البسيطة، وفاة زوجها ورحيل أمي جعلها قبلتي الأولى في لحظات الخوف والألم، كما أن سكنها في الطابق السفلى جعلها دومًا قريبة مني. تطمئن عليّ كما لو كانت أمي، تهتم بشئوني الخاصة والعامة، وتعتني بغذائي ونظافة المنزل، كل شيء كان يعتمد على وجودها، كأنها استعاضت عن حياتها التي فقدتها بوفاة زوجها، بتفانيها في الاهتمام بي وبأبي، لكنها ما زالت تعتز كثيرًا بوظيفتها كمُعلمة للتاريخ وتستثمر وقتها من حين لآخر في القراءات المنوعة، تلك القراءات التي تسردها على مسامعي دائمًا، تعتبرني ابنتها وتشعرني دومًا بأهميتي لديها.

لم أعرف شيئا عن فكرة عدم زواجها إلى الآن، رغم أنها صغيرة السن، جميلة الخِلقة، رشيقة القوام، خفيفة الروح، لم تنجب.. لديها كل المقومات التي تجعلها مطلوبة ومرغوبة كزوجة، حتى أنني لم أتمكن من استيعاب انفجارها في وجه أبي

عندما تقدم صديقه إلى خطبتها، ثم غادرت المنزل ليلتها ولم تعد إلا مع شروق الشمس، تاركة في قلبي لغزًا لم يغادرني قط!.

*****

اليوم الأول لي في الجامعة كان مُربكًا بحق، شغفي نحو المرحلة الجديدة من حياتي وتحوّلي إلى طالبة جامعية لم يمنع الأمر، فقد جعل التحاق صديقاتي بكليات مختلفة يومي عسيرًا، حاولت عمتي أن تخفف عني رهبة هذا الشعور وساعدتني في اختيار ما سأرتديه يومها، كانت تحفزني وتقوم بتصويري في أوضاع مختلفة قبل ذهابي إلى الكلية، تارة وأنا مرتبكة لا أستطيع تهذيب شعري كما أريد، وتارة وأنا أتناول إفطاري بسرعة فيمتلئ فمي بطريقة مضحكة، تفعلها وهي تضحك وأنا أثور، وحين أصبحت جاهزة للمغادرة لحقتني بعناق خفيف وجملة تحفيزية تشي بكوني أجمل فتيات الجامعة.

بعد فترة أصبح الأمر اعتياديًا، زال الارتباك واندمجت. كنت أستمتع بالدراسة رغم كثرة المواد وما تتطلبه من إرهاق؛ فالتدريبات العملية تستغرق وقتا طويلا وقد تكون خارج الكُلية مما يضطرني لحمل أدوات الرسم معي (شاسيه خشب، ورق كانسون، فرش، أداة قطع، ألوان، أقلام، ممحاة) ولكنها الأساس مقارنة بالعلم النظري الذي يعتبر قليلًا.

بعد أيام من بدء الدراسة صرت أزور (حمزة) في عطلتي الأسبوعية، أولا بدافع حب الامتلاك، ثم مع الوقت بدافع الصداقة والانتماء، فقد أصبح مادة خصبة لريشتي، وما زلت أذكر أولى نصائح المدرب: "إذا أحببتيه بصدق فسيحبك أيضًا، الحب بالحب، والبادئ أصدق".

كونت صداقات متعددة مع العاملين في السيرك، ومع المدربين والمدربات أيضا، حتى أنني أصبحت أزور صديقتي المُدربة في منزلها، لأشاهد الحيوانات الصغيرة، وهي تلهو في البيت، حيث أصير حرة في التعامل معها أكثر.

وقت الاستحمام من أمتع الأوقات لدى (حمزة)؛ فهذا هو وقت لعبه وترفيهه، يستسلم لي كفتاة خجول، أسلط خرطوم المياه عليه، فيترك لي جسده مُخبئًا رأسه في فتحات القفص، أسكب زجاجة من الصابون السائل على جسده ورأسه، فيقوم بتحريك رأسه يمينًا ويسارًا سريعًا، فتتناثر ذرات الماء على وجهي وملابسي فأضحك، وأعاود الكَرَّة إلى أن أنتهي، ثم أجفف جسده وذيله ورأسه ببشكير كبير خاص به، ينتهي الوقت معه سريعًا باستمتاعي واستمتاعه، ورائحة النظافة تضفي عبيرا مُنعشًا على المكان.

وجودي لوقت طويل في السيرك جعلني أختبر طباع الحيوانات وسلوكها بمختلف أنواعها. اكتشفت أنها لا تشرس إلا إذا تم هياجها، ولا تفترس إلا إذا جاعت.. عالم واضح وصريح ولا يحتمل مكرًا أو خداعًا.

كانت رائحة الحيوانات دائما تصيبني بالغثيان، رغم ذلك كنتُ أداوم على حمام (حمزة) الأسبوعي؛ أراه مختلفًا عنها.. كما أرى وجوده في السيرك إهانة له؛ فالأسد ذلك القوي ذو الصوت الجهوري، الذي يخشى الجميع الاقتراب منه، لا يحق لأحد أن يجعل وظيفته في الحياة أن يقوم بالقفز، ثم يحبس داخل قفص كالمُتهم في جريمة. تمنيت أن تتاح لي الفرصة بأن أتنزه معه في غابة واسعة كثيفة الظلال؛ فذاك موطنه الأصلي، وأنا أريد أن أراه على طبيعته في مملكته وعلى أرضه، وليس في أرضي. أريد أن يمتد لهوي معه لأكثر من مجرد استحمام، وإطعام وثرثرة بيننا لا تنتهي، أرغب في التنزه معه بلا قيود، نرتاد معا أماكن مختلفة، ترى ماذا لو رأى موج البحر كيف سيكون رد فعله؟ ليتني أعلم مكان شاطئ مهجور لأصطحبه معي!.

فضلت أن يكون لي حياة سرية معه بعيدًا عن تطفل الآخرين، وانتقاد والدي الدائم وخوفه على اسمه. حتى عمتي لم تعلم يومها، ربما لو علمت بأن هناك شبلًا داخل غرفة نومي، كانت ستصاب بصدمة عصبية قبل أن تقوم بأي رد فعل آخر.

لم أكن أعرف شيئًا عن متعة تربية الحيوانات وقيمة وفائهم قبل هذا اليوم، يومها سقطت مريضة بسبب نزلة برد، مع ارتفاع في درجة الحرارة، يصاحبها ألم في الحلق وحالة من الإعياء، انشغال أبي أضاف مقدارًا أكبر من الحزن والألم، لم ينتبه لكوني ملازمة الفراش ولم يهتم بعدم تناولي معه وجبة الغداء على سبيل

المثال، ظن أنني بالخارج ولم يأتِ في مخيلته أن يتصل بي حتى ليطمئن.. شعرت بمغادرته وبعدها أتت عمتي لتطمئن عليَّ، ساعتها لم أعرف ما الذي دار بخلدي كي أخبرها أنني بخير، وأنها مجرد نزلة برد عادية ستزول ببعض الراحة وكوب دافئ من الليمون، أردت ألا أثقل عليها كما اعتدت أن أفعل في كل مرة، لكن الأشياء لا تمضي كما نريد دائمًا، حاجتي إليها ازدادت بعد انصرافها، (حمزة) وحده هو من ظل بجانبي، لمسته الحانية جعلت منه كائنًا مختلفًا يستحق محبتي له، تحاملت على نفسي ونهضت لأجلب زجاجة مياه مثلجة لأضعها تحت إبطي ككمادات مخفضة للحرارة، كنت بدأت في الهذيان وأصبح وعيي في انخفاض. الجلبة التي فعلها حمزة عندما شعر بأن حالتي تزداد سوءًا مع الوقت والتي لفتت انتباه عمتي في الأسفل؛ جعلتني أثق به تماما وجعلت عمتي تدرك قيمته.

حين جاءت عمتي لتقصي أمر هذه الجلبة وجدته أمامها على أرضية الغرفة، في البدء ظنته قطة برية تسللت في غفلة إلى المنزل، لم تستوعب أن أكون قد جلبت للمنزل شبلًا، فزعت عمتي من زمجرته الغريبة على مسامعها حينما حاولت إخراجه، حينها فتحت عيني المنهكة إثر صرختها الفزعة، ثم أقسمت عليها ألا تخبر أبي.

استمتعت بشعور الأمومة وكنت أبتسم لها بامتنان وأنا راقدة في فراشي الوثير الذي صار متعرقا، فقد خرجت لتجلب لي شيئا يساعد على شفائي حين أدركت حالتي الصحية. كنت أتمتم بضع كلمات غير مفهومة في شبه غيبوبتي، لم

أكن قادرة على أن أفتح عيني، لكني شعرت بيدها الممتدة بقرص من الباراسيتامول الذي جلبته لي من صيدليتها الصغيرة حين عادت إلى غرفتي، ففتحت عيني المجهدتين نصف فتحة قبل أن أستقيم وأستند إلى وسادتي، ناولتني القرص وهي قلقة من شدة الحمى التي أصابتني. لم أكن أهلوس ولكنني كنت في حالة مزرية.

أولتني عمتي عناية خاصة طوال مرضي، فكانت تحضر لي مشروب النعناع الساخن ووجبات لذيذة من البطاطس المحمرة والأرز والشوربة والفراخ لتفتح شهيتي.

لم أتذكر من أبي حينها سوى مروره العابر لإلقاء تحية سريعة كأنه واجب تم تذكيره به، ففعله على مضض.

حين كنت أفتح عيني أجد (حمزة) مستيقظًا ينظر لي بعينيه اللامعتين ثم يربت على يدي من آنٍ لآخر وكأنه يشد بأذري لأتعافى سريعًا فأغفو وأنا مطمئنة لوجود ونس بالجوار. أما عمتي فكانت تبعد بحنان شعري الرطب من التعرق عن وجهي ثم ترفع الغطاء حتى أسفل ذقني.

الجميع أدرك مدى علاقتي به وتأثيري عليه، وارتباطه بي وإخلاصه لي، بعد أن بات معي ليلتين لم يعد خروجي معه يشكل أزمة، حتى غريزته المفترسة معي قد تم تطويعها.

كم وددت أن يكون لي رقصة خاصة معه كما كنت أفعل وهو صغير. ما زلت أذكر أنني جلبته معي ذات مرة للمنزل دون علم والدي-وكثيرا ما كنت أفعل- حملته كالهِر الكبير، وأدرت اللحن الخلاب "أنت عمري" وتمايلت معه، وكانت قفزاتي ودوراني وأنا أحمله، وفي المنتصف وضعته على الأرض، فصار ينظر لي منبهرًا.

كنت أحكي لعمتي كثيرًا عن (حمزة)، وأشعر أنها تخاف منه، لدرجة أنها كانت تتمنى أن يصاب بمكروه لأبتعد عنه، فهي لاتراه سوى حيوان مفترس ولم يعد شبلًا صغيرًا أستطيع استئناسه، حينها استأت منها كثيرًا، ولكي تطيِّب خاطري ظلت تدعو له وتضيف "ويراكِ أمه" هنا ابتسمت وأخبرتها: ولمَ لا يراني حبيبته؟ أخبرتني: "الرجل لا يغدر بأمه، قد تجعله ظروف ما يتصرف بصخب مؤذٍ لحبيبته، ولكنه لا يفعلها أبدا مع أمه".

عوضتني عمتي عن افتقادي لأمي، وعن حنان أبي، وعن الأشقاء الذين حُرمت وجودهم في الحياة؛ وعوضني (حمزة) عن أشياء أخرى كثيرة. كنت أستعير سيارة عمتي في مقابلاتي معه، لكن في كل مرة كنت أستشعر فَقْد أمي، لحظة ذهابها، فراقها لي بعد طلاقها من أبي، تزوجها بآخر دهس ما تبقى لها عندي حتى غادرت معه البلاد وذهبت.

الآن لم أعد أعلم عنها شيئا، اعتبرتها ماتت، لكن هناك غُصة دائمة في روحي، تخبرني بأنها ما زالت على قيد الحياة، ولكنها اختارت فراقي بإرادتها الحرة.

بمرور الوقت عرفت قيمتي لديها، وقيمتي أيضا لدى أبي، كنت كلما أردت أن أحادثه عنها كان يدفع برسالتها الأخيرة في وجهي "صفعتني بطلاقك فركلتك بابنتك، هي لك لا تخصني في شيء". رسالتها التي صفعت روحي، وكلما أراد أبي أن يتحدث عنها؛ يكتفي بذكر هذه الرسالة.

لا زلت أتعجب من مشاعر أمي تجاهي التي لفظتني من حياتها كسمكة ميتة لم يتحملها البحر داخله، فهي على النقيض من عمتي التي ما زالت تهوى زوجها الراحل، وتهوى الحديث عنه كأنه ترنيمة عشق أبدية.

رفضها الدائم لكل من يتقدم طالبًا خِطبتها هو سيد الموقف، مهما ألحَّ عليها شقيقها بأن تقابل العريس أولا ثم تأخذ القرار، لعلها تجد من يستحق.

تظل الفكرة المسيطرة عليها بأن زوجها حي بداخلها، وبالتالي لا يجوز أن تجمع بين زوجين.

زوجها (رائد) تقدم لخِطبتها عن طريق شقيقها الوحيد؛ فقد كان أحد معارفه، وتمت الخِطبة رسميًّا، ثم الزفاف بعدها، وكيف نشأ الحب بينهما حتى أنها قالت لي بهيام:

"كنت أتوسد صدره لأنام على سيمفونية قلبه، قد علمني كل شيء عرفه في حياته، وقد شاركني كل شيء، أحزانه وأفراحه، صراعاته وأحلامه. كان دائمًا بجانبي، يفعل ما في وسعه من أجلي، كان إيماني وقت اضطرابي، وسندي وقت ضعفي، سلمت له كياني، فكنت رفيقته وزوجته وحبيبته. لم يوجه إليَّ كلمة غاضبة أبدا، لم يعرف الكذب مكانًا بيننا، كان يأتي ليصطحبني من مكان عملي ثم يأخذني لأحد المطاعم لنتناول البيتزا، أو لتسوق مشتريات البيت، أو للاطلاع على فاترينات المحلات، أو لتناول عصير قصب مثلج ثم نعود إلى المنزل، كان لي الصديق قبل أن يكون الحبيب، كنت أنعم بكل دقيقة نمضيها معًا. في حياتي معه ذقت حبًّا يغنيني ما تبقى لي من العمر، لقد أحببته أكثر مما أحببت أي شيء أو أي شخص على الإطلاق، صُحبته كانت أقصى ما أحبه وأرغب فيه.. في بعض الأحيان كنت ألتفت إليه فجأة لأراه يرمقني بنظرات مُحِبة، كأنني كنزه الأغلى على قلبه، وكم أردت لهذا أن يستمر إلى الأبد. نادرًا ما كنا نخرج من البيت، لم يكن أحدنا يحتاج إلا للآخر، الآن أسأل نفسي من أين كنا نأتي بكل هذا الكلام؟ كان الحب معه احتواء ورحمة، لقد عرفت معه سعادة تغنيني، ولا يعوضني عنها رجال العالم. أعلم أن روحه قد فاضت إلى بارئها، وأنه لن يعود إلى هنا ثانية، ولهذا أحبه بهذه القوة وهذا اليقين؛ لأني بهذا لن أفقده مُطلقًا".

كانت تحكي لي عن شدة أمه معها وتسلطها الدائم وكيف كان يتعامل بحنكة ترضيها، وكيف أن زفافها على سبيل المثال تم كما أرادت في باخرة على النيل، وليس في فندق فاخر كما كانت تريد حماتها، فكلما كان الصدام بينهما على وشك الحدوث، والحريق على وشك الاندلاع، يقوم هو سريعًا بغلق كل ما يثير الفتنة بينهما.

زوجها كان يمنع أن يتدخل أحد في حياتهما مهما حدث.. كان سندها، ورجلها، وأمانها، والحب الوحيد الذي عرفته، ومعها كل الحق. فما أسعدها، هو يحبها ولا يطلب منها أن تبادله العشق، ولا يلح عليها أن تعترف له بحبها.هو اكتفى بموافقتها على الزواج منه، لم يكن يريد سوى أن تسمح له أن يعبر لها عن حبه الدائم وأن تظل في محيطه إلى الأبد. لم يكن يعلم بأن طريقته هذه، جعلتها تذوب عشقًا فيه.

تعلمت من عمتي الرغبة في تعلم كل شيء، وقبلها الإخلاص فيما أفعل.

علمتني حب القراءة، وعرفتني على قلم (غيداء) تلك الكاتبة صاحبة القلم النسائي وبت أتابع كتابتها بشغف وأتناقش معها فيها.. غيداء كاتبة تغوص في أعماق النفس الأنثوية تحديدا، فتثري خبراتي الحياتية وتضيف لي رؤية عن عالم لم ألتقِ به من قبل.

*****

الشوارع الآن شبه خالية، زحام وهمي يمتزج بضوء النهار، ويتناثر مجبرًا في الليل، وأنا كما أنا، أحمل همي وحلمي في كل طرقات المدينة، ففي الوقت الذي بدأت فيه أبحث عن فيديوهات تعليمية لرقص الباليه، قابلني إعلان عن مركز تعليمي يقبل أعمارًا بحد أقصى عشرين عامًا ويشترط الرشاقة، التقطت صورة للإعلان بعدسة هاتفي، قرأته على مهل وتأكدت من كونه قد يروي ظمأ ما أبحث عنه، وبالفعل تواصلت معهم وقدمت هناك دون دراية أبي، وكم كانت فرحتي حينها كأنني حصلت على كنز ثمين، وأثناء شرائي للملابس المطلوبة من حذاء باليه، وكاش مايوه وليجن وقميص، كطفلة فرحة بملابس العيد حتى أنني كدت أن أحتضنها أثناء نومي وقبل استيقاظي مبتهجة لحضور أول درس. كنت متحمسة بجنون، مليئة بقوة وطاقة، أسرعت خارج المنزل وأنا أريد الاحتفال بسعادتي التي وجدتها أخيرًا، أحاول أن أزيل الابتسامة الحمقاء المرسومة على وجهي كي لا يفتضح أمري أمام أبي، وهنا وضعت قناع الجدية التامة.

صرت أستمتع كثيرًا بهذه الدروس، أبهرني في البداية الغرفة الواسعة ذات المرايا الكبيرة والقضيب على الجدران، ورشاقة المُعلمة وهي تثني جسدها بعفوية وليونة جعلتني أتساءل "ترى هل سأستطيع فعلها يومًا؟" بدأت التدريبات بشغف، وتعلمت كيف أقف فاردة جسدي، وصولًا إلى الرقص على بحيرة البجع والتمسك بأيدي الرفيقات بدقة حتى لاينفرط عقد التشابك ويحدث نشاذ، حتى مدحت المُدربة ليونة حركاتي الراقصة.

الرقص على رؤوس الأصابع ليس بالأمر الهيِّن، ولكني فعلتها. فقد كنت شغوفة بالرقص منذ صغري ولكن الآن لن أمارسه كهواية فقط. كنت أظن أنني محترفة وبعد التدريبات الصارمة اكتشفت أنني ما زال أمامي الكثير لأصل للمستوى الذي أريده.

أول ما تعلمته في دروس الباليه هو التركيز التام حتى انفصالي عن العالم الخارجي، وغوصي في اللحن المذاع، ليس جسدي وحده ما ينفعل بما يسمعه، بل كل خلاياي تعيش اللحظة، وتحلِّق في سماء الخيال بحركات انسيابية، وأن يظل جسمي مفرودًا ومشدودًا، أخذت وقتًا لأسير ثابتة على قدمي دون الحاجة لأن أقف على أطراف أصابعي كما اعتدت أثناء التدريبات، أظل على هذه الوضعية كثيرًا، حتى أنني قبل النوم وحين أنزل كعب قدمي ليعانق الأرض بعد طول غياب، أشعر كأنني كنت في دور علوي ثم هبطت، فيؤلمني ظهري وأشعر بعد كل تدريب بأن عضلاتي توبخني كأن عربة مقطورة مرت مسرعة على عظامي فسحقتها، لم يكن الأمر هينًا على الإطلاق، قسوت على ذاتي كثيرًا لأصبح على قدر التحدي.

تابعت الفيديوهات التعليمية من حين لآخر، حتى صار الرقص جزءًا أساسيًّا في يومي، أجدت القفزة الصغيرة، والدوران، والانزلاق، ولأختبر قدرتي أديتها في السيرك أمام الجمهور. رغبتي في الرقص كانت أقوى من أن يكبتها أحد، حتى وإن كان اسم والدي الذي يخشى عليه دومًا، فلن أدفع ثمن حمل

ملامح أمي طوال الوقت، ليحرمني من كل ما أبتغيه دون سبب مقنع. قال إنه لايريد لأحد أن يلمسني أثناء التدريب، وكان له هذا. بل، وأقيم فقرتي منفردة، دون مصاحبة أحد، والإضاءة تكون خافتة؛ لكي لا يتعرف عليَّ أحد، ومَنْ في السيرك جميعًا يستوعبون هذا! ماذا عليَّ أيضا فعله للمحافظة على اسمه الكبير!

أذهب هناك كلما ألحَّت عليَّ موهبتي، لأداء فقرتي حينما تبدأ الموسيقى بالعزف، كأني منفصلة عن الكون، يحبني الجميع هناك، ويلحون عليَّ أن أكون معهم بصفة مستمرة، أتمنى هذا وأحاول إخماد طموحي عند هذا الحد، خوفًا من أن يعرف والدي ما أفعل.

أرسم بجسدي على المسرح، كما أرسم بفرشاتي على لوحة المشروع. أرقص للذة الرقص، وليس لجني المال، أو الشهرة. أرسخ طاقتي في ابتكار حركات جديدة، كأن هناك مدربًا محترفًا يتولى مهمة تعليمي. جسدي مشتعل بالحركة دائمًا، ولا يُهدِّئ حركته سوى رقص صاخب متوالٍ. تدريباتي الكثيرة أمام المرآة، وارتجالي لحركات لم أشاهدها من قبل أتت بمفعولها، فقد بت أجيد العزف بجسدي مهما كان نوع اللحن المُدار.

أصبح ملامسة إصبعي الأوسط لإبهامي شيئًا لا إراديًا؛ فهذا هو الوضع الطبيعي حين تكون ذراعاي ممدودتين، ويداي محنيتين وجسدي مفرودًا، لأصير كالزهرة الهائمة في مهب الريح التي تنفش عبيرها في الأرجاء وتترك شذاها خلفها.

مدير السيرك يحب والدي كثيرًا، ويحترم قلمه، وسعد برغبتي في التواجد في السيرك، ولو بصفة صورية. أذهب كلما أردت ذلك، ثم أصبح لي وقت ثابت؛ فالصحبة هناك عوضتني عن كم الفراغ العاطفي، والحرمان العائلي الذي أشعر به، فهم أصبحوا أهلي وأحبوني كثيرًا. وكم تناولت معهم الفطور الصباحي في تجمع أُسري مُحبب للنفس، وبمجرد المكوث معهم وشعوري بالدفء بصحبتهم كانت البهجة تجري في عروقي.

انتبهت إلى أن اللحوم التي تقدم لغذاء حيوانات السيرك تكون مذبوحة حتى لا تتوحش، فقد كنت أسأل ما المانع من أن يقدَّم مثلا حمار حي للأسد كوجبة بدلًا أن يتم ذبحه!.. كما أن الأسود لديها يوم أسبوعي لا يأكلون فيه شيئًا، كي يساعدهم هذا على هضم ما تناولوه طوال أيام الأسبوع. وبديهيًّا أصبحت رسوماتي للدراسة أغلبها مُنصبّ حول فقرات السيرك وخاصة مع الأسود، لكن عند عودتي في عصر هذا اليوم لم أجد أبي كما اعتدته دائمًا، كان شاحب الوجه صامتًا، هلعي عليه جعلني أدرك مقدار محبتي له، رغم كل الألم الذى أورثه في قلبي، هلعي الذى ازداد توحُّشًا عندما سألته ماذا به وما الذى حدث؟ حينها اكتفى بنظرة واحدة لي، ثم أطرق رأسه وادَّعى أنه لا يتذكر أي شيء.

# الفصل الثاني

دائما ما يؤرخون لدورات الزمن وتحولاتها بالأحداث الكبرى، لكن على المستوى الشخصي تظل الأحداث الكبرى رهينة لإرادتنا، ورهينة لقدرتنا على الاحتمال، هذا ما قالته عمتي ذات مساء، كانت تجلس على أريكتها وهي تتأملني بنظرة غامضة، نظرة أوقعتني في حيرة، حتى أنها دفعت بوجهها إلى الأمام في حركة مباغتة، وظلت تراقبني في صمت، وربما كانت تراقب وقْع جملتها الأخيرة على قلبي. عمتي التي انتظرت قليلا قبل أن تبدأ حكايتها عن صديقتها (غيداء) بحماس منقطع النظير، تتأملني وكأنها تراني للمرة الأولى، وبينما كانت تنساب الكلمات من فمها لتعزف على أوتار القلب ألحانها، كانت تتآمر الذكريات المريرة ضدي، لتذكرني بأن داخل صدري جرح غائر ينزف باستمرار، فقد كان الشرخ الذي صنعه أبي في جدار الروح عظيما كفيروس تسلل في غفلة ودون وعي منِّي، حتى احتوى الجسد، ولا أعرف ما الذي دفع عقلي ليذهب بي إلى هذا الشعور وأنا أنصت لحكاية عمتي، حتى أنني تذكرت أني تغافلت أن أخبرك يا أبي وقتها بأنني أخبئ أوجاعي في أقصى جزء من بقاع الذاكرة علَّك تستمع إلى صرخاتي ذات يوم.

كنت أتأمل النوافذ الزجاجية عندما أخبرتني عمتى أنه بعد هياج الفصول الأولى من حياة غيداء، مر عمرها ساكنًا كمنصة مسرح خالية، أربع سنوات

بالتحديد كانت سنوات عجاف لم يتخللها سوى توابع الوجع المتروك، وحنين للروح المصلوبة، حتى كان لقاؤها به، كلماته تخلب اللب، تذوب في العقل كحلوى رائعة المذاق، وكلما حاولت استرجاع مذاقها تمنت ألا ينتهي، فسبحان من أعطى له هذه الهبة التي تمكنه من العزف على مفردات اللغة، كأبرع ملحن على وجه البسيطة!

كانت نقطة ضعفها هي الكلمات، وهو لم يكن يعلم ذلك، فكان يعزف بارتجالية منقطعة النظير، كان مُلهما لقلمها، وكلما قرأت له شيئا على صفحته الشخصية، ردَّ قلمها بشيء يماثل قوة كلماته وتعبيراته، حتى أنها تمنت أن يكون اسمها بجوار اسمه على غلاف رواية.

كانت كلماته دوما تعبث بالماضي، وتحرك سكونه؛ ربما كان يشاركها الوجع رغم تكتمه ذلك ولكن قلمه كان يفضحه دائما..

*****

في السنوات الأخيرة تغير كل شيء، حياة بأكملها تبعثرت رغم البداية المبهرة، عرس لا يمكن وصفه إلا بعرس أسطوري، وليلة من ليالي السحر، تحدث عنها الحاضرون كثيرا.

نفرت (غيداء) من كل شيء، فما حدث أورثها جرحًا في القلب، ويبدو أن شرخًا كبيرًا قد حدث في الروح أيضا، أظنه لن يُرمَّم يا ندى، فقد كانت تعاني من

فظاظة أسلوبه، وكان يعاني من برودها، ناسيًا أو متناسيًا أنه لم يمس فتيل شهوتها لتتأجج نارها، هكذا كانت حياتها معه، أنين صامت يتبعه شهوة لم تكتمل.

بعد عام كامل من سفره خارج البلاد للعمل دون أن تعلم عنه شيئا، نبذها كبضاعة رديئة لاحاجة له بها، حتى أصبحت النتيجة الحتمية الانفصال في ساحات القضاء، لكن القضاء لم ينصفها، حتى أتت رصاصة الرحمة منه، حينما علم بأنها قد تقطعت بها السبل، ونزفت طاقتها، فأرسل إليها ورقة الطلاق غيابيا. كسرٌ في النفس، ونزيف في الوجدان هو كل ما تبقى منها بعد طلاقها.

لم تخبره بأن ثمرته كانت تنمو في أحشائها قبل هجره، حتى وضعتها أنثى، ورغم عزمها على أن ترسلها إليه فور ولادتها، إلا إنها حين نظرت إلى وجهها وضمتها إلى صدرها، نسيت رغبتها في التخلي عنها، فهو قطعا لا يستحق أن تهب له نبتته، بعدما سقتها بدمائها طوال فترة الحمل.

هل تصدقين أنها أقسمت بعذرية جسدها التي انتهكت على يديه تحت مسمى الزواج، أنه لن يحصل عليها ما بقيت. جعلت انتقامها منه أن تحيا ابنته دون علمه، ولكن الموت كان أسرع واختطفها ربما عقابا على نيتها، وربما لأن الأب لا يستحق، لكن أي قلب هذا الذي يتحمل كل هذا الوجع ويظل صامدًا على ضربات الحياة المتوالية دون ذنب حقيقي.

*****

في المساء ودعت عمتي بحجة واهية، تركتها على أريكتها وذهبت، لكن أثناء صعودي إلى شقتنا في الدور العلوى انتابتني رغبة قوية في الدخول على صفحة (غيداء) على موقع التواصل الاجتماعي (فيس بوك) ولا أعرف ما الذى دفعني للتقليب في صفحتها بكل هذا الشغف والعودة بها إلى تاريخ مؤلم لكنني فعلت.

أتذكر أول نص قرأته لها على حسابها في ذلك الوقت:

"لقد عايشت بنفسي أقسى الأيام مع ابنتي داخل مركز الأورام، ما أسوأ أن تُنزع الرحمة من قلب أحدهم! فما بالك بهؤلاء الذين نطلق عليهم نحن ملائكة الرحمة إن نُزعت من قلوبهم؛ عزيزتي الممرضة: يجب أن تدركي أن للمرض قدسيته تمامًا كما الموت، لا يجب أن يعلو في حضوره شيء سوى صوت الرحمة والرفق بالمريض وذويه حتى يبرأ مما أصابه من ألم ووجع أو يفارقنا بابتسامة حب".

الغريب في الأمر أني وجدت أبي مُعلقا، لم أكن أعلم أنه كان متابعا لها كما تفعل عمتي، ربما لأنهما أبناء مهنة واحدة، كان تعليق أبي جاذبًا.

"تتحدثين عن التمريض؟ سأحدّثك أنا عن سوء الرعاية الطبية عمومًا، أقص عليكِ نبأ مرض أمي الذي باغتنا فجرًا، فهرولنا مسرعين بسيارتنا الخاصة لأقرب مستشفى. كانت تتألم بشدة ولا تستطيع أن تتنفس، تخبرنا بأن رئتيها تتقطعان من الداخل. وصلنا على عجل ووضعناها على كرسي متحرك لتتحرك

به، كان التنفس ضعيفا والحركة مؤلمة. نادينا طبيب النوبطجية ليسعفها، فإذا به يقف في الاستقبال بكل هدوء، ينظر لها ببرود وكأنه كان يتوقع أن تدخل في عربة إسعاف محمولة على نقالة، ليشعر بحجم ما تعانيه من ألم. أخبرنا بهدوء: إن الأمر لا يستدعي كل هذا، فلتنتظر في غرفة الاستقبال.. تلك الغرفة القذرة، التي لا تصلح للاستخدام الآدمي للأصحاء فما بالك بالمرضى؟ الشراشف متسخة، بقايا طعام ومأكولات في الجوار، وكأننا دهمنا إلى غرفةً على حين غرة من صاحبها.

تمدّدت أمي على الفراش القذر، وهي التي تحرص على نظافة الأشياء وطهارتها لتستطيع أن تتعامل معها. انتظرنا قدوم الطبيب ولكنه تأخر، فخرجت أبحث عنه لأجده ما زال يتسامر بأريحية مع زميله. ولما رآني، تذكر أن عليه واجبًا مهنيًّا، فلبَّى النداء على مضض. سأل أمي التي كانت ترد عليه بوهن بارد عن بضعة أمور، وأخبرنا أن الحالة مستقرة وأن الأمر لا يُقلِق، وهي كانت تئن من الوجع ولا تستطيع التنفس، ثم طلب من الممرضة أن تقوم بعمل رسم قلب وتركنا وانصرف. إنني لن أنسى أبدا عينيها المتألمتين الذابلتين. وضعت الممرضة وصلات الجهاز على صدر أمي فلم يثبت -حركة بسيطة وشت بعطل ما في هذا الجهاز العتيق- لكن الممرضة كانت تحاول. رغم ظهور الرسم مشتتا استطاعت أخيرا القيام به بعد قرابة نصف ساعة من المحاولات الفاشلة. كان الطبيب قد اختفى، وأصبح حلق أمي جافا، وشفتاها كأرض لم تُرو منذ زمن، فسألت الممرضة كي تحضر كوبًا من الماء، فقالت: لايوجد هنا ماء.

دوّت صرخة بداخلي: مستشفى ولا يوجد فيه أي شيء حتى الماء، هل أصبحت أرواح البشر وآلامهم مُهانة لهذه الدرجة. كلهم هكذا ياغيداء إلا من رحم ربي.

تعليق أبي دفعني للعودة إلى عمتي مرة أخرى واستمالتها لزيارة (غيداء) والتعرف عليها عن قرب، اقتراح لاقى استحسانًا من عمتى، وطالبتني أن أنتظر قليلا حتى تحدد معها موعدًا، موعدًا كنت أحوج ما أكون إليه ليطفئ فضولي، لكني لم أعرف أبدا أنني كنت على موعد مع القدر وأن هذه الزيارة ستغير حياتي للأبد.

*****

كان يوما باهتا من أيام أغسطس الخانقة، هواء ساخن لفحني بعنف عندما هممت بفتح نافذة غرفة المكتب في منزل (غيداء)، العجيب أن اهتمامي لم يصل ذروته بعد كل ما قرأته من مذكرات (غيداء) الخاصة، ألقيت نظرة على عصفور يقف على شجرة قريبة ثم عدلت وجهتي ناحية مكتبها الأثير وتابعت القراءة:

"كانت حدودي منيعة وحصوني غير قابلة للاختراق، ولكآبتي وقار لا يسمح لأحد بالاقتراب.

بعد مرور عام، كنا معًا في أحد الأحياء، لعمل تحقيق مفصل عن العشوائيات، ووقع الاختيارعلى منطقة إسطبل عنتر، تلك المنطقة المنسية في مصر

القديمة، وتم تقسيم المنطقة فيما بيننا..هو يتعامل مع فريقه من الخارج (تصوير ورؤية للمنطقة وسكانها)، وأنا أتعامل من الداخل (زيارة للبيوت ورؤيتها على الواقع). ذهبنا في الموعد المحدد لمحطة المترو، وانتظرنا وصول الدليل، الذي من خلاله نستطيع الدخول لهذه المنطقة، التي تكاد تكون منعزلة تماما عن القاهرة، وأثناء الانتظار كان يتجنب تماما محادثتي.

أردنا أن تكون جولتنا لها هدف يضفي على أهل المنطقة بهجة، بغض النظر عن جهلنا بما يحتاجونه حقا، فاتفقنا مع فريق خيري دارس المكان واحتياجاته، وقمنا بعمل حملة لتجميع الملابس المستعملة لتوزيعها عليهم فنندمج مع الفريق، وتكون الزيارة ودية وليست تقريرية بحتة.

حتى جاء صوت من الخلف "تعالوا" استدرنا نحو الصوت فإذا بها فتاة صغيرة، في حوالي العاشرة من عمرها، فقيرة الملبس، نقية الوجه جميلة الملامح، ترتدي بنطال منامة أخضر اللون وبلوزة صوف ذات لون بنفسجي، في قدمها حذاء بالٍ بلا جورب، شعرها مقصوع إلى الخلف وتتناثر بعض الخصيلات على وجهها، وكأن لم يمسسه مشط منذ زمن.

اتضح لي أن هذا المكان ما هو إلا حارة جانبية، بجوار هذا الشارع الكبيرفوق جبل المقطم. الحارة ليست ضيقة في أولها، ولا تدل على شيء؛ فهي هادئة مُسالمة، لا تختلف كثيرًا عن أي حارة جانبية في أي حي آخر. ظللنا نسير في حوارٍ متفرعة من الحارة الرئيسية، إلى أن ذهبنا لمكان كالمرأب الواسع، كانت في الداخل امرأة

بدينة متقدمة في السن نسبيا، ترتدي جلبابًا منزليًا، وتضع على رأسها حجابا، ومعها مجموعة من الفتيات كل منهن تجلس أمام وابور تطهو عليه حلة كبيرة من الأرز الأبيض. استقبلتنا بترحاب ثم تطوعت مشكورة، وأرسلت تنادي فتاة لم تبلغ العشرين بعد، لتصحبنا في مهمتنا، وبدأنا السير في المكان المنشود.

حارة ضيقة غارقة بالمجاري مما جعل الرائحة مقززة والخطوات متعثرة، كان على الأرض بعض من الحجارة المبعثرة، ككوبري للمشاة يحميهم من أذى غوص الحذاء في هذا الماء القذر، شكرت الله وقتها على فقدان حاسة الشم بسبب زكام أصابني قبلها بأيام، وتساءلت " كيف يحيا الناس هنا؟".

كانت الفتاة تحمل أكياسًا تحوي أرزًا مطبوخًا لتوزيعه على الأسر التي سنزورها، وسيكون هذا سببًا قويًا لوجودي معها، ولمعاينة أحوالهم على الطبيعة، ولترحيبهم بأي سؤال مني لهم، عن أحوال معيشتهم في هذا المكان غير الآدمي.

دخلت بيتًا مُتهالكا، مدخله صغير وسلمه ضيق بلا سور، كل دور عبارة عن غرفة وحيدة بها مجموعة من الصغار، لا تحتوي على شيء سوى وسادات مطروحة على الأرض من الواضح أنها تقوم بدور السرير، والمقاعد، والمنضدة، وكل شيء آخر يحتاجه إنسان يحيا داخل بيت، أوغرفة خالية من الأثاث عدا حصيرة كبيرة تغطي الأرض، وثمة أريكة ذات غطاء بلاستيكي ممزق، ودولاب قديم متهالك، وسرير فوقه مرتبة كسوتها ممزقة، وكذلك الوسادات.

بدت فرحتهم حين شاهدوا الكيس الشفاف الذي لا يحوي غير الأرز المطبوخ. ثم بدأت وجوه مختلفة الأعمار تظهر فور إشاعة خبر توزيع الملابس والطعام.

قابلت (عم رشدي) هو رجل شارف الستين، موظف بالسيرك القومي، طويل القامة، نحيل، جاحظ العينين، يرتدي بنطالا باهت اللون، وقميصا أبيض، كان شعره رماديًّا وقد أحرقت الشمس بشرة وجهه، ذلك الكهل الذي انحنى ظهره من أعباء الزمن، يستحق هذا الجسد الإجلال والاحترام، لصراعه لفترات طويلة من أجل البقاء، يتساءل عن ارتفاع الأسعار الدائم وثبات راتبه الشهري، ويريد أن يعرف كيف يوازن بينهما، فالمواصلات ومتطلبات الحياة ليسا لهما علاقة بهذه المسألة!

(السيدة نوال) قاربت الخمسين من عمرها، قد طلقت ابنتها قبل الزفاف، لعدم قدرتها على شراء طقم الصيني بعد أن استدانت من الكثير لتبتاع الأساسيات في جهاز ابنتها، فأصبحت ابنتها أمام الجميع معيوبة، وفرصتها في الزواج تدنت حد العدم، وهي تسعى لرد القروض لأصحابها قبل أن يتم حبسها، فواصلت ليلها بنهارها في العمل، لعلها تستطيع منع القدر في أن تُسجن فتصبح وصمة عار أخرى على جبين ابنتها.

وقابلت (الست سماسم) أشهر راقصة في الأحياء الشعبية وفتياتها اللاتي يعملن لديها فهي الآن أصبحت القائدة (لا ترقص) وما لفت نظري بأن الفتيات صغيرات السن ولكنهن على دراية جيدة بالعالم الخارجي ونظرة المجتمع لهن، والمؤسف أن معيشتهن ليست بالمرفهة؛ فهن يسكنّ في شقة صغيرة، حتى أن ملابس الرقص والشعر المستعار تقمن بتأجيره. أحسست بأن لسان حال كل منهن يقول: "يتعاملون معي كامرأة سيئة السُّمعة وما أنا إلا امرأة أرادت ألا تموت جوعا".

وهناك من شاهدت حالها البائس، وملابسها المهترئة، وسوء التغذية البادي على محياها، ولكني رأيت ضحكتها من القلب حين متابعتها لفيلم كوميدي.

لم أشاهد بيوتا متهالكة، لأن ما يأوي قاطني هذه المنطقة لا يجوز أن يسمى بيتا؛ فهو أقرب لخيمة إيواء منه إلى بيت صالح للاستحدام الآدمي. هناك أسر تعيش تحت سقف واحد، لا يفصل بينهم سوى قطعة ممزقة من القماش تقوم بدور الجدران، مكان قضاء الحاجة لا يوجد له باب سوى خرقة بالية، هذا لكونه عبارة عن صفيحة قذرة لا أكثر، الماء النظيف الآتي من الصنبور يُعد حلمًا صعب المنال.

إذا وجدت شقة فهي لا تزيد على غرفة واحدة فقيرة الأثاث مهما كثر عدد قاطنيها، حتى أن باب الشقة لا يفتح لنهايته؛ فالمكان أضيق من أن يعطي له هذه المساحة للتمدد كاملا.

كانت هناك ملابس ذات طراز قديم، ومع ذلك وجدت من سعد بها، وكأنه حصل على ملابس العيد الذي سيتباهى بها أمام أقرانه.

انتهيت من حواراتي معهم لأجد نفسي وحيدة وسط الحارة، دفعني الفضول لأتعمق في الحارات الجانبية المتفرعة من الشارع الذي كنا نوزع فيه، عزمت أن أحفظ في عقلي علامة لأستطيع الخروج إذا ما انتهيت من جولتي ولكني فشلت.

قابلت رجلًا طاعنًا في السن ينظر لي بتمعن جالسا على قارعة الطريق، اقتربت منه مبتسمة أسأله عن كيفية الخروج من هنا، حدق بي مليًّا ولم يرد، تركته وأنا أشعر بنظراته تخترق ظهري، أعتقد أنني في مأزق؛ لقد ضللت الطريق، ولا توجد علامات مميزة أتبين بها موقعي وطريق عودتي؛ فالبيوت جميعها تتشابه، لا يوجد بيت له لون معين، كلها تكتسي بالأسمنت رمادي اللون. كنت أسير مع خواطري تلك حتى لمحته يتشاجر مع أحدهم، أو بمعنى أدق أحدهم يتشاجر معه، تنفست الصعداء لرؤيته وهرولت تجاهه غير مكترثة بهذا التجمع الذي لا يشي بخير. وفهمت بعدها بأن هذه المشاجرة كانت بسببي، فقد افتقد وجودي وذهب يبحث عني، وهَمَّ بسؤال فتاة من الحارة فظن المقربون منها أنه غريب يتحرش بها. رؤيتهم لي جعلتهم يتركونه فقد صاح حينها "هذه من كنت أبحث عنها".

كنت أتعامل معه بعفوية، وكان يتجنب التعامل معي، وحين أظهرت له امتناني لحدوث المشاجرة التي جعلتني أنتبه لوجوده. أخبرني بأنه رأى مجموعة متنوعة من الجرائم الصغيرة جعلته يظن أنني قد أكون الضحية التالية، وأضاف.. وحينها لن يناديكِ أحدهم "أستاذة"، أظنك لن تتحملي السرقة بالإكراه أو التحرش حتى وإن كان لفظيا فقط. وأخيرا اعترف باستيائه من معاملتي الحازمة، وذكرني بموقف العام الفائت (حين طلبت منه أن يناديني بأستاذة غيداء)، وشعوره وقتها بأنني تعاملت معه كشاب عابث.. اعتذرت منه أن وصله هذا الشعور، وأخبرته بأن هذا أسلوبي في التعامل مع الجميع، ولا أقصد مطلقا الإساءة له.

*****

في ذلك اليوم الذى جلست فيه في منزل (غيداء) أطالع مذكراتها، أدركت المعنى الحقيقي للألم، وعرفت لماذا تبدو الأشياء أوضح عندما نسقط غطاءها، عرفت لماذا منعني أبي من الدخول عليه في شقته في الدور الثالث، وعرفت سر ثورته وغضبه ولماذا لا يمر يوم إلا ويذهب إليها معتكفا، الآن بت أعرف هذا وأفهمه. كانت أنفاسي مضطربة، فتناولت جرعة ماء من الكوب الموضوع أمامي، لعلِّي أهدأ ثم ألقيت نظرة سريعة على عقارب ساعتي وعاودت القراءة بحزن.

"عودتي لعملي كصحفية كانت بمثابة جهاز التنفس الصناعي، فقد كنت مجرد جثة متحركة بلا روح، طيف من الماضي يذكرني بما كنت عليه من شخصية حيوية، منطلقة، لا تفارق البسمة وجنتيها.

أكتب بأنين صاخب، لعل شرخ روحي يلتئم، فقد تركت وظيفتي بعد الزواج، وكانت تلك خطيئتي، فتفرغي التام جعلني أرى جميع عيوبه، وتركيزي معه يكون أكبر من الطبيعي.

بعد إنجابي (لي لي) لم أشعر بحاجة للعمل، فقد كان وجودها -وحده- مصدرا للبهجة، وانشغال يومي كله. كنت أحب دوما النظر إليها، وكأنها مخلوقة من نور لم يخلق مثلها. فأزداد هيامًا بها في كل يوم حتى الجنون. كنت أحملها حتى وهي نائمة، كأن قلبي يحفظ ملامحها. أتلو عليها سورة الإخلاص كثيرا، كأني ألقنها كلمة التوحيد، كانت كالنبتة الصغيرة التي تنمو على مهل، والتي تجعلني أسجد لربي شكرًا عليها في اليوم الواحد مرات كثيرة. ذلك الكائن الصغير، ملائكي الملامح يخصني، يا لها من فرحة.

لها عينان واسعتان بندقيتان، وقدمان جميلتان، ويدان سمينتان، أظافر صغيرة ودقيقة مُبهرة الصنع. كانت تستجيب لي بشكل كامل: تلتفت باتجاه صوتي، تستسلم لتدليكي لظهرها حين تستيقظ ليلًا، تشعر بهدهدة ذراعي لها، وتطمئن حين أحملها بشكل رأسي فتغفو في سبات عميق.

صغيرتي كانت طفلة طيبة تنام جيدا ولم تكن تبكي كثيرا، ترضع ثديي ثم لا تلبث أن تعبث به، ثم تتركه وترد رأسها للوراء فور سماعها أغنيتها المُحببة "شاطر شاطر" المنبعثة من التلفاز، ثم تلتفت لي وأنا أشدو لها بها، ثم تلتقم ثديي مرة أخرى وتعود للرضاعة، كنت أحادثها كناضجة تستمتع بسماع ما أقوله مقابل أن أتركها تلعب بشعري، ورغم إرهاق الأمومة إلا أن وقت الرضاعة وتمسكها بثوبي ونظرات عينيها المباشرة والعميقة إلى عيني، وكأنها تتواصل روحيًا معي وتستمد نبض عالمها مني تجعلني أذوب حُبًا فيها أكثر. ابتسامتها تشي بأنها صاحبة غمازات مُغرية كأمها، وشعرها الناعم الأسود يغريني لصنع تسريحات مختلفة فيه، ولكني سأنتظر قليلا حتى يصير أطول وأكثف.

أما عن مناغاتها فهي كأجمل المقطوعات الموسيقية كأنها زقزقة عصافير، كنت أضع أنفي على أنفها الصغير وأحركه كعلامة مميزة لعلاقتنا معًا حتى صارت تلك الحركة تبهجها، وأشم رائحة طفولتها الممزوجة برائحة اللبن باستمتاع كأنها من روائح الجنة، وأشياؤها الصغيرة التي كنت أذوب عشقا من رؤيتها وملامستها واستخدامها لها.

كم تمنيت منذ الصغر أن تكون لديَّ طفلة، تصبح لي أختًا وصديقة بعدما أيقنت أن حصولي على شقيقة من رابع المستحيلات، وأن أمي لن تنجب بعدي لأنها قد اكتفت بي على حد قولها.

ولكن أن أنجب بنتًا يعني أن أقدم للمجتمع فتاة غير سوية نفسيًّا، فالخوف عليها من أرق النسمات سيكون السّمة المميزة والتي سترهقنا معًا. لن أستطيع تربيتها كما تربيت في بيئة منغلقة، فلن أرضى أن ترث طبيعتي المنعزلة، ولكنني بالمقابل لا أمتلك خيارًا آخر. فأنا لن أستطيع تركها لغيري ليعلِّمها كيف تواجه الحياة، فيجعلها ذلك ترى الدنيا بعيون سوداوية. أنا لن أستطيع منحها الأمان والقوة، أو أن أحميها من الغدر على سبيل المثال، ولن أستطيع أن أكون لها الدرع الواقي من صدمات الحياة؛ فأنا أضعف مما يتخيله أحد. ليس بمقدوري أن أفسّر لها كل شيء تسألني عنه، أو أن أضع خبراتي في كبسولات من أجلها، حتى تتجرعها يوميًّا، علَّها بعد ذلك تمتلك حصانة لمواجهة الحياة.

كيف أربي أنثى تفخر بنفسها وتكون قوية لمواجهة ذاتها، وقادرة على مواجهة جميع التحديات والعوائق التي ستمر بها، وأنا مكبلة بنوعي وممنوعة من أبسط حقوقي في الحياة، حتى بعد أن صرت امرأة ناضجة، ولكنني ما زلت مقيّدة لأنني أنثى.

ففور هجر زوجي لي، وقبل طلاقي الرسمي رفض أهلي أن أظل في شقتي وحيدة، وعدت معهم لأسكن في غرفتي من جديد.

كيف أجعلها تستمتع بالحياة ولا تلومني على إنجابها، وأنا أعاني من وجودي في الحياة، وأتمنى أن تنتهي حياتي سريعًا.

لأن أصير وحدي دونها أفضل بكثير؛ فإذا جاء موعد رحيلي لن أستبطئه من أجلها. أنا أحب البنات حقًا ولهذا لا أريد إنجابهن.

كان هذا إحساسي فور معرفتي بنوع الجنين، لا أنكر بأن فكرة الحمل أصابتني برعب خفي، ليس لما حدث مع والدها فقط، وكونها ستكون رابطًا بيني وبينه شئت هذا أم أبيت، ولكن لفكرة تحمُّلي مسؤولية كائن حي صغير يستمد كل شيء مني. معلوماته قبل غذائه، أمانه قبل نظافته، حتى فكرة تبديل الملابس كل فترة نتيجة ما تفعله من تلبية نداء الطبيعة، لم تطرق في مخيلتي وأصبحت أفعلها دون تضرر من جانبي، ومع ذلك قد استمتعت بالتجربة فقد كانت مثيرة. لا أنسى أول حركة منها داخلي فقد جزعت، وابتهجت، ووددت أن أخبر العالم أجمع بكونها تَتَمَطّى داخلي، وكأنها في غرفة نوم مستقلة تتحرك فيها كما تبغي.

نطقت (لي لي) أول كلمة عندما بلغ عمرها خمسة أشهر، كانت كلمتها الأولى "ماما" وكان هذا كفيلًا بإسعادي، فها أنا أستمع لأجمل لقب قد تحصل عليه امرأة يومًا."ماما" عديها على مسامعي مرارا يا صغيرتي "ماما" ما أجمله من لقب وما أحلاه من صوت! تدغدغين مشاعري دون أن تدري يا (لي لي).

تتعامل صغيرتي ذات الشهور القليلة، كأنها فتاة ناضجة ولها جميع الحقوق في ممارسة الدلع والتمنع، فها هى تنظر لمن يداعبها مبتسمة، وحينما يهم بحملها تضحك برقة وتتشبث بي، وحينما يهم بالرحيل، تبتسم له مجددًا وحينما يهم بحملها تضحك بدلال رافضة، وهكذا عدة مرات حتى تسمح له بحملها.

تنظر لساعة يدي، وتمسكها متفحصة، وتنظر ليدها فتجد بأنها لا ترتدي مثلها، فتبكي كأنها تقول" لماذا أنا لا أرتدى ساعة يد؟" وتخيل أنك بكل عيوبك يوجد إنسان يعتبرك مثله الأعلى.

أجمل ما في مشاعرها تجاهي ثقتها في؛ تستسلم لأي فعل أضعها فيه دون تذمر. تعلم بأني حينما أحممها مثلًا، سيكون الماء دافئا، يناسب بشرتها، وأنها لن تشعر بالبرد الصارخ حين أخلع عنها ملابسها، فقط تبتسم باستمتاع. حينما وضعتها على الأرجوحة لأول مرة، لم تصرخ كعادة الأطفال، فقط نظرت لي، فابتسمت لها، فشعرت بالأمان واستمتعت بحركتها. نظرتى الباسمة لها تعني الكثير، حتى وإن لم تسمع صوتي. أقدر مشاعرها كثيرا، وهي توقن بأنني لن أخذلها قط. كانت رؤيتي لها وهي تكبر أسعد من أي شيء آخر.

حتى جاءت الطامة الكبرى، ومصيبتي العظمى، فصغيرتي هجم عليها من لايعرف الشفقة بالصغار والكبار على حد سواء؛ كان الألم يعتصرها وهي لا تملك سوى حق الصراخ، وأنا لا أملك سوى حق الانهيار الصامت. حاربت معها بكل ما أوتيت من قوة لكي ينتهي ألمها سريعا. كان صراخها يؤلمني، ونظراتها لي تذبحني وكأني السبب في معاناتها. عيونها الجميلة ذبلت وانتفخت من كثرة البكاء، وجسدها أصبح هزيلا مثقوبا مكان الحقن كالغربال، لم تعد تتحمل أن أحملها، وأصبحت حريصة ألا أضع يدي عليها إلا بحذر، خشية أن تلامس

موضع ثقب الحقن التي ما خلت موضعا من جسدها إلا وتركت أثرا. والفزع أصبح رفيقها كلما اقترب منها أحد يرتدي اللون الأبيض.

رفيقاتي في غرفة مركز الأورام ذات الثلاثة أَسِرَّة يحكين عن معاناتهن، ليس مع المرض، ولكن مع الروتين العقيم، الذي قد يتسبب في تأخير تلقي العلاج نظير ورقة التأمين، التي تأخرت إحداهن في إحضارها، أو الإتيان بها يوم خميس بعد الساعة الواحدة ظهرا، حيث إن هذا اليوم الترفيهي الذي يخرج فيه الجميع باكرا عن الموعد الرسمي للعمل. وماذا عن المريض الذي ينتظر الأمل في هذا الدواء، الذي يفتك به في محاولة منه للصراع مع المرض على حساب هذا الجسد الهزيل. وماذا عن كون يوم الجمعة إجازة رسمية، ولن يتم استقبال هذه الورقة إلا يوم السبت، بعد أن يأتي الموظف والذي قد يكون في مزاج غير رائق لأداء وظيفته على أكمل وجه، والأخرى التي طلبت الدواء من الممرضة، وحينما أخّرته عنها، ذهبت لها غرفة التمريض لتطالب بحق ابنها في الحياة فهاجت الممرضة وثارت، واعتبرتها تقتحم وقت راحتها الذي من المفترض أن تتناول وجبة الغداء فيه، ناسية تمامًا بأن هذه الوجبة التي في العادي لا تتعدى عشر دقائق -وخاصة إذا ما كان هناك أرواح تنتظر ما تؤديه من عمل- تستغرق ساعة قابلة للزيادة، تتضمن ضحكًا، ومزاحًا مع بقية زميلاتها غير عابئين بالآلام الكامنة خارجًا، وبناء عليه قررت عقابها، وأقسمت أنها إزاء هذا الفعل لن تعطي له شيئا. ونفس الموقف يتكرر في مركز الدم. ترفض الممرضة استقبال المتبرع لأن مرافق المريض

يلح عليها أن تؤدي وظيفتها؛ فالعملية متوقفة على وجود كيس دم. وعن أخرى قالت لها: هل لو كان ابنك المسجّى بين الحياة والموت كنتِ ستتعاملين بهذا البرود؟ فأخبرتها ساخرة "ابني عمره ماهيكون مكان ابنك المريض" هذا غير العمال الذين لا ينظفون غرف المرضى، رغم أن هذا شيء بديهي في ظل كل هذه الفيروسات والأوبئة المنتشرة، ولكن هذا لا يأتي في مخيلتهم، ما دام مزاجهم ليس رائقا، أو أن لديهم حوارًا أهم مع بعض الزميلات، أو لا يوجد زيارة مهمة من شخصيات عامة وإعلام أو مرور لرئيس القسم.

كنت أبث الأمل بداخلهم وأنا في أمَسّ الحاجة لمن يفعلها معي، وما أصعب أن يعيش السقا ظمآن! رحمة الله موجودة ولا شك، ولكن الإهمال لا يجعلها تصل. فكم من ممرضة لم تستطع إعطاء الطفل الجرعة في مكانها الصحيح، وتسربت المادة الكيميائية للطفل تحت الجلد، وكم ارتفعت درجة حرارة الطفل ولم يجد موافقة على دخوله العناية المركزة.

دعوت الله من قلبي أن يمنع عنها الألم، وألا تستمر في عذابي. حتى لبَّت نداء الرفيق الأعلى، ورحلت في هدوء، وتركتني بفجيعتي عليها، أتجرع مرارة الصبر في سكون تام، فقد غسّلتها بدموعي وكفنتها بيدي، واستودعتها الله الذي لا تضيع ودائعه، وأسررت لها بحقيقة مشاعري تجاه والدها وأهله، الذين استقبلوا الخبر بفتور تام"لم توجعي قلب أحد سواي يا صغيرتي" وتم الدفن في هدوء، ويا الله على رحمة الخالق، حين شرع الدفن للموتى؛ فهو بمثابة المكان

الآمن، كتخبئة الأشياء النفيسة لديك في باطن الأرض؛ تخيل لو لم يكن هناك دفن، وكان الميت بمجرد تكفينه يتبخر صاعدًا بروحه وجسده للسماء، تاركًا ذويه يعانون لوعة الفراق، وهم يرونه يتلاشى أمام أنظارهم صاعدًا للسماء العليا دون أي وداع، ولكن أن توصله بنفسك لمثواه الأخير من الدنيا، وتطمئن بأنه يرقد في سلام، مستورًا بجسده، مخفيًّا عن الأنظار ويكون عندك مساحة لزيارته، في أي وقت تريد، لهي رحمة من الخالق بأهل الراحل. ومن ضمن رحمات الكريم بي، الثبات الذي قذفه الله في قلبي حينها، ولكن نار الفراق لم تنطفئ سريعًا، فالحزن ليس مُحرمًا أو يتنافى مع الثبات.

بعدها دخلت غرفتي وحيدة متشحة بالسواد، أملس على مخدعها، وأشم رائحة ملابسها وألعابها المنتشرة في أنحاء الغرفة، على الرفوف لعب أطفال، وكتب حكايات..أشياؤها لا تزال في كل مكان: حقيبة أغراضها التي كنت أحملها في الخروج من أجلها، ملابسها المطوية والمُصنفة كمجموعات، سريرها الصغير الذي يتدلى منه عرائس كرتونية صغيرة، فرشاة شعرها، زجاجات الرضاعة ولوازمها، مستحضراتها الصغيرة من شامبو وكريم وبودرة وحفاضات ومناديل مُبللة، الأرجوحة، أدوات الاستحمام، أدوات طعامها الملونة بما فيها كرسي الطعام،عربة الخروج...

أنثر عرائسها في الأركان لعلي أتدثر بدفء الونس المنشود. أحكي لـ(بندقة) العروس الصغير ذات الشعر الأصفر والفستان الروز بأن (لي لي) قد ذهبت لمنزل

أجمل من هذا بكثير، وأنظر لـ (ديبو) دبدوبها الأبيض ذي الفرو الناعم قائلة: لن تجد من يأكل معك طعامه بعد الآن.

فـ(لي لي) الآن تأكل أجمل الأطعمة وأشهاها، هي الآن في الجنة، وأنفرج في البكاء، وأنا أتخيلها تنظر لي بوجهها الباسم، وسنتها الصغيرة الوحيدة تطل من ثغرها، وأكتشف بأنني لم أعد أستطيع لمسها، فقد أصبحت سرابًا.

(لي لي) ابنتي أصبحت مجرد ذكرى عابرة، أثبتت بأنني قادرة على الإنجاب وعلى تحمل مسؤولية لقب أم.

استقبلت كلمات المواساة الفظة بصمت رهيب، فهناك من تقول بفرحة "هنيئا لك..فهي من ستدخلك الجنة" أكتم قهرتي داخلي، وأمنع نفسي من الرد عليها بـ "عقبالك إن شاء الله".

والثانية التي تقول بحسم "احمدي ربنا فبهذا لم يعد هناك رابطا بينك وبين زوجك السابق"

والثالثة "من الجيد إنها ماتت صغيرة قبل أن تكبر ويزداد تعلق قلبك بها"

كنت أود أن أصرخ في وجوههن: فلتصمتن جميعا ولتذهبن إلى الجحيم.

كيف تكن أمهات وقلوبكن أشد قساوة من الحجر. إنها ابنتي، قطعة مني فقدتها. قلبي يشتعل حريقا وجسدي يئن، حتى صدري المكتظ بغذائها يناديها ليهدأ. (لي لي) يا حضني الصغير لم أشعر أنني عارية الظهر من قبل. فلينته هذا

العزاء، وليبعد هذا الجمع عن حياتي إلى الأبد. لقد سلطت كل منهن سياطها على ظهري، دون شفقة أو رحمة بخوار نفسي. أريد أن أنفرد بذاتي الموجوعة؛ لأمارس طقوس حدادي وحدي. أريد أن أرثي ابنتي، وأبكي وأصرخ دون أي تعليق من أي شخص. لن أبكي أمامهن قطعًا ولن أثير شفقتهن، لن أمنحهن فرصة رؤية دموعي وانهياري. سأنتظر إلى أن ينصرفوا لأفعلها وحدي ..آه يا ابنتي.

ما أقسى قلوب البشر في المصائب طالما الأمر لا يخصهم! بعض من التعاطف ياسادة لن يضير، بعض من الصمت الهادئ سيؤدي الغرض، قليل من الوقت تقضونه معي سيفي ويزيد، أنا لا أريد الاستماع لمصائبكن ومشكلاتكن فهذا لا يخصني. تلك الألوان المبهرجة أعتقد كونها لا تصح فأنتن في عزاء ولسن في فرح، ولا عُذر بأن المتوفاة صغيرة، فهذا عذر أقبح من ذنب؛ فالمتوفاة ابنتي.

أريد أن أصرخ في وجوههن:

"ابنتك التي لا تأكل عكس قريناتها، والتي استمررتِ في الحديث عنها قرابة ساعة كاملة، لا تهمني في شيء. اضطراب نومك وقلقك المستمر، تستطيعين استشارة طبيب. تهور ابنك الدائم، تستطيعين مواجهته وإعادة تربيته. كل مشكلاتكن هذه لا تعنيني في شيء، حتى تؤلمن بها رأسي كلما أتيتن بدافع مواساتي، رفقًا بي قليلًا فلست إخصائية نفسية".

ووجدت نفسي أفقد الكلمات أكثر فأكثر، وأعزف عن سماع الآخرين وهم يتكلمون، فقد بدت أحاديثهم لي ملفقة وفارغة.

مرت أيامي بعدها كالعلقم، أتجرعه بمرارة وعلى مهل، أصحو من نومي فزعة على صوت ابنتي، أبحث عنها جواري في مخدعها الصغير فلا أجدها، فأتذكر فقداني الأبدي لها. لم أكن أفعل شيئًا، ولا أخرج من البيت، ولا حتى من غرفتي، لا أقرأ أو أكتب أو أقوم بأي طريقة أخرى أشغل بها نفسي، غير التحديق خارج النافذة لفترات طويلة دون أن أتحرك. أنام بلا انتظام، ولا أقرب الطعام بالكاد. الليل يمر ثقيلا أصغي فيه إلى صوت الصمت. كل الوقت الذي كان مخصصا

لـ (لي لي) بات فارغا إلا من ذكريات تطعن قلبي، لو لم أعد إلى عملي سأموت كمدًا وقهرًا حتمًا. ليست مشكلتي أن أموت، مشكلتي أن أمرض وأقع فريسة لمرض لا يرحم، وأعود للرحلة اللعينة في البحث عن طبيب يستطيع التشخيص الصحيح ثم لطبيب لا يؤدي واجبه، فلأنفض عن كاهلي هذا الاستسلام المقيت للحزن، وأعود لحياتي المهنية وأنزل لأرض المعركة من جديد؛ فالرغبة في الحياة وحدها كفيلة بتحطيم القيود.

بدأت ألبس ثيابًا مثل أرملة لا يواسيها العزاء، أصبحت العباءة الواسعة هي الزي الرسمي بدلا من الأطقم الكلاسيكية. أذهب إلى العمل بحجاب غامق

اللون، وبوجه خالٍ من أي زينة ولا حتى الكحل، شعرت بكوني أصبحت راهبة ومعبدي هو العمل.

*****

اتصال من عمتي ردني إلى الحاضر بقوة، رنين الهاتف جعلني أخرج مما كنت فيه وليس في الأمر مجاز، فقد اندمجت روحي بكل تفاصيلها مع كلمات غيداء لكن عمتي انتزعتني من عالمها فجأة، كان صوتها عبر الهاتف قلقًا، لكني طمأنتها دون أن تترك كلماتي أثرا حقيقيا على نفسها وأكملت قرءاتي في صمت.

"الجدران باردة رغم سطوع الشمس بالخارج، والجسد بلا روح رغم كونه على قيد الحياة، وكدمات زرقاء مؤلمة بلا سبب واضح، والعين حزينة بلا دمعة واحدة، والقلب ينزف بلا نقطة دماء".

خرجت من قوقعتي وبت أتحسس خطواتي كطفل يتعلم المشي، ما بين التوجس وبين الرغبة في الاكتشاف. لم أمانع حين اقترحت إحدى صديقاتي بأن نقضي يوما في مكان مفتوح يسع عددنا الكبير ويرفه عنا ضيق الأماكن المغلقة التي اعتدنا عليها يوميًا.

كان الجو رائعًا، زرقة السماء الصافية، مع نسمات هواء الصيف المداعبة للرّوح، وصفحة النّيل الرائقة، والأرض الواسعة التي اكتست بالخضرة.

كنت معهن ولكني منفصلة داخليًّا عنهن، قد أخبرني المكان بأنه يفتقد وجوده، فهو قد خلق لنا. كان حديث صديقاتي بلا طائل من وجهة نظري؛ فكل ما يحكينه محض هراء طالما لم يذكرن اسمه، ويبقى شعوري بأن كل الحاضرين بقربي ليسوا أكثر من هواء، طالما لم يوجد في الصورة. حتى الأماكن تسألني عنه، وتأبى روحي الاستمتاع دونه.

دعوني أعرفكم عليهن، ولأشارككم معي في جلستنا النِسوية التي تعتبر بمثابة تفريغ للكبت الكامن بداخلنا.

سهيلة (فتاة الثلاثين ما زالت آنسة. تلك الفتاة -قصيرة الجذع، رشيقة القوام، خمرية البشرة - تلقي على نفسها نظرة أخيرة في المرآة قبل أن ترتدي حجابها وتحدث صورتها المنعكسة أمامها قائلة: "ماهذه الخصلات البيضاء التي بدأت تزحف على شعري الأسود بجرأة، وليس على استحياء كما كانت في بدايتها؟ وماهذه الخطوط العريضة التي بدأت تترسم على جوانب عينيّ؟ ما زلت في أوائل الثلاثينيات، ما الذي يحدث لي؟ لم أتزوج بعد لأصبح عجوزًا بهذه السرعة، كيف ستكون صور زفافي إذا ما خُطبت يومًا وأصبح لي شريك حياة؟ تبًّا لقوانين السن ولهذه العلامات التي تظهر مبشّرة برحيل العمر. فهل سيرحل العمر قبل أن يأتي؟ أم لعلَّه أتى دون أن يثبت لي حضوره").

تروي أسباب عدم اكتمال الزيجة قائلة: "طلبت أم العريس أن تراني دون حجاب، فآلمني طلبها هذا وشعرت بكوني مجرد سلعة يريدون معاينتها أولا،

متناسية بأنني حتى لو كان شعري رديئًا فسأعتني به وأجعله ناعمًا كملمس بشرة الطفل. وما كان مني غير أن رددت على طلبها بطلب مماثل، فبالنسبة لي يوجد أشياء مهمة -بنفس أهمية ملمس شعري بالنسبة لها- لابد من التأكد منها قبل الزواج، فعلى سبيل المثال: يهمني أن أعرف ما إذا كان الزوج المنتظر يُصدر صوتًا من أنفه أثناء نومه أم لا، فكما تعلمن فإن نومي خفيف وأبسط الأصوات تزعجني؛ وأيضا يهمني أن أعرف إن كان الزوج المنتظر يشد السيفون بعد استخدامه المرحاض حتى لو كان البول لا يستدعي ذلك من وجهة نظره، فلهذا السبب لا أحبّذ استخدام المراحيض العامة؛ كما سألت عن استخدامه لفرشاة الأسنان وخصوصا قبل النوم. وقلت لها "كل هذه الأشياء لا أستطيع معرفتها سوى بالتجربة، ولهذا فأنا أعرض عليكِ أن يبيت شقيقي مع ولدك ليلة كاملة، فإذا أعطاه شقيقي الدرجة النهائية، حينها فقط سأسمح لكم برؤية شعري ورؤيتي دون أي مستحضرات تجميل".

اندهشت السيدة من جرأتي على ما يبدو ورحلت بلا عودة، حينما علم ابنها أخبرني بأنه لم يطلب من أحد أن يرى شعري ليخبره بالنتيجة، وأنه خارج نطاق ما حدث، ولكنني كنت قد أخذت انطباعًا عن أمه بأنها متسلطة، ولا أريد أن يجمعني بها أي رابط."

صفقت سلمى متحمسة " أحسنتِ يا فتاة".

هنا تدخلت رضوى -أصغرنا سنًّا ما زالت في العشرينيات من عمرها، تزوجت من قريب لها عن حب دام سنوات، اسمها المفضل على جميع وسائل التواصل الاجتماعي (زوجة مازن) لديها طفلتان، تعيش حياة مستقرة هادئة تخلو تقريبا من المشكلات الكونية الخاصة بنون النسوة-

"ماهذا الذي فعلتِه؟ هذا في شرع الجميع قلة ذوق وجرأة مُبالغ فيها، لا تستبعدي ما سيقال عنكِ بعد ذلك في بيوت أقربائها ومعارفها.. كان من الممكن أن ترفضي دون إبداء أسباب".

دافعت (سلمى) -الفتاة المُدلَّلة، حديثة الزواج، بدينة نسبيا- بغيظ قائلة: " لا أعاشر حيوانات حتى أنظف مكانهم" هكذا لفظت بغضب صارخ، وكأننا المسؤولون عن معاناتها.

"معكِ حق يا سُهيلة، يجب أن تكون النظافة الشخصية أولا وقبل أي شيء آخر، وخاصة استخدام مزيل للعرق لتكون الرائحة المنبعثة من الجسد مقبولة، ولا ننسى أهمية ارتداء الخف في المنزل، عوضًا عن السير حافيًا والتصرف كطفل صغير يخرج للشرفة، ويصعد الدَّرج ثم يجلس بقدمه التي علق بها التراب على المقاعد النظيفة، فتتسخ بسبب هذا الفعل الأحمق.

وكذلك منضدة المطبخ التي أستخدمها في تقطيع الخضراوات وما إلى ذلك، أحرص دائما على نظافتها، وليس من العدل أنني كلما أردت استخدامها أجد بقايا وفتاتا منثورا من البن، أو الشاي، أو السكر التي بدورها تصبح غذاء شهيا

للحشرات، وقد يحدث أن أكتشف صدفة رائحة مبيد الحشرات عليها، دون أن يتم تطهير هذا المكان، و قد لا أعلم ما حدث فأقطع المأكولات في المكان الذي تم فيه رش هذا المبيد السام.

ليست وظيفتي في الحياة هنا أن أنظف ما تسبب في اتساخه، فمن حقي أن أجد المكان الذي أريد استخدامه نظيفا كما تركته. هل تعلمن أكثر ما يثير غيظي أن لو قام أحد بزيارتنا فجأة سيتهمني أنا بعدم النظافة!".

قالت رضوى: إذا أحببته ستستمتعين بأداء كل هذه الطقوس اليومية.

تنهدت هدير (فتاة الأربعين ذات اللون الخمري، ممتلئة الجسم، لا يشتهيها أحد، الكل يقترب لاستنشاق عبيرها ثم الرحيل السريع عنها. لا أحد يظل ليرويها، أو يعتني بها ويبعد عنها عيون المتطفلين والذين لا يفكرون سوى في الاستمتاع اللحظي فقط غير عابئين بما يفعله هذا بها. ما يؤلمها أنها ستذبل وحيدة ولن يشعر بموتها أحد).

فقالت: "هذا أفضل بكثير من الشعور بالنقص الناتج عن الوحدة الإجبارية، كحال صائم لا يعلم متى يحين موعد إفطاره وربما لا يأتي، حتى وإن كنتن تعانين من وجود رجل في محيطكن، فذلك يظل أفضل بكثير من أن تشعرن كوردة لايشتهيها أحد".

قالت رضوى: يقولون الأشياء الجميلة تأتي متأخرة.

زفرت هدير بضيق قائلة: مقولة كاذبة؛ فالأشياء الجميلة لا تأتي متأخرة بل في موعدها المناسب تماما، تأخيرها يفقدها جمالها مهما كانت رائعة. فمن يتأخر عن تناول إفطار المغرب في رمضان لأي سبب مثلا، لن يجد مُتعة في تناوله، بل ستكون كلحظات مسروقة ليسد بها رمق جوعه طوال اليوم. وفي الوقت نفسه هناك من يستعد للصلاة، أو لتبادل الزيارات، أو للترفيه، أو لختم القرآن، أو لمشاهدة التلفاز، بينما أنت تأكل وجبتك المتأخرة. فرق التوقيت الزمني بينك وبين الآخرين ليس جميلًا على أية حال.

قلت بغضب مستتر:

متعة ألا يوقع رجل بأنامله على صدرك وألا يترك آثاره على جسدك، وأن لا يقترب من مساحتك الخاصة رجل يعيث فيها فسادا، متعة لا تشعر بقيمتها إلا من صار جسدها موشومًا ببصمات لن تزول ولو بماء النار. استمتعي بكون جسدك نقيا لم يمر عليه أحد، استمتعي بلقب (آنسة) ففي ذلك حماية لك، فأنتِ بالنسبة للجميع محظورة لا يستطيع أحد المساس بك وإن أرادوا. ضعي نصب عينيكِ دائمًا معاناة المُطلقة، تلك الموصومة بلقبها، المباحة في نظر الجميع حتى وإن لم تثرهم. امرأة بلا ذكريات موجعة أفضل للراحة النفسية ولسلامك الداخلي، وشعورك بالنقص أفضل بكثير من شعورك بالمهانة.

ردت (هدير) بنفاد صبر: هرموناتي في حاجة ماسة لذلك.الطريق الوحيد لعلاقة حميمية مشروعة هو الزواج، فماذا عليَّ أن أفعل وهذا الطريق غير متاح.

أصبر.. نعم، وأقوى على شهوتي ..كل هذا سهل، لكن هرموناتي ليس لها علاقة بذلك.

الطبيبة أخبرتني بأن علاجي في الزواج ونسيت أن تخبرني أي الصيدليات التى أستطيع من خلالها جلب هذا الدواء. ثم أأخبرك أنا عن المهانة الحقيقية؟ تلك التي أشعر بها من سخرية الناس من بدانتي. فمن أخبرهم بأن منحي لقبا مثل: "دبة أو برميل أو ديناصور" مبعث للضحك!

أعقبت (سهيلة) بتأكيد لنفس المعاناة: الفكرة أن ممارسة الغريزة بطريقة شرعية طريقها الوحيد هو الزواج، زواج المتعة مثلا حرام يجب أن يكون زواجًا أبديًّا بلا تحديد مدة زمنية، وللأسف الزواج بالإضافة لكونه غير متاح بسهولة ولكن إذا تم يكون الجنس فيه ميزة إضافية، لا يقوم الزواج في مجتمعنا من أجله فقط حتى وإن كان هذا هو سبب نجاحه أو فشله.

الزواج يحتاج إلى تحمل المسؤولية والتقبل والتوافق والمال والحب والاجتماعيات...

لو توافرت هذه الأشياء أو معظمها هنا سيتم الزواج ومعه الجماع هدية.

مقاومة الغريزة تعتبر جهادًا، حين نصوم في رمضان يكون هناك أمل بأن المغرب سيؤذن ولو بعد حين. لكن هناك حالات كثيرة لا تدري متى سيحين موعد أذان المغرب الخاص بها.

فردت (سلمى) لتخفف من حدة الحوار: أتمنى أن أجد من يحبني كحب ونيس للعسلية ويغني لي"يا معسلة بصي من الشباك".

ردت: عسلية! يا له من مُسمى حلو المذاق حينما يناديكِ حبيبك به.

قاطعتنا رضوى ساخرة بابتسامة محببة: "ما برطمان العسل الذي أتي على حين غرة منكن هكذا"؟

ضحكن جميعا وقالت (هدير) ذكرتموني بالألقاب التي اعتدت سماعها من سائقي المواصلات، أكثر لقب أحببته بعد أن جربت كل الألقاب من "يا حجة" إلى "البت اللي ورا" كان 'يا باشا'

قالت سهيلة: سمعت نصيحة في التليفزيون من إحدى الخبيرات، تقول للمتزوجات: إن الملابس الضيقة تثير الزوج أكثر من الملابس العارية وتابعت بضحكة "نفذوها يمكن تنفعكم".

*****

أثارتني أوجاعهن جميعا، كنت أظن أن التقدم في العمر سيمنحني ميزة الخلو من الوجع، ولكني وجدت أن لكل منا هَمًّا يؤويه ولكننا نجتهد لنداريه، وهذا ليس له علاقة بالعمر. أخذت نفسًا عميقا ثم تجرعت من كوب الماء أمامي جرعات متوالية حتى أنهيته ثم تابعت القراءة.

"جلستي المثمرة معهن أوحت لي بفكرة لمقالي الجديد وستكون تحت عنوان (فضفضة)

على صفحة الجريدة بالفيس بوك كتبت "اكتب رسالة تعلم أن أحدهم سيقرؤها لعله ينتبه لما يحدثه بداخلك دون أن يقصد؛ أنتم أصحاب القلم اليوم، وسيتم نشر الموضوع بأسمائكم إذا أردتم" في انتظار تعليقاتكم

وأتت التعليقات:

إحداهن تقول: أسوأ ما في التجمعات العائلية، ذلك السؤال المقرر: "مش هنفرح بكِ بقى؟ ما تشدي حيلك" ويرافق ذلك السؤال نظرات توحي بتقصيري. ليتهم يخبرونني ما المطلوب مني فعله تحديدًا! هل أعلق لافتة على ظهري كُتب عليها"مطلوب عريس؟" أم أنادي بميكرفون في الشوارع قائلة:"يا ولاد الحلال ..من لديه عريس صالح للزواج فليأتِ به هنا حالًا والأجر والثواب عند الله" أم أنشر صورتي مع بياناتي على ملصقات متنوعة في الشوارع مكتوب عليها"من لديه القدرة على دخول قفص الزوجية وهو في كامل قواه العقلية سيحصل على القفص مجانًا" أم أذيع إعلانات في التليفزيون "تزوجني الآن واحصل على بوتاجاز هدية"؟

لا، لن أفعل كل هذا، فهذه أشياء مُكلفة ماديًّا؛ فقط سأطلب منهم أن "يشدوا حيلهم" ويبحثوا لي عن عريس مناسب فهم من يريدون زواجي ولست أنا.

وتعليق آخر صاحبته تقول: زوجي العزيز/

أرجو قبول اعتذاري الخاص لعدم قدرتي على التأقلم مع مزاجك المتقلب دائما؛ فأنا لست آلة تتحكم بها بجهاز التحكم عن بُعد على حسب حالتك النفسية وقتها.

أنا لست متاحة للقيام بالدور الذي تريدني أن أقوم به وفق ميولك النرجسية، التي تقتضي عليّ أن أخضع لما تمليه عليَّ أفعالك. أنا لست قناة كوميدية هزلية في وقت مزاجك الرائق، ولست قناة تستقبل شكوى الجمهور في وقت استيائك المستمر من حياتك، ولست قناة للمصارعة لاستقبال مزاحك الثقيل الذي تستعمل فيه يديك، ولست قناة للطهي لتحضير كل ما تريد وقت ما تريد، ولست قناة صامتة إذا ما أردت الانفراد بوحدتك.

المفاجأة أنني إنسانة وتقلباتي المزاجية ليست مشفرة على توقيت تقلباتك المزاجية، ففي الوقت الذي تكون فيه رائقًا مثلًا، أكون أنا منهكة وأحتاج الهدوء التام، وفي الوقت الذي تلقي تجاهي الوسادات بلا مقدمات، أكون في قمة غضبي أو إنهاكي، وفي الوقت الذي أريد أن أمارس جنوني وصخبي تريدني على الوضع الصامت.

في كل الأحوال أنا فقط مَنْ أتأقلم على مزاجك؛ وهذا جد متعب ومرهق نفسيًّا بالنسبة لي؛ فمن فضلك راعِ كوني إنسانة ولست بآلة.

*****

كان فارس من المتابعين لي في صمت فترك رسالة خاصة فحواها "يعجبني تركك مساحة للقراء يعبرون فيها عن أوجاعهم ..استمري".

أستقبل رسالته بفرحة عارمة دون سبب محدد، فهو مجرد صديق، وأرسل له رسالة شكر على دعمه، وأخبره بأنه إذا أرد يومًا الفضفضة فباب صندوق الوارد مفتوح له دومًا.

أحبك بقدر ما أوتيت من وجع

وبقدر سنوات صبري ومرارة طعمها في حلقي

أحبك بعدد أيام عمري الفائتة

## آفة التصوير

من أكثر المشاهد شيوعًا في أي مكان تذهب إليه، استخدام كاميرات المحمول سواء بسبب، كالتصوير الشخصي أو تسجيل محاضرة مهمة بالصوت والصورة مثلًا، أو من غير سبب، كتصوير الحضور في حفل ما دون أن تكون أنت صاحب الحفل، ودون أن تستأذن الحضور، أو حتى تنبههم لهذا.

متعة التصوير تكمن في أن تسجل لحظات ممتعة لك، فتجعلها خالدة كلما نظرت إليها.

رؤيتك للصور تجعلك تتذكر أحداثًا مضت، فتبتسم حنينًا لهذه الذكريات، الصور بمثابة مستند قوي لمرورك بهذا الحدث. فماذا يفيدك تصوير أشخاص ليس لك بهم علاقة، سوى تواجدكم في نفس المكان، وفى نفس التوقيت؟

ما الفائدة التي تنشدها من هذا الفعل، خاصة أنك تضرب رغبتهن الشخصية عرض الحائط، أنت حتى لا تتكلف عناء استئذانهن، وتقوم بالتصوير وكأن هذه مهمتك اليوم. هناك من يرفضون أن تكون صورهم مُتاحة لأى شخص، وهناك من يعتبرونها انتهاكًا لحرياتهم الشخصية، وهناك من يرفضون

فكرة التصوير من قِبَل مَنْ ليس لهم بهم صلة، ولهذا وجب عليك أن تحترم ذلك. أرى أن التقنيات الحديثة التي تتطور يومًا بعد يوم، في أجهزة المحمول مثلًا، يجب أن تخضع لآداب الاستخدام العامة، فحريتك تنتهي عند حدود حرية الآخرين.

وبدأت التعليقات: "مش من حق حد يصورني بدون إذني".

أما تعليق (فارس) فكان كما يلي: "أرى أن التصوير الآن أصبح موضة ليس إلا، ومن يصورون أدق تفاصيل حياتهم وخروجهم مع الأصدقاء، كمن يعانون من فراغ في حياتهم، ويريدون تعويضه بإيصال رسالة للناس مفادها: "أنا أعيش بأحسن حالاتي".

فارس يتمتع بنظرة ثاقبة واقعية للأمور، يعجبني تفكيره وطريقة عرضه المنظمة لأفكاره، يقول ما أود قوله ولا أكتبه، اعتبارًا لكونه بديهيا، فهو يقوم بفعل ذلك عني. تعليقاته تضفي رونقا خاصا على ما أكتب. رؤية كل منا لقلم الآخر كأولياء الأمور، يلتقيان حين يذهبان بأبنائهما إلى المدرسة. قد يعجب بابنتي وأعجب بابنته ولكن يظل كل منا له انتماؤه الخاص لفلذة كبده."

*****

أستعيد ذهنيا ما قرأته وقد لفت انتباهي ذكر اسم أبي كثيرا، هل غيداء معجبة به أم هل هو فارسها الذي استعاضت عنه بلقب "هو". أتجرع رشفة كبيرة من المشروب المثلج أمامي وقلبي يدق توجسًا مما سيقرؤه بعد قليل. أنظر إلى هاتفي كمحاولة لتخفيف التوتر الذي طرأ عليَّ، أستقبل رسالة من مركز تدريب

رقص الباليه بتغيير موعد الحصة التالية للأسبوع القادم، ألقي نظرة سريعة على الصفحة الرئيسية لصفحتي على الفيس بوك ثم أتنهَّد وأعاود القراءة بشغف أكبر.

"كنت امرأة متوازنة لا أدري عن العشق شيئا، ولا أعلم عن خبايا العلاقة الحميمية أي معلومات..هناك صنف من الرجال إذا ما جاع فتح الثلاجة، وأخرج وجبته ليتناولها في صمت سريع، تاركًا فوضى ما فعل لزوجته. وهناك من ذاق من النساء الكثيرات وتكون رغبته في التهام الوجبة ناتجة من الجوع، حتى وإن بدا متمهلًا، كأن يحضر الأطباق على السفرة، ويرص طقم السرفيس، ويضع المنشفة على ساقيه، ويتناول الطعام باشتهاء، وهي تتناول الوجبه معه فقط حتى لا يغضب، وليس رغبة منها، فمعه قد لا تشعر بالجوع الذي يجعلها تبادر بتحضير الوجبة مثلا.. أما (هو) فكانت الوجبة بالنسبة له ليست رغبة أو جوعًا وإنما فن يستمتع به. يقف في المطبخ ويغسل الخضراوات ويقطعها على مَهل ثم يرصها بشكل شهي خلاب. كان يجبرني أن أتناول الوجبة باستمتاع حتى وإن لم أكن أشعر بالجوع. صاخب، مختلف، متجدد، عاشق لما يفعل. قبله لم أكن أدري شيئا، وبعده أصبحت عالمة ببواطن الأمور. تذوقته من حروفه، فمخيلتي الخصبة تقوم بتهيئة المناخ المناسب لاستحضار روحه معي.

لم يكن لي رفيق من قبل، دائما كنت وحدي حتى في زواجي، هو كان الروح التي انبثقت من ذاتي على هيئة رجل، وهذا كان سر انجذابي له فور أول كلمة قرأتها له طوال سنوات أربع أتابعه بشغف. كان يكتب كل ما يدور بخلدي دون

أن يدري. تحدث عن العشق المفقود، والوطن المنكوب، والموت المصلوب، والجرح المنكود. حتى حدوث الهدنة بعد اندلاع الثورة المجيدة في 25 يناير 2011، وكأنها أتت لتطيب الجراح المنتهكة. فصار قلمه أخف حدة، وأكثر شهوة، وصرت أنا مهيَّأة لاستقبال حب يذيب جليد الكبت والحرمان، ويشعل الحرائق في قلب صار مهجورًا، إلا من ذكريات مبعثرة في الأركان، تشي بحروب صليبية مرت عليه، فلم تُبق منه إلا حطاما منثورا..

ويوم التنحي 11 فبراير أبهج النفوس كأن لم يصيبها شرخ أبدا، وصادف أن بعدها بأيام تاريخ ميلاده، فاقترحت عليه بقضاء وقت مع الأصدقاء في احتفالية خاصة تخللها حوارات خفيفة مرحة بين الجميع، جعلته يظهرامتنانه لي في نهاية اليوم، وخاصة بعدما تفاجأ مثلي بأنني قد أهديته وشاحًا بألوان علم مصر هو نفس ألوان البلوفر الذي كان يرتديه، فعقب بقوله "أنتِ جميلة"، لم أعتبرها مغازلة لمظهري الخارجي ولكني شعرت أنه يصف روحي كما يراها.

كانت العلاقة رسمية وإن كان بها بعض الاقتراب غير المعلن. لم يسبق لنا أن أجرينا حديثا شخصيا من قبل، وإن كنا نعلم عن حياة بعضنا الكثير.هو يعلم عني ما يعلمه جميع الزملاء، وأنا أيضا أعلم عنه ما يعلمه الزملاء.

أدافع عنه في غيابه إذا ماهاجم قلمه أحدًا وحين يعلم قدرًا، يرتبك ولا يجد ما يقوله سوى "أنتِ جميلة" وكأن هذا الوصف هو شعار نظرته الدائمة لي.

إذا ما تعكر صفوي إزاء تصرف ما صدر منه سرعان ما يزول فور محادثته لي، وأنا التي لا تصفو سريعًا. كنت منبهرة بشخصيته ويوجد شيء لا أعلمه يجذبني دومًا تجاهه.

يتحدث عن (ندى) ابنته كأنها ملكية خاصة به، يعجبني وهو يتحدث عنها ويذكر بعضًا من مواقفها الطريفة وخاصة حينما تمطر السماء فيبتسم قائلًا "لعل ندى الآن تعانق السماء وتقبل المطر، هذا طبعها منذ الصغر. ورثت مِنِّي عشق الطبيعة وجنون التعبير عن هذا العشق".

أسأله حينها: وماذا أيضًا قد ورثته منك؟ فيجيب بفخر: اعتدادها بذاتها وقدرتها الدائمة على التحدي، تتحدى نفسها دومًا في أي شيء تخشى فعله فتقدم عليه بشجاعة، وتنتشي بصخب فور تحقيق انتصارها الصغير، تحب تجريب كل شيء بدافع الفضول، طموحة، جريئة، والأهم عاشقة للنجاح. وحين ينشر صورة لها مُذيلة بـ "حبي الوحيد"، وأخرى تجمعهما فيكتب "جميلة الجميلات وملكة كل العصور: ندى فارس سيف الدين".

يضع صورتها كخلفية ثابتة لشاشة هاتفه المحمول، يخبرني عن مشاجرة قديمة كادت تحدث مع ابن الجيران -الذي يكبر (ندى) ببضع سنوات- لولا اعتذار الولد وتوضيحه بأنه ما قصد سوى مشاكسة بريئة لجارته التي بمثابة أخته الصغيرة. أتذكر يوم ظهور نتيجة الثانوية العامة وكم كان توتره وكأن النتيجة خاصة بحياة أو موت، كان هذا بعد عودتي لعملي في عام2007 أحببت حبه

لابنته وإظهار هذا للجميع، رأيته ساجدًا لله داعيًا أن تحقق ابنته مبتغاها وألا يتحكم المجموع في مستقبلها، أشفقت عليه حينها وظللت أدعو لها في سري وأتضرع إشفاقًا عليه، وفور علمه بالنتيجة ابتاع مياهًا غازية لجميع الزملاء قائلًا بفخر "لقد فعلتها ندى"، كم يبدو جذابًا حين يصبح مزاجه رائقا، فرحا، مُنتشيا .أخبرني بعد ذلك بأن (ندى) تهوى قراءة قلمي وتتابعه بشغف أكثر مما تتابع قلمه مما يثير حنقه في صمت، حتى لا يبدو كأب متسلط يفرض على ابنته قراءة ما يخط به قلمه دون غيره، فكم مرة يجدها تقتبس بعضًا من كلماتي وتضعها على حائط صفحتها الشخصية أو تشارك منشوراتها للأصدقاء ولم تفعلها ولو مرة مع قلمه.

*****

أبتسم بسخرية دامعة، وأنا أقرأ نظرة أبي لي أمام زملائه وكم يظهر بكونه أبًا حنونًا، مُحبا وهو في واقع حياتي لا يشعرني بمشاعره هذه، بل لولا وجود عمتي معنا لشعرت بكوني غريبة لا أنتمي له سوى فقط إلى اسمه الذي أحمله.. أعاود القراءة ومعي غُصة في حلقي وفضول لمعرفة هل أبي هو فارس غيداء المجهول أم هي تتحدث عنه بكونه صديقًا؟ لأتابع وأرى ما كتبت.

"فارس أو العاشق الثورجي كما أطلقت عليه فور معرفته، ذلك الرجل الأربعيني الذي ما زال يتمتع بلياقته البدنية، ضخم الجثة، طويل القامة، أصلع في مقدمة الرأس، له لحيه كثيفة رغم قصرها، وشارب كَثّ دومًا مُشذب. وعينان بنيتا اللون منهكتان؛ تغوص فيهما ولا تدري أمتعبة هي أم حزينة أم استكفت من

الأوجاع ..عين غامضة تنبئ بصندوق أسرار محكم الغلق، الشيب يغزو فوديه مبشرًا بقدوم خريف عاصف لا يرحم. غامض، قليل الكلام، صعب المعشر، لا يرضيه شيء بسهولة، يعشق النساء ويتفنن في الكتابة عنهن ولهن. هو في الأصل صحفي له عمود خاص يكتب فيه يوميا. يكتب عن السياسة بجرأة، وعن النساء بعشق، وعن الثورة بإقدام. خيانة زوجته تركت ندبة في روحه لم تُشف، وابتعاد حبيبته كان بمثابة انهيار الكون. يهتم بقضايا بلده، كأنه يثأر لنفسه مما فعلته معه أقرب النساء. نظراته ممتلئة بحزن دفين رغم حدتها الظاهرة."

ما هذا الذي أقرؤه؟ هل أمي خائنة؟ ومن هي حبيبته التي تركته؟ وهل مثل أبي يُخان أو يترك! بعيدا عن علاقتي المضطربة به ولكني أراه رجلًا له جاذبية خاصة. معها حق غيداء أن يثار فضولها حوله.. أتابع القراءة بفضول أكبر.

"يتدخل فارس في مشادة كلامية بيني وبين زميل آخر، عقب تعليق الأخير على جزء من مقالي بعد أن قرأ بعضا منه، يقول:

"لقد بلغ تطور الإنسان إلى أقصى مدى، جعله يتراجع لما كان عليه من همجية.

فمن الملاحظ في الآونة الأخيرة أن الإنسان، ذلك الكائن الحي أصبح في حاجة شديدة إلى أن يتم استئناسه من جديد، بعد أن وصل من الشراسة إلى درجة أن يفترس فصيلته بلا مبالاة منقطعة النظير. حتى مُسميات الأشياء البديهية، صارت من وجهة نظره لها معنى آخر.

فعلى سبيل المثال: حينما يهجم مجموعة من الذكور على أنثى لتجريدها من ملابسها، والعبث في جسدها، ونهشها وقد يصل الأمر لحرقها بماء مغلي، كل هذه التصرفات الوحشية يطلق عليها بكل براءة "تحرش!" أعتقد أن التحرش كلفظ بريء تماما من هذا الافتراس وانعدام الإنسانية".

فيعلق أحد الزملاء ساخرا: "وإيه اللي وداهم هناك؟"

فأرد بانفعال"لو كانت إحدى محارمك بينهم وتعرضت لمثل هذا هل كنت ستقول ذلك؟"

فيرد "أنا محارمي محترمين" يقتطع فارس الحوار قائلا:"وما دخل الاحترام في اعتداء حيوان عليك؟ هو حيوان ولا يوجد مبرر لدفاعك عنه".

فأتابع قائلة: "معظم النساء تتعرض للتحرش بشكل أو بآخر، كونك كرجل البيت لا تعلم هذا فقد يكون لعدة أسباب منها مثلا: علمها السابق بأنك لن تفعل شيئا ثم أن الموقف انتهى، وحتى إن لم يكن انتهى لعلها تعلم بأنك أضعف من أن تجلب لها حقها الإنساني المهدر فتكتفي بالصمت المقهور ولا تخبر أحدًا، وقد تكون على علم بشخصيتك التي لن تنصفها بل وستحملها مسؤولية انتهاكها. وقد تكون لا تريد أن تستعيد الأحداث، فكم الغضب الذي تحمله قد يحرق مدينة كاملة إن تحول لطاقة مادية، لن تسرد ما حدث لها إلا في حالة أنها لا تخشى رد فعلك أو لن يهمها تعليقك.

فقبل أن تضع ساقًا فوق ساق وتقول بكل ثقة: "أنا محارمي محترمين"، أريد أن ألفت انتباهك بأن المتحرش لا يفرق ما بين محترمة وغير محترمة. هي بالنسبة له قطعة لحمة وهو كلب ليس إلا. فيرد بعناد "هي من ترغب في لفت الانتباه وتريد هذا بل وتسعد به أيضا".

أحاول كظم غيظي فأجيب "كما أنك لا تفهم معاناة الحامل ولن تستطيع وصف ما تشعر به بحكم كونك لم تجرب، فالأفضل في مثل هذه الحالات التي لم تجربها ولن تفعل بحكم نوعك أن تتعاطف أو تكتفي بالصمت".

يحسم فارس هذا الجدل ويختم بقوله "ملابس المرأة سواء محجبة أم لا، محتشمة من وجهة نظرك أم لا، هذا مبرر الحيوانات. الإنسان السوي يرفض التعدي على الغير مهما كان هذا الغير من وجهة نظره يستحق أم لا".

*****

يحادثني ليلا ليُهدئ من انفعالي من جراء هذا الموقف البغيض، ويسرد مواقف شتى ونتطرق لأمور كثيرة منوعة يتخللها بعض من المزاح المحبب إلى النفس، بتنا نتحادث حتى بزغت خيوط الضوء في السماء. أغلق معه وأنا في أسعد حالاتي.

أرغب في ضمه لصدري، والاعتناء به كما يعتني الجندي بقائده الجريح. كان يضغط على زر قلبي المخفي بكلماته دون أن يدري، وكنت أتوق لمن يمنح قلبي قُبلة الحياة، أربعة أعوام من متابعة ما يخطّ به قلمه في كل أحواله، أربعة

أعوام من زمالة العمل حتى جاء اليوم الذي انفجر بركان المشاعر من داخلي، موجها حممه اللهيبية إلى قلمي، فكتب مشاعر مستترة عن رجل، همت عشقا في هواه دون أن أهتم بأن أقضي وقتي معه أو أفرض وجودي عليه، كانت صفحتي على الفيس بوك ميناء لمشاعر قلبي، عَلَّ رُبان السفينة ينتبه لرسائل الأثير التي تتقاذفها أمواج فؤادي.

هو لا يغريني كرجل أعشقه؛ بل يغريني كرجل أتحدث عنه بإتقان، وكأنى أعلم خريطة أعماقه وأستطيع السير بمفردي دون أن أخشى التيه، يغريني كطفل فقد أمه ويجري في كل الاتجاهات علَّه يجد حضنها ليستكين ويهدأ فأتبرع أنا لأقوم بهذا الدور. أدركت حينها أن قلبي أصبح يرافقه. لا أعلم سر انجذابي إليه، هل يلعب قانون تضاد الأشياء دورًا في مشاعرنا! وأسأل ذاتي: ترى إذا ذقت للحب طعما كيف تكون نكهة قلمي؟ فإن لي قلبًا يحن لحضن لم يتذوقه من قبل، فقد تاقت نفسي شوقا لوليف الروح.

أدهشني القلم حينها بجرأة لم أعهدها منه من قبل، فهو الرزين اللاعن لما يسمى حب، هنا وهنا فقط راسلني ليسأل عن صاحب الحظ السعيد. أعشق اقتحامه لحصونى المنيعة، وجوده أضاف لحياتي بهجة كمكعب ثلج تم إلقاؤه في عصير طازج ساعة قيظ، وأتساءل: ترى هل ستكون حبى الأعظم أم ندمى الأعظم؟ الأكيد أنك الآن سرى الأعظم.

وتحولت دفة الحوار من الحياة العامة إلى الصفات الخاصة، ورؤية كل منا للآخر فيخبرني " أرى خلف هدوئك غبارا، وتحت سكوتك صهيلا، وخلف الرزانة جنونا وجموحا"

فأخبره "أراك كالأسد في هيبته، وكسله وكبريائه، ومعرفته قدر نفسه، وكالجواد يرمح كيف يشاء فيتعدى كل الحواجز والحدود بثقة مُرشد غير آبه لوعورة الطريق".

وأعاهد ذاتي "إذا منحني قلبه سأمنحه نفسي" وأهمس في نفسي: أريدك أنت أن تحرث أرضي، أريدك أنت أن تنثر بذورك لتنبت ثمرتي" كدت أن أخبره أنه "هو" كأن قد آن أوان الشتاء ليفسح مجالا للربيع، وصرنا نتحدث عن فارسي المجهول، وقلبي يصرخ داخلي "أخبريه الآن" شعرت بذخات السعادة تنضح على روحي كلما تحادثنا، ودقات قلبي المدوية كدقات الطبول استعدادًا للمعركة فور رؤية رسالة منه، ابتهاجا بحضوره واستبشارا بقدومه، الحديث وإن كان قصيرا يكفيني منه لأيام. أشعر حينها أنني غادرت الأرض بلا رجعة، واستوطنت على سحابة بيضاء خالية من الشوائب لا يثيرني أن أنظر للعالم تحتي؛ فمن يفكر في الأرض وهو يعانق السحاب، تشبثت بوجوده في حياتي تحت أي مسمى، لن أفلته من يدي مهما حدث، فقلبي البكر قد نبض باسمه، وروحي الظمأى قد رويت بوصاله. صرنا متقاربين أكثر، وتحدثنا أكثر وأكثر، وهو يريد أن يعرف من هو هذا الفارس المجهول الذي أكتب عنه هكذا، فقد أثاره قلمي

الحزين، حين رقص فرحًا، بوجود من يستحق. إذن من هذا المغوار الذي استحقها، حتى قالها لي صراحة "حدسي يخبرني بأنني هو" لجمتني المفاجأة، وكدت أنفي حتى لا ينتصر غروره عليّ، ولم أعلق بل كتب قلمي بعدها.

إذا شاركتني عشق المطر
وأدمنت معي رائحة الشجر
وصاحبتني على طريق وعر
وحميتني من جنبات الصخر
وكنت لى نعم القائد فى السفر
سأتزوجك سريعًا ودون مهر
وسأسكنك قصري على سفح القمر
وسأنجب لك أبناء يعبثون بأمواج البحر
وسأنثر شذرات عشقك على أجنحة الطير
فهل ستوقع على ميثاق المغامر بلا تفكر
وتقبله كخير قد نزل وكأمر قد قدر

وهنا بدأ في الانسحاب، ثم يعود ليودعني ويختم معي بـ تصبحين على أمان.

فأرد في غضب "أي أمان سأصبح عليه دونك! أنسيت أنك أنت أماني، فلاتتركني وتزعم أنني سأكون بأمان". وحينها أهم بسماع نصيحته وأبتعد، أجد منه رسالة تهيج قلبي من جديد. وصرنا هكذا بين مد وجزر حتى أجاب بحسم

"ستقابلين الأفضل" أتفتت داخليا لسماع قلبي يتهشم ببطء مقيت، كما يصاب زجاج السيارة فجأة بكسر عنكبوتي، ثم يبدأ في التهشم على مهل منذرًا بدمار شامل، ولكن لست أنا من تستسلم بسهولة لقتل قلب ما زال في رحم الروح جنينا، من حقه أن يولد وأن يكون له أب شرعي يريده مثلي، وإلا ما استحق الحياة. فأجبت بحسم مضاعف" أريدك أنت أن تكون أسطورة عشقي الأبدية" وحينما علم رغبتي في ولادة هذا الجنين ساعدني على ذلك، واعترف بانجذابه لي، وبأنه يمنع نفسه من التفكير بي، فهو حاد الطباع، ويعلم بأن طبيعة شخصيتي الزجاجية لن تتحمل تقلباته، ولكنه لم يعد يستطيع التحكم في نفسه أكثر من هذا. كان اعترافه على مضض، وكأنه يقاوم عشقه الأبدي، ولا يريد خيانته بواقع أجمل وأبقى، وبدأ يلين رويدًا رغم سخطه على مشاعره التي فرضت عليه هذا، وأنا.. بين حيرة وفرحة ولهفة قلب. دلَّل اسمي وأضاف له ياء الملكية؛ تلك الياء التي تمنيت أن يضيفها لي أحدهم ولو في الخيال، هو فعلها "غودي" ذبت فور سماعها، وأشرق وجههي حتى غدا كوجوه الأطفال. كان يريد ماهو أكثر وأكثر، وأنا أقاوم بارتعاشة قلب خائف، ولكنه واثق فيمن أحب.

السعادة أن تطفو الروح من أعماق النفس، حتى تعانق السحاب، منتشية بقدرتها على التحليق، في مرتع الكون بلا قيود أو خضوع لحدود. وهذا ما كنت عليه مع فارس. طيفه كان يشاركني وسادتي، فيملأ جنباتي دفئًا وأمانًا، امتلأت

بالفرح فقد صار يعيش بداخلي، اختبرت معه أحاسيس لم أجربها من قبل، ولم يطرق في مخيلتي وجودها، أو أنها قد تمر على صفحات حياتي.

اقترح عليّ يوما الذهاب لنزلة السمان حين علم عشقي للخيل، كان يوما خياليا لم أشهد مثله، في البداية جعلني ألمس وجه الحصان وأطعمه بيدي، لم أكن لأفعلها وحدي أبدًا، وجوده معي شجعني وحماسه لي أتى بثماره فقد لعق الخيل يدي دون أن أشمئز، ودون أن يعضني مثلا كما كنت أخشى، ولكني لم أستطع أن أضع قدمي داخل اللجام نظرا لقصر قامتي فوقفت على صخرة مرتفعة استطعت من خلالها الصعود على ظهر الخيل، أمام ضحكاته الساخرة تارة وتوتره أن أقع تارة أخرى، قام هو بسحب الحصان ليجعله يسير بي ببطء، وبعد أن تشجعت قليلا وطلبت أن يجعله يعدو بي صمم أن يقوده، فهو يعلم جيدا كيفية ترويض الخيول، وافقت على استحياء وأنا أتشبث بطرف قميصه. فرحت كما لم أفرح من قبل كأن بضاعتي رُدت إلي، ابتهجت وأنا أقفز أثناء ركضه بي، وشعرت بأنني غادرت كوكب الأرض بلا رجعة، نزعت منه وعدا عقب رجائي "لا تتركني" فكان رده الرائع "لست أحمقا لأفعل".

ترجلنا على النيل كحبيبين وجلب لنا "ترمس وذرة مشوي" وختمنا الجولة بتناول آيس كريم.

شعرت بقلبه يجبره على فعل كل هذا، وأن كبرياءه المزعوم قد خر ساجدا بين يدي قلبي، الذي لم يقابله سوى بعناق حار، يشي بفراق طال وأنه قد حان وقت اللقاء.

في اليوم التالي ذهبت للتبضع وابتعت لنفسي مجموعة جديدة من الثياب، اخترت مجموعة واسعة من القطع الأساسية ولكنها مبهجة اللون على غير اختياري في العادة، لقد شعرت بحب الحياة وبكوني زهرة عليها أن تتطابق مع ألوان الطبيعة. انتقيت أيضا فستانا بلون الشجر منقوشا بورود صغيرة صفراء وحمراء، حين قمت بقياسه أحسست بأنوثتي وكم أنا جميلة وكم أنني لم أر جسدي بهذه الهيئة من قبل، فلم أرتدي ثوبا يكشف عن قوامي هكذا أكثر مما يخبئ، وتمنيت أن يراني الآن وأن يخبرني رأيه، اشتريته وأنا لم أحلم قط أن أقتني طقمًا كهذا. يحتاج الفستان لجاكت لأستطيع الخروج به، ولكني حين قمت بقياسه في المنزل لم أرد أن أخلعه فقد أظهر جسدي الممتلئ قليلا، ناصع البياض الذي يجعلني أشبه الأميرات، الفستان بحمالات عريضة، عاري الصدر بفتحة واسعة تشبه المثلث المقلوب، يظهر مفترق الطريق بين نهدَيَّ، مجسم قليلا عند البطن وينزل باتساع بسيط يصل لأخمص قدمي، في حاجة أنا لحذاء مرتفع ذي كعب رفيع لتكتمل الأناقة، تركت شعري متحررا، ووضعت طلاء للشفاه كشمير اللون وأصبحت راضية عن مظهري تمامًا.

في نهاية الأسبوع ابتعت حذاء شتويا وآخر ذا كعب عالي ليزيد من طولي بضع سنتيمترات، عدت إلى منزلي سيرًا على الأقدام وكم شعرت بكوني خفيفة وأمتلك الكون.

إنها الآن العاشرة مساء يوم الخميس، أسبوع مضى على تغيراتي الداخلية والظاهرية، رحت أحدق خارج نافذة غرفتي، رغم أنه لم يكن هناك شيء أراه، يمكنني تبين رياح الأمطار تتساقط بشدة على وحل ما كان يفترض أنه الحديقة، لكنها الآن تماثل بحيرات صغيرة. داخل المنزل الطقس أفضل كثيرا، جلست على مقعدي جوار النافذة أتحادث معه طوال المساء وقبل أن أخلد إلى النوم.

أنتبه لما طرأ على هيئتي من تبديل الألوان الغامقة بألوان فاتحة ومن تغيير الحجاب، من طرحة طويلة إلى طرحة أقل طولا مع استخدام إكسسوارات لافتة لأبدو كسيدة تنتبه جيدا لأدق تفاصيل مظهري.

كان يناديني بـ"مُهرتي" وأناديه بـ"فارسي" يتغزل في همجيتي التي يزينها رداء الرصانة ويفتح لي أبوابا أعلم بوجودها ولكني لم أجرؤ يوما الطَّرق عليها، كنت أحسه يتحرر معي من جراحه الساكنة في أعماقه، أحسسته طاهرا رغم آثامه الظاهرة. جرعة حب قليلة منه، كفيلة بمداواتي لأيام دون الشعور بالافتقاد.

أكون معه في أصخب حالاتي، أتحرر وقتها من ذاتي؛ فهو يعبث بداخلي، ويبعثر محتوياتي

ويتطلب هذا وقتًا طويلًا حتى أرتب مفرداتي، و أعود لحالتي الطبيعية من الهدوء والرزانة

فهو مُحرر خصلات ضفائري، ومن فتح النافذة للهواء ليعبث بين جدائل شعري لأول مرة منذ ميلادي.

سأكتب معه أجن رواية عابثة في تاريخ قلمي، فقد استطاع أن يزيح غطاء حيائي، فانفجر جنوني مطيحًا بالوقار. وددت لو أخبر العالم بأنني سرت إلى الحب بخطوات مُتأنية ثابتة حتى وصلت إليه، ففزت بصحبته ونعمت بقربه. هو، أنا في مكان آخر، وكأننا خُلقنا من بذرة واحدة رغم اختلافنا، هو ذاتي التي حاولت طمسها، وجنوني الذي لم أكتشفه إلا معه، هو همجيتي المخفية، وأنا هدوؤه المستتر.

وأسأل روحي في تعجب ناهرة: ما هذا الجنون؟ أتعشقين رجلًا لم تنَليه سوى فى خيالك فقط.!

فأجيبها متيمة: يكفينى هذا، وما العشق إلا جنون. كان يداعب روحي فأحببته، وما أروع الخيال بصحبته!

**وأنشر على صفحتي**

راقصني في البيداء على صوت صهيل الخيل
كانت السماء تمطر علينا قطرات كالورود
واحترقت الأشجار لتنير لنا مساحتنا الواسعة
وثارت البراكين مصفقة بحماس لجنوننا
أما عن الجبال فقد خرت ساجدة لتهز الأرض من تحتنا

يقابل دلالي بتحدٍّ قائلا:"يا فرستي الحرون الجامحة ستخضعين لي لا محالة" هو متطرف في كل شيء لا يوجد عنده وسط، فوضوي، صاخب. ثم في أوج اشتعال مشاعرنا ابتعد. نزع نفسه من داخلي بكل قسوة وفرَّ هاربًا، تركني كقنبلة فرغ الحب من حشوها وتريد أن تنفجر.

هل طباعه الحادة استيقظت بهذه السرعة؟ لقد كنا بالأمس شيئًا واحدًا.

شعرت بأنه قد كان سكيرًا والآن أفاق، ولا حرج على ما فعل، فقد كان مُغيبًا. وماذا عن الجنين الذي قد ولد، ومشاعري التي استيقظت، وروحي التي انتهكت، وقبل كل هذا عشق قلبي ماذا أفعل الآن به؟ بعد أن دق دقات الحياة وهو الذي كان خامدًا كالساعة العتيقة الواقفة.

"أقسمت عليك أن تعود، فلم يعد قلبي قادرًا على الصمود" أرسلها إليه فيستقبلها ولا يرد.

أدمنت هواه وصرت متيمة به؛ فكان كتاجر المخدرات، الذي منحني مخدرًا، على سبيل الهدية ثلاث مرات متتالية، ثم عرض السلعة بثمن يراه بخسًا وأراه عظيمًا؛ حتى إذا ما احتجت الجرعة وصرت كالسيل العرم الذي لا يوقف رغبته شيء، يبتعد هو متعلِّلا بنفاد الكمية.

نال منِّي ما أراد، وتركني كالسيجارة الملقاة بعد حرقها..

"كالحمامة الزرقاء المتوجة كنت، وكالحمام الزاجل ظننتني فذبحت".

أنشرها على حائط صفحتي الخاصة؛ علَّه يشعر بما فعله هجره بي.

كان يزين وسادتي الخالية التي تغفو جواري، وكم مرغت وجهي في صدره، وكم عانقته في خيالي وأنا سعيدة بهذه المشاعر الرقيقة التي تمنحها لي تصوراتي. كان يحدثني عن جسدي إن كان أمامه، وكأنه يعزف على مفردات اللغة، مكونًا لحنًا يدغدغ أحاسيسي دون أن يخدش حيائي؛ فالتشبيهات لديه تجعلني أغوص فيما يقول، حد انبهاري بكيف استطاع تطويع الكلمات حتى يصلني مراده، وفي الوقت نفسه لا أستطيع أن أمتعض أو أستاء.. كان مُبهرًا، أنيقًا، شهيًا.

أحيانا لم أكن أفهم ما يريد الإشارة إليه فأصمت، فيتعجب لامرأة قد حرثت أرضها وما زالت تجهل فنون الرعي. فيقول: ألم تكوني متزوجة من قبل؟.

وفي نفسي أقول"وما العلاقة؟ ما كان يربطني بزوجي عقد انتفاع: هو له كل متطلباته اليومية وحقوقه الشرعية، وأنا لي لقب زوجة. كان خُسرانه مبينًا فهو لم

يربح سوى جسدي؛ فقد كان زوجي فقط." وأتذكر يوم زفافي فقد كنت كالذبيحة يسوقها صاحبها بشغف للنحر، وينتظرها الجزار شاهرًا سكينه بترقب، وهي لا تدري بأي أرض تموت، ولا على أي حال عليها أن تكون.

لم يكن ينظر لي نظرة زوج عاشق، بل نظرة جزار يتفحص ذبيحته؛ فكنت أخفي جسدي سريعا بعد أن يفرغ مني.

أصبحت زوجة دون أن أعرف ما هي الزيجة. جُلّ ما علمته بأن جوهرة كل عذراء أثارتهم حد التضييق عليّ، فشعرت بأنها حِمل ثقيل أُلام عليه، فقدمتها لأول من طرق بابي.

استسلمت له كاستسلامي للموت الذي لا مفر منه؛ فإذا أتت ساعة النهاية فلِمَ التشبث بحياة قد أعلنت نبذها لك، وأرسلت من يبعدك عنها بلا رجعة.

لا داعي للتذمر والاعتراض إذن؛ فلن يجدي شيئا سوى إرهاق لا حاجة لي به في هذا الموقف الذي أعلم نهايته سابقا؛ كنت اتمنى أن يحسن الذبح، وأن يكون سكينه مسنونا حاميا بما يكفي لينتهي الأمر سريعا، ولكنه تلذذ بذبحي على مراحل.غره سكوني وصمتي في أني قطعًا لا أشعر. لم يعلم بأنه حينما يفوق الألم حد الصمت فإنه قطعا قد فاق الحد. تركني ليلتها منهكة حد الإغماء، موجوعة حد الذبح.

ومع هذا كان عليّ أن أرسم ابتسامة واسعة، تشي بأنه قد أحسن الذبح وأجاد؛ فالذبيحة عليها السمع والطاعة، وخاصة إذا ما باعها صاحبها بثمن

بخس وكان فيها من الزاهدين.

أبي كان يراني بضاعة كاسدة، مما جعله يبتهج فرحًا برؤية مُشترٍ يظهر في الأفق، فأي سعر سيكون أفضل من حالة الركود، ما يهمه أن تزاح عن عاتقه ليتباهى فيما بعد بأن بضاعته أصبحت رائجة.

كان أقصى أمنياتي مع فارس، أن أنام على صدره مُتخذة وضعية الجنين، وذراعاه تحاوطني، ونحن نشاهد التلفاز مثلا، أو نقرأ كتابا معًا .حضن الأمان أكثر حضن تمنيته معه. هو تلاعب بمشاعري كدمية يلهو بها، دون أن ينتبه لغرس أظافره المتسخة بها، حتى أصبحت موشومة بنتن الرائحة، التي علقت بها جراء قربه مني حد الوجع. كان يقرأ رسائلي ولا يرد وأنا أبتهج فقط لمجرد أنه رآها، فما حالي لو رد.! وجودنا معًا كان بمثابة طفرة كونية لن تحدث مجددًا.

جوع النفس العاشقة يقتلها قتلا، هل تعلمون معاناة مدمن المخدرات وقت علاجه. هل تدركون وجع جسده في انسحاب الجرعة، وهو يطلبها بهستيريا لكي يتوقف هذا الحكاك بدمه، الذي يجعله يريد أن يخمش بأظافره جسده، ليصل لهذا الألم فيوقفه أو يساعده على تمزيق ما تبقى من الجسد! كان حالي هكذا؛ أظل متسمرة أمام صفحتي الشخصية على الفيس بوك، علَّني أجد إشعارا جديدا بتلقي رسالة، أو تنبيها بكتابته شيئا على صفحته الخاصة، علَّها تكون رسالة مستترة لي. وأكتب على صفحتي، وأنتظر أي شيء منه، ولو حتى ضغط زر إعجاب.

وحين يراني في العمل يتعامل كأنه لا يراني، وإذا تعمدت محاورته في أي شيء يخص العمل لا يهتم أو يرد باقتضاب غير ناظر إليَّ! وأسأل نفسي: ترى هل ألقيت أثري عليه؟ أم لم أكن سوى مجرد زفير مر في حياته؟ أكاد أجن، لِمَ يتركني مُعلقة لا أفهم ماذا حدث!

"حينما علم عمق جرحها، غاص فيه حتى اخترقه" أنشرها على حائط صفحتي.

وأحادث نفسي "بعدما أحببت روحي معك لماذا تعمدت تشويهها؟"

فى الوقت الذى كنت أعانى من اشتعال نارى وتأججها، كنت أنت تعانى من غبار الرماد.

أنا لا ألومك على برودك معي وقتها، بل ألومك على إشعالك فتيل قلبي. هل تدرك جرم ما فعلته بي؟ لقد قتلت ابني بعدما جعلته يولد على يديك. كنت تعلم أن جنيني لن يكتب له الحياة، ومع ذلك أعطيتني عقاقير لولادته. جعلتني أفرح بحملي وأنسى ألمي، وبعد ما تمت ولادتي وفي عز فرحتي، وجدتك تقتله وتخيرني بين حياته وحياتي. لماذا جعلتني أنجبه إذن؟ لماذا لم تقتله بداخلي كأي طبيب يحترم آدميته؟ لماذا جعلتني أراه وألمسه وأشمه. كنت معك كبطلة فيلم خيالي، لقصة وليدة اللحظة، ولم يكتب لها نهاية بعد، كنت مستمتعة جدا بالأداء الارتجالي.

أجمل ما في حبك أنه أتى على مهل، فقد تسلل إلى داخلي ببطء حتى سرى في كياني، وملأ تكويني بوجوده، وحينما شعرت به كان قد احتواني. وأسوأ ما فى فراقنا أنه تم بطريقة مبتورة، فلا أعلم حقيقة مشاعرك تجاهى، ولا تعلم انطباعاتى تجاهك، فقط العداء أصبح السمة الظاهرة، التى جعلت كلًّا منا إذا ما كتب شيئًا مقيتًا، يتوقع الآخر أنه قطعًا المقصود.

إذا كان ولابد من الفراق فلمَ أردت معه العداء؟ أما كان يكفي ألم الفراق؟ أما كان يكفي وجع البعاد؟

كنت أئن من الوجع، وكان يراني ويبتسم. يقابل ما أكتبه بنشر إساءة مستترة لي، وكأن الذبيحة ليس من حقها أن تذرف بعض الدماء على ذابحها.

بت أشعر بتغير نظرات الزملاء لي وذكر اسم (فارس) أمامي كثيرا عن عمد. لم أفهم هل هي صدفة، أم أن الأمر لا يستحق أن يأخذ حيزا من تفكيري، أم هو فعلا قد وشى بمشاعري تجاهه؟ أو ماذا قال عني للأصدقاء؟ لا أعلم، ولكني شعرت بحدوث شيء ليس في صالحي وإن كنت لا أعلم تحديدا ما كنهه.

هناك من تجنبت محادثتي، وهناك من كتبت عن أدعياء الفضيلة على حد قوله عني، وأخرى تتعمد إحراجي أمامه في الوقت الذي أظنها تحادثني كزميلة تمزح فأظهر كأنني ضعيفة لا أستطيع أن أجاريها، وحين أنتبه لغرضها أجدها تتعامل بعجرفة ساخرة.

لم أعد أتحمل نظرته الوقحة لي ومزاحه الفج مع الزميلات، شعرت كأني أراه لأول مرة.هل يحاول أن يشوه ذاته لأكرهه، أم هو فعلا بهذه الشخصية القميئة؟ الابتعاد ربما كان سببه الانتهاء من كتابة روايته، فقد كنت مادة خصبة لكتاباته، مجرد مُلهمة تثيرة للكتابة، وفور الانتهاء لم يعد لوجودها سبب مقنع، فلتعد لمكانها الطبيعي في مقاعد الزملاء، أو قد يكون لتجربة نوع مختلف أثاره للاكتشاف، أو لعله أراد الانتقام؛ لرفضي يوما ما أن ينادي عليَّ باسمي منفردا دون لقب قبله.

أعاتبه في نفسي قائلة:

".لن أسامحك يا فارس، ليس لكونك لم تحبني، فالقلوب ليس لنا عليها سلطان، ولكن لكذبك عليَّ.

نعم لم تقل"أحبك" صراحة، ولكن إن لم يكن كل ما حدث برهانا على حبك، فماذا عساه أن يكون! رسائلك بافتقادي واشتياقك لي ما مُسماه لديك؟

كالسيل الجارف المنهمر كانت كلمات حبي إليك، وكالصخر الهاوي مُنزلقا كانت ضرباتك لي.

فكم تمخضت الحروف بداخلى مكونة كلمات تريد الخروج للحياة سريعًا، لتصبح كائنًا يعبر عن مشاعرى تجاهك، فتقابلها بالصمت القاتل، فتصيبنى بحمى النفاس مع فقدان الجنين.

لم أكن يومًا في حياتك شيئًا ما فلماذا كذبت ومثلت دور الممتلئ بالشوق تجاهي؟

آه يافارس!

يظل جرحك هو الأقوى، هو الأعمق، هو الساكن في الأوردة ككرات الدم ويظل عشقك هو الأبقى، هو الأصدق، هو الرابض في القلب كالأورطي. ويظل دواؤك هو الحلم، ويظل انتقامي هو المنتظر. نم الآن مستريحًا فقد فعلت بي ما لم يفعله أحد، فقد أحببتك حتى احترق قلبي من وهج عشقك، فبات رمادا ملعونا.

كالعصفور أنا وكالبحر أنت

فكان عشقك هوايتي

كالسمكة أنا وكالسماء أنت

فكان هواؤك أمنيتي

كالفراشة أنا وكالنور أنت

فكان قربك نهايتي

أنشرها على صفحتي، ثم أقضي ليلتي في مهجعي حتى أغفو ناعسة، فيأخذني عالم الخيال الحالم من الواقع البائس الذي لا توجد معي فيه.

ناديتك بالأمس كثيرا حتى بُحَّ صوتي، وأصابني مس من دوار؛ فنمت منهكة أتمتم باسمك، وكأنني في حالة من الهذيان، فهل حملت الرياح الباردة

صوتي لتوقظك من ليلك الدافئ، وتخبرك بأن في الجانب الآخر من كوكبك البعيد، مَنْ ما زالت تشتاق إليك، وتقضي لياليها في خيالها معك. كرجفة طفل ملابسه مُبتلة كان حالي في ابتعادك.

أنا المغدورة من أقرب المُقربين. زوجي انتهك عذرية جسدي باسم الزواج، وأنت انتهكت عذرية قلبي باسم الحب.

أنا الزوجة المُطلقة ظلمًا، والأم المكلومة إهمالا، والحبيبة المُهانة عشقا. فهل جزاء الحب الخذلان!

أقارن بين حالي في غيابه وابتعاده وكم أعاني فوق غضبي منه قلقي المتزايد عليه، وبين حاله في عدم اكتراثه لوجودي من عدمه.

"كبرادة الحديد كنت ألهو جوارك دون اكتراث، وكنت أجرب العبث معك؛ فوجدتني أنجذب إليك بطريقة لا إرادية، وإلى الآن كلما حاول أحدهم نزعك مني أجد نفسي أتشبث بك كما يتشبث الرضيع بخصلات شعر أمه؛ يعلم أنها ستستطيع نزعها من يده، ولكنه يمسكها بعزم ما فيه رافضًا أن يفرط فيما أصبح أخيرًا بين يديه" أنشرها على حائط صفحتي.

لولا ابتعادك عنى ما ابتعدت مهما أبديت أننى أريد الابتعاد، فأنا أضعف من أن أبتعد شبرًا واحدًا عن مَنْ نبض قلبى باسمه أخيرا بعد سنوات عجاف. كنت أعلم استحالة القرب، ولكن نداهة عشقك كانت أقوى من أن أقاومها. أشكرك لحبك؛ فبه علمت أن قلبى ما زال حيًّا؛ فقد طرقت بابا في نفسي كان

موصدا حتى كدت أنساه. ولعشقك؛ فبه علمت أنني ما زلت أنثى، ولبُعدك؛ فبه استطعت أن أنعيك حيًّا.

"كالتفاحة المسمومة في حياتي كنت، ولجوعي واشتهائي لها تذوقتها فتسممت" أنشرها على حائط صفحتي.

أعود أتخيل وجوده معي لأعاتبه قائلة:"كنت في حياتي القشة التي قصمت ظهر البعير؛ لا لقدرتك الفذة على تسديد الضربة القاضية لي، ولكن لأنك جئت في الوقت الذي طفح فيه الكيل. تعجبت أنت لما لحق بي، ولم تصدق ما حدث لي. فنيتك لم تكن جرحي؛ فقط أردت أن تثبت لي بأنك صعب المعشر. أعذرك لما اعتقدت، ولكني لن أغفر لك مافعلت".

وأكتب: كتقديم القربان للتمسايح كانت جنازتي.

فقد تمت دقات القبول وإشعال النيران، والرقص بجنون.

كان الجو يوحي بالكآبة رغم وجود هذا الصخب؛ فالصرخات تتعالى بحماس، كأن النيل سيفيض عليهم بفيضان يحتاجونه، وكأنهم ينادون جميع الذئاب والأسود لتشهد تشييع جثماني؛ ليتشاجروا عليه، وقد يمزقونه قبل أن يستقر في قاع النيل

ولأني لا أفضل النهايات الحزينة فقد أوصيتهم بعد انتهاء هذا الهياج أن يقوموا بإلقاء أحب القصائد الشعرية إلى قلبي لنزار قباني، وحينما يسود الهدوء، ويشعر الجميع بالسكينة، وبرسم ابتسامة مع تنهيدة، يتم وضع جثتي داخل

تابوت مغلق على حافة منحدر، وهي ستسير وحدها نحو النيل المليء بالتماسيح، تعمدت وجود التابوت حتى أعذب التماسيح؛ فلن يستطيعوا العبث بجثتي، فهو مغلق بإحكام، وأوصيتهم أن يكتبوا على التابوت:

"الأميرة التي ارتدت ثوب الجارية كان حقًّا عليها أن تموت".

شعرت بأن روحي يتم انتزاعها من جسدي انتزاعا بطيئًا، وبأن عليَّ الاغتسال قبل الدفن، نزعت ثيابي وبقيت طويلا تحت مياه الدُّش الغزيرة، ثم وضعت سدادة البانيو فيه ليمتلئ، وجلست ممددة أنتظر أن تغطيني الماء، وفور وصول الماء إلى كتفي نزلت بجسدي وأنا عازمة أن أغطس رأسي ولا أرفعها مُجددا، وفي لحظة احتياج رئتي للأكسجين وشعوري بلدغة فيهما ثم احتراق، أفقت على جريمة قتل الذات التي كنت على وشك فعلها.

رفعت رأسي محاولة استنشاق أكبر كمية ممكنة من الهواء، ثم نزعت سدادة البانيو ليتسرب الماء ووقفت لأسترد قوتي، وماء الدُّش فوقي يساعدني على هذا، ثم جلست على حافة البانيو، ووجدت نفسي أريد التخلص منه هو وليس من حياتي. نثرت الصابون السائل على جسدي واستخدمت الحجر الطبي لإزالة الجلد الميت وكأنني أزيله هو.

*****

كان الزحام قد خف أثناء عودتي إلى منزلي، أقود سيارة عمتي دون هدف، وأجوب بها الطرق في سرعة ثابتة دون أن تفارقني حكاية (غيداء)، جرعة مكثفة جعلتني أشرد كثيرا مصدومة؛ فقد تكشف لي كل شيء، حتى أنني كنت أسترجع الورقة الأخيرة من مذكراتها وكأني أقرؤها على الهواء مباشرة.

"لا تلام المجهضة على نزفها، ولا الذبيحة على أنينها، ولا المغتصبة على هتك بكارتها".

أحادثه كأنه يسمعني قائلة" ليتك اكتفيت بذبحي بالبعد فقط، ولكنك تماديت بالتمثيل بجثتي، حين خضت في عرضي، ونعتني بالعاهرة مُدعية الفضيلة".

فيكتب "تدعي الفضيلة وهي ترتع في الرذيلة"

هي بالفعل خلعت ثوب الفضيلة حينما نبض قلبها باسمك وأقول في نفسي: حبك كان أقوى من مبادئها.هل تلومها على خلع ثوبها أم على حبها؟

يقولون لكل جواد كبوة وكنت أنت كبوتي، كان حبك خطيئتي وكان رحيلك فجيعتي.

ثم يكتب على صفحته"كانت بليدة في الحب، والآن تجحد بمن علَّمها".

فأتساءل: أي حب هذا يا سيدي الذي تدعي أنك علمتني إياه؟ لولا عمى كيوبيد ما نلت شرف أن ينبض قلبي باسمك. بربك ماذا فعلت لكى تحافظ على هذا الحب الذي هبط عليك من السماء؟

ما لا تعلمه، أن القلب حينما يعشق، يعلم جيدًا ما عليه فعله، سواء كان معك أو مع غيرك.

فلا تجعل غرورك يصور لك قدرتك الخارقة على فعل شيء، لم يكن لك دخل فيه.

ثم أكتب:

"من يسلمك قلبه أمانة لا يحق لك أن تعبث به، لا تبنِ قصرًا داخل قلب، تعلَّم جيدا أنك لن تحيا فيه".

فيكتب: "حينما نفد فيض عشقها، صارت فقيرة إلا من شفقته".

إنه يثير غضبي واستيائي، ويضغط على ما بقي من كرامتي. فأقول بانفعال: "ارحل كما شئت يا ابن الطرقات؛ فأنا امرأة ممتلئة مشاعرها حد الانسكاب، وتحتاج لمثلك يرتوي، حتى لا تهدر مشاعرها في الهواء. فإذا كانت البغي قد دخلت الجنة حينما سقت كلبًا، فما بالك بالبتول حينما روت هِرًّا".

هممت بنشرها ولكنني امتنعت؛ فالذئاب لا تعنيها طهارة الحملان، ولن أدخل في هذا الهراء الكلامي، فإن لم يكن لديه القدرة على مواجهتي مباشرة، فليذهب إلى الجحيم، سأقوم بحظره حتى أنجو بنفسي من أن أتعثر في أثره قدرًا.

لقد تسلل إلى حياتي كالطيف حتى إذا ما آنس مني ضعفا واستسلاما، واطمأن إلى مكانه انقلب شيطانًا، جعلني أفعل ما يريده دون درايتي؛ كنا كلاعبي الشطرنج، هو يحرك القطع باحترافية متأنية، وأنا أحركها بسذاجة هوجاء. كنت

أعتقد أنه يعلمني فن القتال، لكنه كان يمارس اللعبة معي وفقط. وحينما انتبهت إلى هذا، وبأنني حتمًا سأخسر إذا ما ظللت بهذه العفوية المتسرعة، كان قد فرَّ من أمامي .لم ينه الدور. فقط تركني وغادر دون مقدمات، أو أسباب واضحة.

واضح أنه لا يعلم أن في قانون اللعبة المنسحب مغلوب.

أكتب على صفحتي "ما زلت لا أملك سوى حريتي وبعضا من الخيبات".

*****

أتعاطف معها كثيرا وأجدني أعلق قائلة: "تقابل دوما أشباه الرجال، متى تعطي ثقتها لمن يستحق"

وصلت البيت في حدود العاشرة مساء، وعندما كنت على وشك الدخول من باب الشقة، استمعت جلبة في الدور العلوي الخاص بأبي، فصعدت لأتحرى الأمر لأنتبه لضوء منير في غرفة المكتب، فدخلت من الباب ووجدت أبي جالسًا إلى مكتبه، كان أمامه ظرف مفتوح وأوراق رسالة، قربت كرسيا ووجهت وجهي قبالته وعيني تسترق النظر مشدوهة.. نظر إليَّ صامتا ثم سألني عن حال الدراسة؟ أجبته بأن كل شيء يسير على ما يرام، لم يعقب وكأن السؤال كان لقطع الصمت ليس إلا، ثم قصَّ علي أشياء من الزمان الفائت، وعن أمي وزواجها من صديقه كعادة معظم حواراتنا معًا.. ولكن ما لم يعلمه بأن ما رأيته من أشياء كثيرة يعج بها المكتب أثار بداخلي رغبة لمعرفة المزيد.

# الفصل الثالث

في الصباح كنت ألقي السلام على كل من يقابلني، بإيماءة من الرأس وابتسامة، فيردها هواء الكون بنسماته مُقبلًا وجهي مُمتنًّا لصباحاتي المميزة. أبدأ يومي بتقبيل عمتي، التي تستيقظ باكرًا من أجل تحضير فطوري وتناوله معي. وحين أصل إلى المحاضرة قبل دخول الدكتور (مازن الوكيل) إلى المدرج، تنتابني رعشة مبهجة تطرب قلبي.

كان يلقي المحاضرة ناظرًا تجاهي، وأنا أنظر له بابتسامة هادئة تخفي انفعالات داخلية كثيرة، كأن قلبي تداعبه أنامل سعادة خفية جديدة عليه.

أراه فارس أحلامي بقوة شخصيته، وسعة علمه، ورزانة ابتسامته، وقدرته على التصرف فى مختلف الأمور. لم أعتبره يوما أستاذي، كان بالنسبة لي شيء أكبر، وأجمل من أن أختزله في صفة يشاركني فيها الآخرون. أهيم ولهًا في نظراته الحادة الثاقبة، وتأكيده على كلماته بحيث لا تحتمل أي معانٍ أخرى، رائحته أيضا خلابة؛ شهير بأناقته ولباقته، فهو يحرص على هندامه ومظهره دائما، وبشكل خاص على عنايته بسيارته، يصلح ليكون موديل إعلانات ممتازا عن منتجات منتقاة وتحمل ثمنا باهظا، مثل: السيارات والعطور والملابس الفاخرة. ملامح وجهه تهواها غالبية النساء، فهو ذو بشرة سمراء مُحببة للنفس، مع شعر غزير ناعم الملمس يُكلل وجهه، محفور في ذقنه طابع الحُسن، يأسر من يراه، جسده رشيق، فارع

الطول، لديه ساعدان كرافع أثقال محترف، له عينان سوداوان واسعتان، شفتاه مرسومتان بدقة تغرياني لملامستهما بأطراف أصابعي، سنتاه الأماميتان تبرزان عن القطيع مما يجعل كلماته وخاصة حرف الـ (ش) لها نغمة جذابة لدى السامعين، أنفه أيضا ملائم لوجهه دون أي ملحوظات، تعبيراته مُبهرة بتنوعها واختلافها المستمر، نرجسي هو. يذكرني بأبي؛ نفس النظرات، الأسلوب، شراهة التدخين، الثقافة العامة...

أتعمد أن أحضر محاضراته العملية في أي فرقة، ومع أي سكشن لا يخصني، بحجة أن أطور ريشتي أكثر. كان الشبل هو المسيطر على ريشتي في السنة الأولى، ثم تطورت مراحله حتى صار أسدا.هو كان يرسم غالبا "سيفا" بأشكال متعددة، أتمنى أن أعرف سر هذه الرسمة الدائمة، التي لا يبدلها وكأنها أصبحت رمزا له.

يبتسم إذا ما رسمتها بجوار اسمي. فأقول دون أن يسألني: إنها تكملة لاسمي إذا ما أردت اختصاره (ندى سيف). يرسم قطرة مطر بجوار السيف ويقول: "هكذا اسمك".

أخبره بضرورة رسم فارس في المنتصف حتى لا يغضب والدي، وأقص عليه واقعة اسمي التي دارت مع أبي، وأنا في المرحلة الثانوية، وكم كان غضبه مني وخصامه لي.

أي حوار ولو قصير بيننا له مفعول السحر على مزاجي العام. ظللت هكذا طوال الأربع سنوات، حتى وصلت للسنة الخامسة، وابتدأ العام برحلة سفاري.

و للحظ الرائع (د.مازن) من ضمن النخبة المختارة للإشراف. حاولت كثيرا مع والدي حتى أنه لم يوافق، إلا حينما زعمت بأن هذه الرحلة ستكون لها علاقة بمشروع التخرج ولا يمكنني التغيب.

استعديت للسفر بشغف فذهبت إلى بيوتي سنتر للاهتمام ببشرتي وشعري مع باديكير ومانيكير لأظافري، ابتعت بعضًا من الحاجيات اللازمة بأحجام صغيرة تناسب رحلة لعدة أيام مع حذاء أرضي، رتبت أغراضي ووضعتها في حقيبة السفر بسعادة لا توصف، سيجمعني به مكان ووقت أطول بكثير من الكلية، ابتعت بعض المعجنات والعصائر وخبز فينو، ونهضت باكرًا لتحضير حقيبة صغيرة من المأكولات لتناولها أثناء الطريق.

*****

يقولون في الأسفار سبع فوائد، لكن الغريب أنني بذلت محاولات كثيرة لإثبات أنها أكثر. بدأت رحلتي مرحة، منطلقة، ينبض قلبي بعنفوان الشباب، وصخب الحياة، وبراءة الروح، وجسدي مفعما بالحيوية والنشاط.

وكان هو هادئا رزينا، يرى صخب الطلبة أثناء السفر ويبتسم بلا اعتراض، بل ويشاركهم أحيانا مزاحهم بأسلوبه الجاد الرزين، فتخرج المزحة منه غاية في الأناقة.. ذهبت إلى مقعده الأمامي، وناولته لفافة ساندوتشات، أخذها مني مبتسمًا، كنت في غاية السعادة فأخيرا سيتذوق شيئا مما طهته يداي خصيصا لأجله، وبدوري جلبت ساندوتشات لغالبية الزملاء لدرء الشبهة عنِّي. وصل

الجميع منهكي القوى يريدون النوم بأي شكل. لم أعبأ بذلك، فالوقت أثمن من أن أقضيه في النوم، هناك مناظر طبيعية خلابة عليَّ ألا أفوتها.. أرتدي بنطالا أسود، وبلوزة قصيرة حمراء، مفتوحة الصدر، طويلة الأكمام، ذات حزام عريض عند الخصر، فصرت كوردة بلدية اكتمل طالعها وسطع عبيرها. كان الوقت ليلا، والقمر بدرًا يزين السماء يصاحبني في وحدتي المختارة، المنظر بديع رغم ظلمته الحالكة، كان المكان ساحرا بشكل كبير، رمال، وجبال، وصخرة كبيرة.. أتيت ببعض عيدان الخشب، وأشعلت نيرانا خافتة للإضاءة وللتدفئة. تأملت رقصة اللهب وتذكرت حمزة وابتسمت "ليتك معي، كنا سنرقص معًا ثم أنام في هذا العراء، واضعة رأسي على لبدتك الكثيفة، وأنت تزأر لحمايتي، وأنا أضحك لإغرائك."

وقفت لاستنشاق الهواء العليل، تداعبني النسمات المنعشة، وللحظة أدرت موسيقى ما في مخيلتي، وبدأت رقصتي الخاصة، أقف على أطراف أصابعي لتعانق أناملي النجوم، أتمايل كغصن شجرة حين تراقصه رياح الخريف، وأقفز كالفراشة حين تنتقل من زهرة لأخرى، وأدور كطفلة فرحة بلعبة جديدة. انتبهت على رائحة التبغ المميزة لـ د. مازن فالتفت وابتسمت. صفق لي، وقال: أحسنتِ يا فتاة. تضرج وجهي بحمرة الخجل، لم يكترث، جلس قريبا من النار، وأخذ يرسم بأصبعه على الأرض (سيف) أخفيت انفعالاتي كأن شيئا لم يكن. اقتربت لأرى وقلت: حتى هنا أيضا! أكاد أجزم بأن في الأمر سرًّا ما، هل يرمز لشيء؟ قاطعني

قائلا: قرأت يوما في أحد كتب باولو كويلو جملة تقول: "إن الرقص هو أحد أكثر الأشكال كمالا للاتصال بالروح اللامتناهية، أي بالله."

ثم باغتتني بسؤال: هل تجيدين رقص التانجو؟

أجيب في نفسي "في رقصة التانجو بغض النظر عن اقتراب الأجساد حد التلاحم، إلا أنني أراها ثقة متبادلة في قيادة كلا الطرفين لجسد الآخر، لينتج لوحة فنية متحركة تليق باللحن المثار. أحب الرقص بأنواعه وللتانجو مكانة خاصة، فقد تعلمته كما تعلمت الباليه. ولكن الفارق، أن التانجو يحتاج إلى حذاء ذي كعب عالٍ، وأيضا يحتاج إلى شريك، ولهذا كان الهواء دوما رفيقي. أتخيل شريكا وهميا، وأفعلها معه بصخب أمام مرآتي. أنظر للفروق بين أصابعي في انتظار أن يملأها أحد بأصابعه، ليكتمل التوحد المصاحب لرقصة التانجو، وكم تمنيت أن أشاركه هو تحديدا رقصتي، ولكنه كان حلمًا أكبر من أن أراه يتحقق يوما، سؤاله جعلني أكافح لأخفي انفعالاتي ما بين الإثارة، والرهبة، والإحراج.

- في الواقع لم يسبق لي أن فعلتها مع أحد.
- يسعدني أن أكون الأول.

أدار أغنية "الهوا طاير" على هاتفه، وقام من مقعده ليقترب مني مادًّا يديه، شعرت بأن المتعة تحوم حولي جامحة. نظرت له ووجهي ينضح احمرارًا، مع ابتسامة في شفتي السفلى، أحاول أن أسيطر عليها.

"مثل الكذبة حلوة عيونا

والقمر دايب على خدا

والوردات يجن جنونا

عالقة أم من الندى"

مدت يدي لتلامس كفه بحذر، أطبق على يدي برقة، وحاصر خصري بساعده القوي، فانتفض جسدي إشارة لكونه أول العابرين.

" تتمشى بدرب بتلحقها

والنسمة بتمرق من حدا

تعطر ها المدى

والهوا طاير طاير..يلعب بها الضفاير

يرسم رقصة ع الداير يزهر أيلول"

لم يكن راقصا بطبيعته، غير أن ذراعيه وساقيه كانت تتمتع بحيوية الحركة.

كان يتابع انفعالاتي، ويدرك جيدا ما أشعر به، وغبنا في سحر الموسيقى الصاخبة، شعرت بأنني قد تركت الأرض وبأن حبيبي معي خارج المجرة.

ورغم تخبطنا في البداية كرد فعل طبيعي لخجلي الفطري، صارت حركاتنا شبه منتظمة مع أنها عفوية غير مدروسة.

ثم استمتعت بأكثر شيء يفصلني عن العالم (الرقص) ومع أغلى شخص لديَّ (مازن). كان اتحاد جسدين أكثر منه رقصًا، انسجام لا يصدق، وكأنني رفيقته في رقصة يومية اعتدنا على تأديتها. وبعد الانتهاء هيمن الصمت ونحن نصغى إلى حسيس الجمر. استمتعت بوجوده جانبي نحدق في سماء الليل، حيث تتلألأ النجوم ببريق آخاذ. وجدت في نفسي رغبة شديدة أن يتريث الفجر وتتباطأ الشمس عن القدوم في أفق السماء لبعض الوقت. ولكن الوقت صيفًا، فكان الليل أقصر من أن يرضي تعطشي لرفقته في هدأة الليل. ينظر إلى عيني بعمق، ثم يبتسم. -بدا وكأنه أدرك بقلبه ما أفكر فيه- ظهر في عيني بريق من الفرح، وفي تلك اللحظة شعرت أن حدث بيننا اتفاق مضمر على أن شيئا بدأ يجمع بيننا. طال لقاء عينيه بعيني، في نظرة هادئة حلوة، قلبي يخفق في حنان وإحساسي يحتضنه. الصمت معه يحلو كروعة الكلام، كانت هذه الليلة من أفضل ليالي عمري، ظللنا معًا حتى انبثاق خيوط الفجر، مبشرة بقدوم صبح جديد.

تركني بعد أن تمنى لي نومًا هنيئًا، فأرسلت إليه نظرة ممتنة. ذهبت لغرفتي ووضعت عني ملابسي وارتديت منامة زهرية اللون، وأرخت شعري، ورحت أفكر في أحداث يومي، ووجدت أن الرقص مع مازن احتل الصدارة بين قائمة أحداث اليوم التي لا تُنسى بالنسبة لي، مما دفعني إلى الابتسام والتنهد، لقد بلغت

قمة من قمم السعادة برقصي معه وقربي منه، ونحن نتحدث دون أن يكون لحديثنا نهاية، استدرت أواجه المرآة وأنظر لنفسي بعيون أخرى.. فها هو شعري الأسود المتماوج، وشفتاي الرقيقتان، وعيناي الواسعتان، وجسد عارضات الأزياء النحيل، غير أن ثمة شيئا جديدا لديَّ، فهناك بريق في عيني وابتسامة على وجهي لم أرهما من قبل بهذا الوضوح.

مرت ساعات قليلة ثم استيقظت من نومي، وقد أنارت أشعة الشمس كل ما حولي، فانعكس ضوؤها كأنه صفائح ذهبية، فابتسمت للنهار وظللت في فراشي أفكر فيما كان من أمري ليلة أمس، وفي السعادة التي تنتظرني اليوم. كنت أجهل أن الحياة حلوة هكذا، لم أكتشف جمال الدنيا إلا اليوم. ورغم ساعات نومي القليلة، كنت ممتلئة بالحيوية والخفة. يُخيَّل إليَّ بأن الله لم يخلق يوما أجمل من هذا اليوم. أستعيد أحداث الليلة الفائتة وآخذ شهيقا طويلا لعلَّ شذى عطره المميز يمر عبر أنفي الآن. كدت أطير من شدة الفرح؛ لأنني قضيت ليلة كاملة بصحبته، شعرت بأن شيئا ما قد حدث وأن الخيال أصبح واقعًا، وأصبحت مستعدة للذهاب معه آخر الدنيا.

أخاطبه في نفسي قائلة: "هل تدرك معنى أن تكون أول رجل يطأ مدينتي، ترى هل تدرك حجم المسؤولية التى ألقيت على عاتقك، ترى هل ستجعل قلعتي سعيدة بفتح أبوابها لك، أم ستجعلها تندم على هذه اللحظة؛ فلتعلم أنك إذا خذلتها يومًا، ستجعلها لك مقبرة."

وأتنهد وأنا أتخيل "يتوقعون أن تكون رقصة زفافنا على نغمات هادئة، وكلمات رومانسية، ولا يعلمون بأنى سأفاجئهم برقصة تانجو على أنغام صاخبة."

أشعر أن لديَّ طاقة حب هائلة تشعّ على من حولي، وكأن دم الحياة قد تدفق عبر أوردتي،

أمزح مع رفيقاتي وأنثر النكات على كل من يقابلني، أدندن كلمات أغنية عبدالحليم حافظ "هي دي هي فرحة الدنيا دق يا قلبي غني يا عنيا" -التي طالما سمعتها عبر الراديو العتيق الخاص بعمتي والتي كانت تحرص على تشغيل برامجه المتنوعة على مدار اليوم، عوضًا عن التلفاز الذي لم تكن تهوى متابعته، إلا لمشاهدة الأفلام القديمة وخاصة لشادية وصلاح ذوالفقار- روحي المرحة اليوم في قمة توهجها، فتضفي على الجميع بهجة وحبورًا، أشعر في تلك اللحظة أنني قادرة على أن أضم الدنيا بأسرها إلى صدري.

*****

كانت الشمس لا تزال متوارية خلف المرتفعات، ولكن ضياءها ينتشر في كل مكان. بدأ البرنامج اليومي للرحلة بتسلق الجبال، ستكون الرسومات من أعلى إذن أو رسم الجبال، أما أنا فقررت أن أرسم وجه مازن؛ فهو أجمل شيء يستحق أن ترسمه ريشتي، ويكون مشروعا لتخرجي.

كانت المجموعة تنقسم لثنائيات، وحينما علمت، تباطأت؛ حتى يتم التوزيع بين الطلبة بعيدا عني، وحينما تم التقسيم، ونظرًا لكوننا تسعة أفراد من الطلبة والطالبات، عرض مازن أن يكون هو رفيقي في التسلق. حاولت أن أداري سعادتي فلم أفلح، انتعلت حذاءً رياضيا يساعدني على التسلق وارتديت بنطال جينز بيج اللون قريب من لون الشاي باللبن، وبلوزة في زرقة السماء قصيرة الأكمام، وملفوف حول خصري كنزة رياضية بيضاء اللون، باستثناء لمسة خفيفة من طلاء شفاه وردي لم يحمل وجهي أي مساحيق تجميل. أما هو فقد كان يرتدي بنطالا قصيرا رمادي اللون، و"تي شيرت" أبيض قصير الأكمام، واعتمر قبعة كبيرة كرعاة البقر. سبقني متشبثًا بأطراف الصخور الناتئة قائلًا: سنرى هل تستطيعين اللحاق بي أيتها الشابة الصغيرة؟

تزداد رنين ضحكتي والشمس تعلو خلفي تضيء الدنيا حول جسدي الدقيق. أشعر كمن نبت لها جناحان، كنت في حالة من الابتهاج والسعادة تجعلني لا أحس سوى بكوني عصفورة خفيفة لا ثقل مادي لها.

بعد تسلق شاق طوال معظم ساعات الصباح، تخللها أوقات لالتقاط الأنفاس وتأمل ما حولنا تم الوصول في سلام، ساعده على ذلك نحافته، وإن كان أثر الإرهاق باديًا عليه، لعلَّ عادته السيئة في التدخين هي السبب.

*****

كانت السماء قريبة وكان المنظر بديعا مُغريا لالتقاط الصور. صار الجميع يتنافسون على التقاط أفضل الصور سواء فردية أو جماعية أو خاصة بالطبيعة فقط. كان هناك موضع رائع ولكنه خطر نوعا ما؛ فهو يحتاج إلى القفز من صخرة إلى صخرة أو وثبة طويلة منعًا من السقوط أو الانزلاق من ارتفاع شاهق. قامت الصديقات بمد أيديهن تجاهي لمساعدتي على القفز والوصول إليهن، لالتقاط صورة جماعية تظهرنا جالسات متربعات رافعات أذرعنا وكأننا نحتضن السماء، يكسونا اللون الأزرق من كل مكان، ففي الأسفل البعيد يمتد البحر بزرقته واسعًا متعانقًا مع سماء صافية خالية من السحب والغيوم في منظر بديع لا يمكن المساومة على تفويته. (د.مازن) على الجانب الآخر مع مجموعة من الطلاب لالتقاط صور تذكارية، ثم أتى مع فريقه لتبادل الأماكن معنا.

كان (د.مازن) متطوعا للأخذ بيد الفتيات، كأنه ينفرد بميزة، كونه مُدرسهم ليحرم الشباب من شرف حمايتهن من الوقوع بعد أن طلب منهم أن يصعدوا ويلتقطوا الصور كما يريدون، وهو سيتولى أمر الفتيات.

كنت آخر الفتيات، كدت أن أنزلق من بين يديه بعد أن التوت قدمي، لولا أن رفعني بقوة وشدني لألتف حول نفسي، ووجدت جسدي بين ذراعيه وهو يضمني، شعرت بحرارة جسده ولم أتفوه سوى بـ "أوه" لقد كان وجهه يبعد سنتيمترات قليلة عن وجهي وهو يتوهج صحوة تحت أشعة الشمس، لكم بدا لي

وسيمًا، بل كامل الأوصاف كأنه خرج من لوحة لسلفادور دالي. لم أفكر فيما إذا كان أحد قد انتبه لما حدث، ثم أفلته بلا تعليق.

*****

حين جن الليل، أتى وقت التانجو مع استحضار الخيال.انبعث من هاتفه موسيقى هادئة، فإذا به يلف خصري بذراعه من دون استئذان، ويشدني إلى صدره محتويًا إياي بذراعيه القويتين، فيما راح يلف بي، وأنا مُتكئة عليه في حبور، مُنتشية برائحته المزوجة بعرقه والدخان وعطره المُميز، وسمحت لنفسي بالاستمتاع الكامل باللحظة. انتهت الموسيقى فتوقفنا عن الحركة، فك حصاره لخصري وظل ينظر لعيني مباشرة حتى شعرت بأنه قد اخترقني مُحدثا ثقبا صغيرا في روحي.. قائلًا: "أنتِ حلوة.. جدا". أزحت خصلة من شعري غير موجودة لأداري سرور ملامحي ثم ابتعدت عنه قائلة:

-أتدري شيئا؟ لقد رسمت "بورتريه خاص" وسأقدمه لمشروع تخرجي .

اكتشف حيلتي في الهروب من نظراته، فابتسم مجيبا: هكذا! دون أن تنتظري لمعرفة ما نوع الموضوع المطلوب؟

ابتسمت ببراءة قائلة: أتمنى لو يصير الأمر مفتوحًا.

نظر بإمعان في عيني قائلًا: هل لي أن أراه؟

كانت رسمة صغيرة  تشبهه كثيرا أعطيتها له، كأنها اعتراف ضمني منِّي بمشاعري تجاهه.. ألقى عليها نظرة ولم يعلق.

صدمني رد فعله وساد الصمت بيننا. "وماذا عما حدث بيننا أمس! هل رقصنا وسهرنا معًا قرب الفجر لم يكن علامة على مشاعره تجاهي". أحادث نفسي.

كسرت الصمت القاتل بسؤالي: أراني لم أوفَّق في اختياري.

أجابني حازما: نعم.. تستطيعين اختيار مواضيع أخرى، أكثر عمقا ومعنى.

- ولكن هذا المعنى الذي أشعر به. ردت بتحدٍّ.

- ليس كل ما تشعرين به قد يتسبب في نجاحك بتفوق. قالها بلامبالاة.

- يكفيني النجاح دون التفوق. ردت بغضب.

- هل يعقل بالتلميذة النجيبة، ذات التقدير المرتفع على مدار الأعوام، أن تقول هذا؟ قالها بهدوء.

- ما يهمني أن رسمتي يراها الجميع. أجبت بعناد طفولي.

- أنصحك بألا تفعلي، فقد تتنصل منك يومًا. أخبرني بصدق.

تركته دون وداع، وانصرفت حزينة متجهمة، يعصي الدمع على النزول من مقلتي.

شتان بين ذهابي لمخدعي أمس، وبين الليلة؛ فبالأمس كنت فراشة تحلِّق في ربوع السماء، أما الآن فأنا جثة متحركة يغزوها الاكتئاب.

في الصباح تركت فراشي على مضض؛ فلا يوجد مفر، فلست في بيتي لأدَّعي شيئًا ما لأكمل رقدتي بلا إزعاج، أو مشاركة أحد حتى بالحوار. لم أشارك

في أي من الأنشطة الصباحية، ولا صخب الزملاء. وحينما طلب منا مازن أن نقوم برسم مفتوح، من وحي المكان ومعنا من الوقت حتى موعد الغداء. لم أستطع رسم شيء سوى شخبطات ملتوية، وكأن العالم بالنسبة لي أصبح عبثيا لا يرى.

ألقى نظرة عابرة، وأمرني بحسم أن أرسم. فرسمت بئرا عميقة، فوهتها واسعة، وقعرها مظلم بلا آخر، وفي منتصفها قطرة ماء واضحة تسقط. رأى الرسومات، ولم يعلق على رسمتي، بل احتفظ بالرسومات جميعها، وأثنى على التزامنا طوال فترة الظهيرة بالانكباب على اللوحة والريشة فقط، أخبرنا بأن باقي اليوم مفتوح، نستطيع التنزه كيفما شئنا شرط ألا نخالف نصائح مرشد المكان.

*****

حين أرخى الليل سدوله، وتلألأت النجوم في سماء غاب عنها القمر، ذهبت إلى مكاني الأول، طفقت أدير عيني في المكان وأتلفت حولي لعلِّي أجده، متأملة أن يظهر فجأة فيحرك الأمور بيننا، وحينما أدركت أنني وحيدة تماما، أشعلت النيران وأدرت أغنية (أنا والشوق لميريام فارس).

انسجمت مع اللحن، وتركت جسدي يخرج طاقته المكبوتة من الحزن. "أنا والشوق يطول ليلي وأنت تغيب..أنا والعين تسأل فين أغلى حبيب".

معه حق، فكيف سنكون يومًا معًا، وهو يعول أسرة، ليته يعلم أنني أرضى أن أكون معه كزوجة ثانية، أو ثالثة، أو حتى رابعة، المهم أن أكون معه. "أنا قلبي ينادي ليك وروحي تروح إليك.. يوقف بي الزمان واستنى شوف عينيك".

كنت بالأمس أعانق السحاب، الآن أشعر بأني أضاجع الموتى. "ارجعلي أشوفك والقلب يرتاح" أمنية بعيدة أن تكون "وألاقيك يا حبيبي زي أنا مشتاق" ظهر من العدم كعادته، واقترب مني قائلًا:"هل جربتِ الرقص وشعرك يتطاير خلفك؟ لم أتفاجأ بوجوده، فقد تمنيت أن يشاهدني، وأنا أرقص على هذه الأغنية علَّه يشعر بما أشعر. لم أرد سوى بأن أخفضت وجهي، وأشحت بنظري عنه.

اقترب منِّي هامسًا: مَنْ مثلك عليها أن تسعد، فرسمة مشروع تخرجها، أخبرتها بأنها لن تتسبب في نجاحها كما تريد، وأعطتها النتيجة من الكنترول. سنعود غدا، ولا يجوز أن تعودي بهذه النظرات الحزينة.

أردت أن أغير هذا الموضوع؛ فأنا أرضى بوجوده في حياتي تحت أي مسمى وأعتقد أن العلاقة الآن لم تعد تلميذة وأستاذًا بقدر ما أصبحت صداقة. تنهدت مستسلمة وقلت في نفسي: "لعلها تكون البداية" واستعدت حيويتي مجددا فور إقناعي لنفسي بهذا قائلة:

- هل لي أن أطلب شيئا؟

إذا كان سيتسبب في ابتسامتك فافعلي. -ابتسم بحنان قائلا:

أريد أن أعرف سر رمزية (السيف).- سألته على الفور:

صمت هنيهة ثم قال بهدوئه المعتاد:- قد لا تستطيعين تحمل الفكرة، قد تكون أكبر من سنك.

- لست صغيرة. قلتها بانفعال غاضب.

ابتسم لحدَّتي في الرد وقال: لي شرط أولا.

عادت ابتسامتي تخبره أن أؤمر.

اقترب مني ممسدا شعري قائلا: أريد أن أفض بكارة هذه الكعكة الأزلية، التي تتوسط رأسك، أراكِ دونها ستصيرين أجمل، فهل تسمحين؟

هنا فقط انتبهت أنني على مدار التحاقي بالكلية، وفي أي مكان، ومنذ أن تعلقت برقص الباليه، وهذه التسريحة لم تفارقني، حتى أصبحت جزءا أساسيا في شخصيتي.. الشعر مشدود للخلف بحزم، والكعكة الضخمة تتوسط رأسي بشموخ، وكأنها فتحة بركان على قمة جبل.

كنت مترددة، وجِلة؛ فلِمَ أعطي شيئًا أعلم أنه لا يستحقه؟ أريد أن يكون رجُلي، هو أول من يرى طول شعري ومنحنياته، ولكن أليس هو بالنسبة لقلبي رجله الأول.

كان يستمتع برؤية انفعالاتي الداخلية، التي تظهر خلسة على ملامحي وسكناتي، فأراد أن يساعدني في حسم القرار قائلا: لم يعلم عن رمزية السيف أحد، وستكونين أول من يعلم.. هل هذه مقايضة ترضيكِ؟ حسمت موقفي أن نعم، فإذا كان هذا آخر لقاء يجمع بيننا، فليكن لقاء مميزا يليق بروعة

المكان. هززت رأسي موافقة؛ فاقترب مني مادًّا ذراعيه حول رأسي، ليزيل ما يشبكه من دبابيس. كانت النار تداعب حطب الشعلة، وكانت أصابعه تخترق أسوار قلبي. أستنشق أنفاسه، فأنا أقصر منه حد وصولي لكتفه، زفراته كلها في وجهي، وكان هذا أول تقارب جسدي بيننا، بعيدا عن رقصاتنا معا. يدور حولي مازحا: ما كل هذه المشابك؟ لم أعلم أنك قادرة على تلجيمه هكذا.

كان أول من يتخلل شعري بأصابعه الطويلة، أنفاسه الآن في رقبتي من الخلف، مما أثار بجسدي موجات متداخلة من الرغبة والاشتياق. فك منحنياته، انذهل حين رأى شلال انسيابي متدفق من الشعر الحرير، يغطي ظهري كاملا، وهنا كأنه اكتشفني كأنثى مكتملة. فالتفت إليَّ مادًّا يديه: تانجو؟

- شرط أن أختار أنا الأغنية.. فهز رأسه موافقا، فأدرت على هاتفي أغنية (حبيبي يا راجعلي لآمال ماهر).

"حبيبى يا راجعلي

أنا عمرى خلاص رجعلي

ممكن أقول يا حبيبي لدقة قلبى إعلي".

التقت أصابعنا لتتشابك مع بعضهما البعض بألفة، جعلتني أشعر وكأننا نفعل ذلك منذ بداية حياتنا. كنت أدور حوله، ويقترب مني "انسى كل اللي عدى أنا مش بعيد عنك"

وينزل بكفه على شعري، فأنحني لأصبح في جانبه الآخر، فيمسك خصري بكلتا يديه، ويرفعني ويدور بي، يضعني على الأرض واقفة، فأحني ظهري بخفة ورشاقة لأصل برأسي إلى الأرض. "وخلاص أنا مستعدة دلوقتي أموت في حضنك".

كان الهواء كريمًا معي، يجعل تنورتي البيضاء الطويلة الواسعة، تتطاير معي بخفة، و"البدي" التركواز ذو الحمالات العريضة عاري الكم والصدر، ظهر مُضيئا بعد أن انحسر من على كتفي الشال المخملي ذي اللون الباهت، كان الهواء يلمس كل ذرة من جسدي. كنا كطيفين، يرفع يده ويدي، ويبعد جسمه عن جسمي، فدرت دورة سريعة، فانحسر الثوب عن ساقين بلون القطن بياضًا. كنت أبتعد وهو يقترب، والعكس. حتى انتهت الرقصة ضمنيا بيننا، باقتراب أنفاسه الساخنة من وجهي، ومقابلة جسدينا لبعضهما البعض حد الالتصاق، وهو يهمس لي: هل تشعرين بتصلب سيفي الآن؟ لأول وهلة لم أنتبه؛ فقد شربت من كأس النشوى حتى سكرت. فقام بحك جسده بي، وهو ممسك خصري جيدا حد الاحتضان. هنا فقط انتبهت، وشعرت برغبة عارمة تجتاح جسدي. فقال: أشعر دائما بأن سيفي لم يجد غمدا يلائمه، علَّه يجده حتى يستكين.احمرّ وجهي خجلا، وتسارعت نبضات قلبي، فانتبهت لوضعنا هذا، وأحنيت رأسي، وتملصت من يديه التي كانت تطوق خصري، ابتعدت خطوات عنه، لأتدثر بالشال كما كنت ولم أعقب، فأردف:

-هل تعلمين شعور قطعة البازل الناقصة التي لابد من قطعة بعينها لتكتمل، هذا شعور سيفي.

-وماذا عن شعور القلب بداخلك؟ كلِّمني عن رؤيتك للحب؟

قال مختارا كلماته بعناية: -الحب كالرسم، فن يتطلب ممارسة مشتركة، ويفترض جرأة، لتتخطى مع خيالك أبعد المناطق، التي لا تتوقعين وجودها على الخريطة.

صدقت، فلولا جرأة قلبي، ما رسمت ريشتي البورتريه الذي رفضته.. ردت بقلب كسير

قال بهدوء: - الرفض لم يكن للرفض، بل كان خوفا من أن يجرفك التيار، لما هو أبعد من إمكاناتك على التجديف.

استفزت كلماته عنادي فقلت بحماس: - وأنا على أتم استعداد للمخاطرة والتحدي، لا بأس من الخوض قليلًا فى عرض البحر. قال بدهاء: عليكِ إذن أن تتحملى طعنات أمواجه.

-قلت بدلال. قليل من العبث بداخله لن يضر.

-حذرني قائلا: فلتتذكري أن من العبث ما أغرق

-قلت بحماس: بل أعلم أن فى الموت حياة

قال بحنان:- عيبك يا صغيرتي أنكِ مندفعة.

ردت دون تفكير: - الصغيرة ليست مندفعة، بل إنها تحب لأول مرة.

كانت مشاعري مشتعلة، ورغباتي الدفينة قد تم ظهور براعمها، جل ما أتمناه الآن أن ألقي نفسي بين ذراعيه، وأغوص في صدره. كبريائي يمنعني من الاقتراب منه أكثر من ذلك، بعد صراحته معي، وقلبي يلحّ عليَّ ألا أفرط فيه، وعقلي يأمرني بالعودة للمخيم الآن، وجسدي حائر لا يدري ماذا يفعل! ولأول مرة ينتابني صداع خلفي في رأسي، مع وخز في قلبي، لم أقو على تحمله بالكتمان؛ فخرجت مني آهة ألم، وجلست على أقرب صخرة، أغطي وجهي بكفي، يغطي شعري المنسدل كتفي، أبكي بحرقة على اندفاع لساني بهذا الاعتراف الصريح. يدنو مني جالسا على ركبتيه قبالتي، أشعر به، أميل وجهي بعيدًا عنه، رافضة انهيار دموعي أمامه، ولكن خلجاتي تفضحني.

قال بتعاطف: - لا داعي للدموع أرجوكِ..حزنك يؤلمني.

أهمس في نفسي: وألمك يؤلمني، حتى لو كان من أجلي.

أحاول السيطرة على نبرة صوتي الباكية وأهمس قائلة- من فضلك امشِ.

يسأل مستفهما كمن يشكك في صحة ما قلت:- أحقا تريدين هذا؟

أجيب بنبرة منخفضة: - نعم، سأستطيع مداواة نفسي جيدا.

تركني، وتتبعته بعيني، حتى اختفى عن نظري.

وهنا انفجرت في بكاء حاد، دموعي هطلت كالمطر، والفرح تساقط في قلبي كأوراق الشجر.

وضعت كفي على وجهي، وعلا نحيبي، وكأني أتأوه من وجع لا شفاء له.

لم أسكت لحظة، إلا حينما شعرت بجزع، إثر ملامسة لكتفي الأيسر. أزحت يدي عن وجهي مع شهقة مكتومة، لأراه أمامي. لم أستطع فعل شيء، سوى أن أدفن رأسي داخل صدره، وأستمر في البكاء. لم يجد طريقة لإيقاف دموعي سوى أن يتذوقها. ضمَّني إليه بقوة بدون تعليق. انتبهت لهذا الوضع بعد إفاقتي من سكرة البكاء، لأبتعد عنه قليلًا. تسقط عبراتي مجبرة، وقبل أن أداريها سريعًا، تطوع هو بهذه المهمة، ومسح دمعتي بإبهامه.

أزحت كفه من على وجهي قائلة: أرجوك، لا تشعر بالشفقة تجاهي، فأنت بهذا تؤلمني.

أمسك يدي، وقبَّلها. حاولت أن أنتزعها من كفيه، فتمسك بها، واقترب ليحتضن خدي الأيسر بيمناه قائلا:

- لكني لا أشفق عليكِ، أنا أشعر تجاهك بإحساس غريب، جعلني أتعمد ألا أفكر فيكِ طوال اليوم.

- وهل حدث هذا فجأة؟! ألم تحكم على قلبي بالموت منذ قليل؟

- أنا خائف عليكِ من قربك مني.

- وأنا لن أقترب.. صمت هنيهة وهو يتفحصني بعينيه، ثم تابعت: هل لي أن أطلب منك شيئا؟

- اؤمري.. قالها مبتسما وبنظرة حانية

- غمض عينيك.

- هل ستقبلينني؟ قالها بنبرة مازحة.

- ابتسمت دامعة قائلة: غمض من غير كلام.

- لكِ هذا.

اقتربت منه، رفعت كفي ليلمس وجهه كطفل يخشى من لمس لوحة معروضة في معرض، مدت أصابعي مترددة، ولمسته لمسة حانية كأني أسجل ملامحه على بصماتي؛ فقد عزمت أن يكون هذا اللقاء الأخير، فلا طاقة لي بحب من طرف واحد، حتى وإن كان الحب الأول. قلبي يرفرف كالطير، وأصابعي تنساب من فوق جبينه نازلة على خده، حتى تصل لوجنته الأخرى، ماسحة جبهته، أنزل بطيئًا حتى أنفه، وأقترب على مهل من فمه وأرسم ببطء على ثنايا شفتيه بالسبابة والوسطى وكأني أقبِّله. رائحة عطري المميز تفوح من بين أصابعي تحت أنفه فتبتسم ملامحه.

أشعر بالإحراج وأبتعد قائلة: ستوحشني.

يفتح عينيه ويجدني أهمّ بالرحيل؛ فألقى نفسه عليَّ، وسحبني إليه، كان كالذئب النهم، الذي وقعت تحت يده غزالة شاردة.

قضم حبتي اللوز النائمتين أسفل وجهي، وتذوق نبضات جيدي المدوي كدقات الطبول المنذرة بإشعال حرب هائجة حتى خدرني تماما، وكأنه ضغط على زر التحكم في أعصابي، فصار شوقي مضاعفا له، ولم أبدِ حراكا، فقد كانت

الرغبة تسري أسفل بطني. أحسست بخشونة ذقنه، ونعومة النداء وحرارة الأنفاس، وللحظة ومض بريق في عقلي، فنهضت بقوة لاعبة الأكروبات حين تخترق طوقا من النار، وانتصبت منتصرة بعد أن أبعدته عني. وتركته باكية.

خليط من المشاعر غزا قلبي تلك الليلة، فلم أدرِ أيحبني حقا أم يتسلى بي، أسعيدة بملامسته وضمه لي التي طالما تمنيتهما، أم عليَّ أن أشعر بالخزي؟ انهرت مما فعل. فأنا لم أفهم لماذا فعل هذا؟

هو لا يحبني، وأنا شعرت بهذا قبل أن يخبرني، وكلما أردت استجماع قواي، أجده يعود. ولكي أحسم الصراع، أردت وضع النهاية بوداع رومانسي حالم يليق برقة قلبي. لم أتوقع أن ينقض عليَّ تقبيلًا كذئب جائع. قضيت ليلة من أسوأ ليالي عمري القصير، الذي لم يتجاوز الثانية والعشرين ربيعا.

وفي الصباح ارتديت نظارتي السوداء؛علَّها تستر عورة البكاء في عيني. أجبت تساؤلات الزملاء عنها، بأن عيني أصابتهما حساسية، وهما تؤلماني، ولهذا مزاجي ليس رائقا للتحدث، أو المزاح كما كنت في رحلة الذهاب.

حزمت حقائبي استعدادا لرحلة العودة وأنا أشعر بالضياع، رفضت حتى تناول وجبة الفطور، وبدلت ملابسي، وانتظرت تجمع الرفاق جميعا، وركبت الحافلة استعدادا للرجوع.

هو لم ينظر إليَّ، كأنني لست على الخريطة، تعامل بأريحية تامة مع الجميع، لم يهتز له شعرة ولم يطرف له رمش، لم يبد عليه أي تأثر.

*****

وصلت المنزل، فاستقبلتني عمتي بترحاب وشوق، لفت نظرها النظارة السوداء التي أرتديها في المنزل.

-هل الشمس زارت بيتنا دون درايتي يا ندى؟ تقولها مازحة.

- عيني تؤلمني قليلا.. سأدخل غرفتي لأنام.

- كُلي أولا ثم نامي. لقد طهوت لكِ كل ما تحبينه؛ محشي كرنب، دجاج مشوي، بطاطس محمرة، سلطة طحينة، وكفتة بانيه.

- ابتسمت قائلة: لماذا كل هذا؟

- لي عزيزة أتت من سفر طال أيامًا، وأراها تستحق، وقررت أن أدعوكِ معها لتناول تلك الوليمة. تمازحني قائلة: لا داعي للدلال..اغتسلي من السفر لتصبحي رائقة البال، وتحكي لي بالتفصيل عن رحلتك.

- اعذريني فأنا جد مرهقة.

طاوعتني أخيرا، وامتثلت لرغبتي قائلة: كما تريدين يا ابنة أخي.

ذهبت إلى غرفتي وأغلقت الباب. بدلت ملابسي ثم اضطجعت على جنبي، فوق السرير، منكمشة على نفسي وأغمضت عيني.

بعد ساعات قليلة تسللت عمتي إلى غرفتي، واقتربت من فراشي لتوقظني وهي تمسد على رأسي، وتخبرني بأن صديقاتي بالخارج، وتحثني أن أرتدي ما يناسب لاستقبالهم، قمت على مضض وتعبيرات وجهي المتجهمة، جعلت عمتي

تضع أصابعها على جبهتي قائلة: "أزيلي  التكشيرة، تجاعيدك ستظهر بدري" لم تتركني حتى نهضت وأظهرت لها ابتسامة بسيطة.

كنت في مزاج سيئ لا يسمح لي باختيار شيء مميز، بطبعي آخذ وقتا في الاختيار، ولهذا لا أفضل المفاجآت "كان عليهن الاتصال بي أولا قبل زيارتي".

فتحت الدولاب لألقي نظرة على ما بداخله، لعلَّ هذا يساعدني، وبعد برهة اخترت فستانا قصيرا، منفوشًا ذا نقوش وردية مُبهجة، سرحت شعري، تبرجت بعناية، ووضعت اللمسات الأخيرة على مظهري قبل أن أتعطر بسخاء.. تزينت كأن لم يصب قلبي شيء وذهبت لاستقبالهن. فتفاجأت ببالونات وزينة عيد الميلاد وتصفيق فور رؤيتي، مع أغنية "يلا حالا بالا حيوا أبو الفصاد" وقفت مكاني مندهشة ثم ابتسمت مبتهجة، فقد كنت ناسية هذا التاريخ. على مدار عمري لم أحتفل به ولو مرة، ولم يذكرني أحدهم بالتهنئة التقليدية حد أنني تناسيت أن هذه مناسبة يحتفل بها البعض، وقد يتخذونها وسيلة لإدخال البهجة على أحدهم كما فعلن صديقاتي معي الآن. نظرت لعمتي بابتسامة واسعة ثم أخذت أهتز واقفة رافعة ذراعاي وصديقاتي يلتففن حولي كقطار يدور، إحداهن وضعت على رأسي طرطورًا صغيرًا، فما كان مني سوى أن ركبت معهن القطار الوهمي، ووضعت يدي على خصر عمتي التي ذهبت بنا إلى غرفة السفرة، حيث المائدة الممتلئة بالحلويات الشرقية وعلى رأسها تورتة تنتظر في المنتصف بشموخ من يعلم قدره.

أغلقت عمتي الإضاءة حتى صارت للشموع الموقدة  دور ملحوظ، علت

صيحات الاحتفال  بعيد الميلاد من الجميع "سنة حلوة يا جميل.. سنة حلوة يا جميل.. سنة حلوة يا ندى.. سنة حلوة يا جميل".

انحنيت لأطفئ الشموع والكل ينبهني أن أتمنى أمنية أولا، ثم أضاءت عمتي نور الغرفة فانهالت القبلات عليَّ وتقديم الهدايا لي ، قطعت التورتة وتم التوزيع مع مشاحنات مُحببة للنفس من الصديقات، وكل منهن تريد قطعة أكبر من الشيكولاتة.

كان من الممكن أن يكون يومًا مبهجًا لي ينسيني ما حدث في رحلتي، إلى أن سألت عمتي عن أبي؟ فتطوعت إحدى الصديقات لتخبرني: "لقد صعد الطابق العلوي ونحن نعلق الزينة بعد أن ألقى علينا التحية وتبادل معنا بعضًا من الحديث القصير".

فزادت كآبتي "لم ينتظر حتى يقدم لي تهنئة أو يشارك في مفاجآتي، حتى وإن لم يفعلها سابقا، أليس وجود الصديقات أمرا كافيا ليقوم بدور الأب الحنون أمامهن؟!".

بروفايل الفيس بوك الخاص بي أيضا كان ممتلئا بالمعايدات التي في الغالب لا أكترث بها سوى بمنشورعام يحمل شكرًا للجميع، ولكن اليوم ظللت أبحث عن معايدة "مازن" لي فلم أجد.

*****

حاول مازن الاتصال بي في اليوم التالي، لم أجد لديَّ طاقة للرد. فماذا يريد الآن؟ وماذا سيقول؟ وماذا أفعل معه؟ هل أنهي علاقتي به نهائيًّا ولا أتعامل معه حتى كأستاذ، هل أمتنع عن حضور مادته، وأتوقف عن الذهاب للكلية حتى لا أراه ولو حتى صدفة. بغض النظر عن دراستي ومستقبلي العملي، لا أستطيع فعل ذلك، فأنا مولعة به. لا يزال النظر إليه يجعلني أشعر بالفراشات تطير في رأسي، ولكني مجروحة منه، ولن يستطيع أحد مداواتي سواه، لا أستطيع الرد على اتصاله، إنني بائسة، ومنهكة، ومريضة بحبه. أريد أن أبكي داخل حضنه، أن أضربه، أن أكسر أي شيء فوق رأسه، أريد أن أغفو وأستيقظ لأجد نفسي معه. أستلقي معذبة بنار الحب. أغمض عيني فتأتيني صورة (مازن)، تسلق الجبل، إنقاذي من السقوط، تقاربنا بعد انتهاء الرقصة، قُبلته لي، لمستي لوجهه...

أغمر نفسي تحت الغطاء وأشعر بسريان طيفه داخل جسدي، فأحتضن وسادتي وأنا أشعر كم أن روحي مُتعَبة.

في اليوم التالي تلحّ عليَّ كلمات أغنية (سيبي روحك وارقصي) فأستمع إليها وأتخيل أنه يغنيها لي، ورأيت نفسي أرقص معه مع أداء تمثيلي لكل كلمة فيها. بعد يومين، كنت قد هدأت تمامًا، وصفحت عنه بعد أن قامت تخيلاتي بمفعولها السحري.

"أريد أن أطمئن عليه، ترى هل هو بخير؟".

أرسلت له رسالة عبر "الماسنجر" تحوي اسمه فقط (مازن) وكأني أناديه.

استقبلها ولم يرد.

ثم بعد بيومين أرسلت له رسالة عتاب صريح "كنت تستطيع فعل أي شيء آخر غير ما فعلته بي، لم يكن في نيتي الاقتراب، طالما أن وجودي ليس مسموحًا به في حياتك، رسالتك وصلتني على أكمل وجه، لكنني أريدك أن تبقى في حياتي، حتى وإن لم يجمعنا شيء، يكفي أن تبقى بيننا مساحة للاتصال والاطمئنان".

استقبلها ولم يرد.

دخلت جروب الكلية، على موقع الفيس بوك لأراه كعادته يمزح، أو يرد على منشورات خاصة بالطلبة، بل ووصلت به اللامبالاة أنه نشر الرسومات التي طلبها منا في الرحلة ليقيمها.

أرسلت له: لماذا لا ترد على رسائلي؟

-ولماذا لم تردي على اتصالاتي؟

- أين وجه المقارنة الآن؟ هل تقارن اتصالك بعد عودتنا مباشرة وأنا في أسوأ حالاتي النفسية، باتصالي بك الآن، بعد أن هدأت قليلا، ولملمت شتات نفسي المبعثرة على يديك من يومها.

- ما زلتِ صغيرة لتستوعبيني يا ندى، عامة لديَّ موعد مهم، انتظريني حتى أعود.

انتظرته كثيرا ولم يعد، لم يحسم موقفه منِّي، لم يرد على رغبتي في الابتعاد النهائي، لم يبرر لِمَ انقضَّ عليَّ ملتهمًا إن لم يكن يريدني. لم أفهم ما حقيقة موقفه مني.

بعد يومين أرسل لي "تعالي الآن سريعا، أنا في المرسم وأحتاجك"..

مثل فراشة منجذبة إلى لهيب شمعة لم أستطع كبح نفسي عن الذهاب إليه، بل لقد نسيت كل شيء، وصار قلقي عليه هو سيد الموقف. ترى ما به؟ هل ألمَّ به ضرر ما ؟ ولِمَ اتصل بي أنا بالذات ليستنجد بي! علَّه يريد أن يخبرني بمعزتي عنده بالفعل وليس بالقول، قد يفاجئني باحتفال خاص بعيد ميلاي الذي نسيني فيه.

ذهبت إليه سريعا، متذرعة لعمتي بحجة شراء ورق مهم، يساعدني قبل الامتحان الذي اقترب موعده. قدت سيارة عمتي، وذهبت إليه. هرعت إلى المرسم، ودققت على الباب بشدة غير مكترثة لنبضات قلبي المرتفعة، والعرق البارد الذي نبت على جبيني. فتح لي الباب، وسحبني سريعا للداخل.

جزعت من رد فعله، وسألته بلهفة: ما الأمر؟ أخبرني، ماذا بك؟

استقبلني بابتسامته الهادئة وملامحه الرزينة ثم قادني إلى الردهة الداخلية. عبارة عن صالة واسعة، على الجدران لوحات من ريشته، ومكتبة في الزاوية بها بعض من الكتب والتحف الفنية، وطاولة صغيرة عليها أدوات الرسم من ألوان وفرش متعددة الأحجام، ومطفأة سجائر مكتظة على مائدة متوسطة مع باقة من الزهور الذابلة، ولوحة على حامل أمام مقعد طويل لم يتم الانتهاء منها، وفي الجانب الآخر ثمة حوامل لوحات، ولوحات تجريدية، وعبوات ألوان في كل مكان على الأرض وبقايا مأكولات، ومعزوفة شهرزاد لكورساكوف تنساب بهدوء من حاسبه المحمول. انتبه لبراءتي المفرطة، جلس جواري على الأريكة التي

تغفو في الركن منزوية، سألني "أيعجبك المرسم؟" فأجبته "نعم، كثيرا" فابتهج من ثنائي على ذوقه وقال: "رائع، إن ذوقنا متشابه، أعتقد أنه من المهم أن يجعل المرء الأشياء المحيطة به جميلة وجذابة وبها لمسة من روحه، ولكن أتعلمين لقد ازداد جاذبية بوجودك فيه".. رغم أنني أعرف أساليبه لكنني شعرت بشيء من الخجل عندها، لكني حاولت إخفاءه بالنظر إلى اللوحة التي لم تكتمل على الحامل. شرع يحدثني عنها وكم أرهقته ذهنيا لاختيار ألوان تليق بها. ثم اقترب من وجهي كأنه لمح به شيئا أثاره وقال: "لديك وجه مُغرٍ، واضح ومعبر وهذا ما أحتاجه للوحتي حتى تكتمل" كنت أشعر بالزهو حين لاح في ذهني إذا ما وضعت صورة وجهي على إحدى لوحاته، ثم عرض عليَّ تناول الغداء، قائلا "يمكنك مشاركتي الغداء إذا تكرمتي ومنحتيني من وقتك، أو نبدأ بتناول مشروب أولا، ماذا تفضلين؟ لا تجيبي الآن.. أنا أصنع قهوة رائعة".. قالها وذهب لركن به آلة لتحضير القهوة. تعامل كأنني موافقة واستوعب صمتي الخجول معه، أراه يعزف على أوتار قلبي بخفة ورقة وانسيابية ونعومة، وهو لا يدري شيئًا عما يفعله بي! عرض أن آتي إلى المرسم مرة أو مرتين في الأسبوع، وقبل أن يستمع إلى ردِّي، استمعنا معا إلى جرس الباب مبشرًا بقدوم الطعام الجاهز، استطاع أن يصالحني دون كلمة ترضية واحدة، افترشنا الأرض وأكلنا بنهم، فقد كانت بيتزا السوسيس شهية جدا، أعتقد أنني تكلمت كثيرا وكان هو يضحك بالمقابل، فقد كنا مسرورين حقا، بينما كان يمشي معي بعد أن غسلنا أيدينا، أمسك

يدي بكلتا يديه وهو يحدق في عيني، ثم جلسنا على الأريكة متقاربين، يداعب خصلات شعري، يخبرني بوجل وهو مطرق الرأس: إنني مُتعب كثيرا يا ندى وأحتاجك بشدة. أقترب منه بمأمن، وأضع يدي على جبهته؛ وأجس حرارة وجنته بظاهر يدي، فأجدها معتدلة.

-ماذا بك؟ قلتها بقلق حقيقي.

التقط يداي وضغطهما إلى صدره، وقبل أن أتمكن من التفوّه بكلمة أو بسحب يدي بعيدا، قام بضغط شفتيه على شفتي.. كان قلبي يرتعد وصوت نبضه يصطدم مثل الألواح بطبلة أذني. نظر إليَّ وتفرقت شفتانا. اقترب تدريجيا نحوي ووضع رأسه على صدري، قائلا: أنا أحتاجك.

ربت عليه، وضممته لي بحنان أم قائلة: أنا معك.

دفن وجهه في عنقي وسارت أصابعه تتحسس ببطء على امتداد ظهري وكانت أنفاسه تتسارع فوق جيدي، وضعت يدي فوق صدره وأنا أشعر ببداية التخدير، أحنى رأسه ببطء ومس شفتي بشفتيه، كدت أتهاوى وأنا أحاول التماسك.. عقد يديه أسفل ظهري ثم بدأت يده تتحسس جسدي، كما فعلت مع وجهه من قبل، قائلا: حتى إذا ما أردت نحت تمثال لمعشوقتي، تكون المقاسات مضبوطة.

ابتسمت، كنت أشعر بأنه ما زال يحاول ترضيتي؛ فأنا أعلم أن كبرياءه المقيت سيمنعه من أي اعتذار، أو اعتراف بأنه تسبب يوما في إيلامي، ولكن حبي

كان أقوى من أن يجعلني أستمر في الغضب. أمسك يدي وقبَّل باطن كفي، ثم لثم أصابعي إصبعا إصبعا كأنه يتذوق حلوى. ثم مسح بها على وجهه، اعتدل في جلسته، وكفي ما زال في يده ثم وضعها بين ساقيه، قائلا: حتى إذا أردتِ رسمه فليكن مقاسه معك. هنا انتبهت بجزع فور ملامستي لسيفه وكأنه ثعبان كامن سينقض عليَّ. شعرت وكأن رصاصة أصابت قلبي، وفهمت ما يرنو إليه، وآلمني نظرته لي بأنني رخيصة ومباحة. أراد أن أتحسسه، فأزحت وجهي وأفلت يدي، وهممت بالهرب، فلحق بي يحملني من خصري.

-إلى أين تذهبين؟ ألم تقولي إنك تحبينني؟ أم أنه مجرد كلام! حبيبك يعاني الآن ويحتاجك، فهل ستتركينه؟.

"تبًّا لقلبي، ولطريقتك في استدراجي" أقول لنفسي.

طوقني بذراعيه، شعرت بسخونة أنفاسه عندما ضمني إلى صدره، وتنسمت رائحة شعره المليئة بالدخان. جسدي يرتجف، والصراع بين عقلي وقلبي على أشُده.

أدخل يده تحت سترتي ولمس جسدي وشعر بملمس بشرتي، قبّل عنقي الممشوق، ظل يعانقني، كدت أن أستسلم له تماما، لولا أن أخرجني من هذا المأزق رنين محمولي بنغمة والدي.

فزعت فانتبه لاعنًا هذا المتصل. وانصرفت سريعا دون وداع.

*****

لم أدرِ كيف استطعت القيادة وكل خلجة مني ترتجف. أعصابي منهارة، وكدت أن أصدم شخصين أثناء الطريق، لولا مكابح الفرامل المتينة التي قامت بعملها على خير ما يكون. قلبي يخفق بانفعال غاضب، جسدي ساخن حد الاحتراق، يدي ترتعش حد الاهتزاز. لا أستطيع التحكم في أعصابي مُطلقا، شعرت أنني على وشك الانهيار. حين وصولي، ألقيت المفاتيح لحارس العقار ليركن السيارة، فقد تركتها في منتصف الشارع، وهذا أقصى ما استطعت فعله، وأحمد الله أنني وصلت بالسيارة سليمة.

"اركنها وطلع المفاتيح". قلتها وأنا أحاول الجري لأظهر أنني في عجلة من أمري، ولأداري عدم استطاعتي السير بصورة طبيعية، فقدماي تهتزان تحتي.

صعدت، لا أدري ماذا أفعل، ولا أفهم ماذا يريد. لماذا يريد استدراجي لعلاقة مشينة؟! إذا كان يحبني ما فعل هذا، وإن لم يكن يحبني فلماذا يفعل هذا؟

الحب أرقى من أن تدنسه الخطيئة، الحب أطهر من أن يساق إلى الوحل كما يحاول أن يفعل معي. جسدي يرتجف؛ لا أدري أهو خوف أم رغبة؟ ولكني أوقن أنني في حالة صدمة، فلم أتوقع أن يتعامل معي بهذه الطريقة الفجة، شعرت بأني محطمة إلى درجة أن الدموع اجتمعت في عيني، لكنني لم أبكِ.

أمسكت مقبض الباب وأحكمت قبضتي بشدة، علَّني أستمد منه القوة. فتحت باب غرفتي وأغلقته خلفي ثم أطلقت تنهيدة ارتياح فأنا الآن في أمان..

كنت أتجمد من البرد فخلعت ملابسي وارتديت منامتي الثقيلة واندسست في السرير. لم أقو على النوم، عند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل استفقت مجددا وأخذت أجول في غرفتي، ثم جلست على الأرض ساندة ظهري إلى الحائط المقابل للنافذة وأخذت أحدق في ظلمة الليل. جلست حتى بعد الساعة الثانية من بعد منتصف الليل، وبحلول ذلك الوقت كنت باردة جدا حد الارتعاش، ثم بدأت أبكي.

قبيل طلوع الفجر كنت قد هدأت قليلا واستطعت أن ألملم أعصابي المتناثرة فوضعت مشاعري في ريشتي لتعبر عما أصابني.

في منتصف النهار كنت قد انتهيت من رسم اللوحة، دخلت على جروب الكلية لأضع الصورة (خنجر مغروس في قلب نمر يدمي).

كانت التعليقات عن روعة ريشتي. إثر هذا أرسل لي (مازن) يقول: "لاداعي لما تفعلين، اهدئي قليلا، لم يحدث شيء لكل هذا".

- هل ترى هذا حقا؟ هل علينا تجاوز ما حدث ببساطة ويسر وكأنه لم يكن!

- يا ندى، إنني الآن على عجلة من أمري، ولديَّ مهام عديدة، حاولي أن تمري عليَّ في مكتب الكلية، وسنتحدث كما تريدين.

- ولماذا لا نتحدث الآن؟ ألا أستحق منك أن تأخذ من وقتك دقائق من أجلي؟!

اعذريني يا ندى، مضطر أن أغلق الخط الآن، سأنتظرك في مكتبي.. سلام.

أهمس لذاتي "لقد أيقظ إحساسًا بداخلي لم أكن أعلمه، لقد اكتشفت لتوِّي أن لدي جسدًا شهيًّا"

كم أتوق أن أذهب لغرفة أبي الآن، وأزيح ذراعه من فوق صدره وهو يغفو على الفراش لأضع رأسي ها هنا موضع القلب، فيحيطني ذراعاه بتلقائية وأظل هكذا إلى أن أرتوي.

ولكن ليس في وسعي هذا؛ فهو ليس هنا.

*****

انخفضت درجة الحرارة خلال الليل، تمددت في فراشي ملتحفة بغطاء كثيف وسمعت في الخارج حفيفًا متواصلًا لأغصان تحتك بعضها ببعض بتأثير تنهيدات الرياح، وتسفع الأغصان المورقة المبللة بالمطر بشكل منتظم. استيقظت في أعماق الليل على صوت طرقات المطر على نافذتي، تبشِّرني بقدومها، وتحفزني على القيام لاستقبالها. ولكني لم أقو؛ فجسدي المنهك من الإعياء خذلني، ولم يسمح لي سوى بالالتحاف جيدا، والمناجاة ببعض الأدعية، التي لا أذكر منها شيئا، فواضح أن حالة هذياني كانت قد فاقت المدى. لكن ما أتذكره جيدا حينها شعوري بالأمان في سربي، هذا الذي يفتقده من لا مأوى لهم. فعشق المطر رفاهية للآمنين، وعذاب للمشردين. كل الأصوات بالنسبة لي مزعجة إلا صوت الرعد؛ فبه أستبشر بقدوم المطر."آه يا مازن، كعشقي للمطر عشقتك، وكإدماني لرائحته

أدمنتك، وكإصابتي بالبرد المُميت كان جرحك، وكقسوة برد الشتاء معي كانت قسوتك، وكصقيع لياليه كانت مشاعرك، وكصاعقة السماء كانت خديعتك، فتبًّا لعشقي وغوايتك."

هممت بأن أكتب مشاعري تلك على صفحتي، أو أرسلها في رسالة، ولكني تذكرت مقولة عمتي:

"لو وجع قلبك، فمرضك لن يهمه" أخبرتني بهذا يوما، وهي تحكي لي عن مشاجرة جارتنا مع زوجها، بعد أن غضبت وتركت له المسكن، وأثناء نزولها الدَّرج، كُسرت ساقها وظلت عند أهلها، وهو لم يكلف نفسه عناء الاطمئنان عليها، فكانت تحادثها باكية: "كيف له أن يعرف بخبر مرضي ولا يهتم أن يسأل!".

أتحسس ملمس شعري، وأنظر إليه، وأداعبه بين أصابعي، أشمه، وأتذكر حين خلَّل أصابعه فيه، ثم أهمس بغيظ: ثق بأن شعرى الطويل، الذي كنت تحبه، سأخنقك به يومًا ما.

في الليلة التالية، خارج نافذتي كانت السماء تبدو منخفضة ورمادية اللون، أستنشق الهواء، علَّني أشم بشارة للمطر القريب، فلا أجد. بحثت في مكتبتي عن السماعات الرأسية فوصلتها إلى محمولي وأدرت أغاني مهرجانات بصوت مرتفع كاد يثقب أذني، علَّني أختبئ داخل هذه الضوضاء من مشاعري المرتبكة وحيرتي في تعاملي معه، وضعت كم حسرتي في هذه الموسيقى الصاخبة لأرقص عليها

زومبا، راحت الأغاني تستغيث مكتئبة الواحدة تلو أخرى، عاكسة كالمرآة شجن روحي اليتيمة. قضيت ساعات طويلة في هذه الليلة وأنا أستمع إلى الموسيقى، حتى نجح الأمر، فقد جعلت هذه الإيقاعات الصاخبة قدرتي على التفكير مستحيلة.. أسلمت نفسي لموهبتي التي تنبض بعروقي، ظللت أرقص كأنني أنتحر. تتصلب رؤوس أصابعي مع كل حركة، ويتسمر ذراعاي على صليب الإيقاع. طاقة الغضب بداخلي جعلتني لا أشعر بالوقت المنقضي، حتى أن خارت قواي، وغلبني النعاس دفعة واحدة كالصاعقة.

في اليوم التالي كانت تباشير النهار قد ظهرت من النافذة، دفعت الرياح الستائر بيضاء اللون فأخذت تهتز، أفقت من نومي، فتحت عيني، تثاءبت ومدت جسدي ثم ظللت فترة ليست بالقصيرة على سريري، قبل أن أقرر أن أقوم، ثم دفعت الغطاء عني لأنهض، وأخيرا.. استجمعت قواي لمواجهة يوم جديد. في مقابل السرير، كانت هناك مرآة كبيرة عكست صورتي، بدت بشرتي نضرة وعيناي اللامعتان مكسوتين بالحياة. بدوت قوية وفي أحسن حال رغم شعوري أني في حاجة إلى المزيد من النوم، ورغم إنهاكي نفسيا وجسديا، إلا أنني لم أتحمل الانتظار، وقررت أن أذهب إلى الكلية لمقابلته. بعد الاستحمام، قمت بتسريح شعري المبتل، ووضعت ماكياجا خفيفا، ارتديت "بنطال جينز كُحلي"، وبلوزة سوداء قصيرة واسعة، ووضعت قلادة فضية لها قلب كُحلي، مع حذاء رياضي أسود.

تناولت قطعة كيك مع شاي بحليب، وخرجت دون أن أتبادل كلمات مع عمتي سوى فقط تحية الصباح.

قابلت جارتي (العمة رجاء) في المصعد الكهربائي مع ابنها الشاب عصام.

ألقت عليَّ التحية فقالت: أهلا، كيفك يا ندى؟

- بخير يا طنط الحمدلله، كيف حالك؟

- نظرت لعصام قائلة: ألن تلقي التحية على ندى.

فقال عصام مبتسما: صباح الخير يا ندى.. أما زلتِ تحبين المطر؟

- عصام وصل أمس من سفره.. أسبوعان فقط وسيسافر مرة أخرى.

- حمدًا لله على السلامة.

-أصبحتِ في أي عام دراسي الآنياندى؟

- في بكالوريوس

- لقد مر الوقت سريعا، ما زلت أذكر أول يوم دراسي لك وذهابك مع والدك إلى المدرسة، وذهاب عصام مع رفقائه، ورفضه أن يقوم بتوصيله أحد، فقد كان وقتها في الصف الخامس الابتدائي.

كان المصعد قد وقف، فخرج الجميع واستأذنت منهما وهمسات رجاء لولدها تمر عبر أذني: "لقد نضجت ندى، والتف قوامها، كم أصبحت جميلة ويافعة، ونعلم عنها كل شيء، فقد ترعرعت هنا تحت نظرنا، أبوها كاتب وصحفي، ومركزه يشرف، لن تجد عروسًا أفضل منها".

*****

دلفت إلى حجرة التدريس الخاصة به، وغضبي في أوج اشتعاله، علَّني أضع نهاية لهذه المهزلة القلبية التي أشعر بها، لم أطرق الباب، ولجت وكأنني صاحبة حق، ولي مطلق الحرية في التجهم، والاعتراض ولو حتى بالصراخ.

تعجب دخولي المفاجئ، وبهذه الطريقة الوقحة، في حين أنني أيضا تفاجأت، فهو لم يكن وحده، كانت زوجته بصحبته التي حدقت في بكل ازدراء. كانت تجلس على المقعد الجلدي المواجه له. رؤيتها ألجمتني، فها هي غريمتي، التي طالما تمنيت رؤيتها، تلك الزوجة التي لا يحبها زوجها، ولكنه يحترم كبرياءها ويقدر مشاعرها، مشاعره تلك التي جذبتني له أكثر.

دار بيننا حوار بالنظرات، استطاعت كل منا أن تتعرف على غريمتها دون أن تنبس إحدانا ببنت شفة، فقد كانت نظرات (رضوى) نارية، حادة، ساخرة، صفعتني بها دون أن تتحرك من مكانها.

من السذاجة أن يستهين الرجل بحدس المرأة، حتى وإن لم يترك خلفه دليلا؛ فالحاسة السادسة لديها أصدق من ألف برهان مادى..

-أنتِ إذن الفتاة الوضيعة التي شغلت لب زوجي الفترة الماضية، مخدوعة أنتِ يا صغيرة، تتوقعين أنك ستحصلين عليه! لستِ أولى الضحايا، وأعلم جيدا أنك لن تكوني الأخيرة، نعم أعلم كل شيء، ولكنني أتلذذ برؤية عينه الهاربة من مواجهتي، لن أهدم بيتي بمواجهته قط.

-نعم يا سيدتي، أنا تلك السارقة التي تريد أن تحصل على ما ليس لها. أنا المُساقة في طريق الشيطان بلا رجعة. أنا الملجمة بعشقه، والمجذوبة بهواه. أنا البكر الرشيد التي تريد إهداءه عذريتها. من حقي الدفاع عن حبي الأول، حتى ولو بالاعتداء على حق امرأة أخرى تدعى زوجته.

-لن تنالي منه.. أفيقي، الحرب غير متكافئة، فصكّ الملكية معي.

أنهى الحوار الصامت مقاطعته لي قائلا، وهو يتحاشى النظر إلينا: ماذا تريدين؟

- أتيت لدكتور (رشيد).
- كما ترين، هو ليس هنا.

فانصرفت في الحال دون تعليق، بعدما سمعت هشيما مدويا في قلبي. كانت خطواتي كصاحبة الساق الكسيحة، وقفت أمام نافذة الدَّرج، لعل الصخب بداخلي يهدأ. مسحت بيدي البخار على زجاج النافذة حتى طالعني حرم الكلية المزدحم، تاه نظري في الأفق البعيد برهة حتى شاهدته بصحبتها، تركب معه سيارته المنتظرة في بهو الكلية، تشيعهما ابتسامتهما. أحسست بفوران دمي وبدوار في رأسي، شعرت بأنني كنت بمثابة الهواء المسموم الذي تخلصا منه للتو، مما جعلهما يتنفسان باستمتاع مجددا لاستنشاق الهواء النظيف. أحسست بحقارتي فأنا لصة تساعد زوجًا على خيانة زوجته. صوت يصرخ في نفسي يقول: "لست سارقة، بل هو الذي أغواني، واستغل إعجابي الشديد به، هو من أغراني للتعلق

به، هو من فتح لي المجال للتنزه داخل قلبه كما أريد، وبقانون كرم الضيافة، فعلت معه بالمثل، وفتحت له قلبي يرتع فيه كالطفل الشريد. لماذا أعطاني الأمان إذن، إذا كان يعلم بأن زوجته تأتي له هنا كما تريد؟ أنَّى له أن يفعل ويضع ثلاثتنا في هذا الموقف؟

أجيب على الصوت "ليس له في الأمر شيء، لعلها جاءت فجأة".

ثم أعلق على هيئة زوجته: ليست جميلة على أية حال، ملامحي أجمل.

وأتذكر كلمات عمتي في مثل هذا الموقف "لا تتعجبي حين ترين أنثى قليلة الجمال، ولكنها متزوجة، وزوجها شديد التعلق بها، فالموضوع لا دخل للجمال الخارجي به، هو رأى روحها جميلة، وهذا ما جذبه إليها، أما عن الشكل الخارجي غير المقبول بالنسبة لك، فالتعود يجعل الأشياء مقبولة؛ فباهرة الجمال، مع الوقت ستصبح في نظره عادية. النصيب يا ابنتي له قوانينه الخاصة. فهو يراها عالية المقام ليس لعلو شأنها - فهي كسائر النساء لا تزيد عنهن في شيء بل قد تكون أحقرهن- ولكن لتربعها المنفرد على عرش قلبه". ولكنه لا يحبها، هو حتى لا يرتدي خاتم زواجه.

لا تهمني أية مبررات الآن، فقد ساقني بيده إلى فعل ما فعلت، هو من أغواني بعشقه وألقى بحبه في أمنيتي، هو من ترك لي مساحة للدخول إلى قلبه أتعرف عليه كيفما أشاء. آه يا الله! ساعدني كي أشفى منه، فأنا عليلة به حد

السقم، ساعدني يا إلهي، كي أفيق من سكرة عشقه التي خلبت عقلي وروحي، فأنا متيمة به، يا الله ردّه إليَّ، أو أخرجه من داخلي بلا رجعة.

نمت تلك الليلة مكلومة بنزيف قلبي، أنتظر منه اتصالا يداويني، أو رسالة تشفيني، فمجرد ظهور اسمه على شاشة هاتفي سيبعث في نفسي الحياة. استسلمت للنوم لعلّي أبرأ من الوجع. بعد أن بقيت أتقلب لساعات قبل أن أغفو. أستيقظ كل فينة أنظر لهاتفي، كما كنت أنتظر نتيجة الثانوية العامة حتى غلبني النعاس، وأحكم قبضته لأغشى عن الواقع تماما. عندما استيقظت في صباح اليوم التالي وجدت الشمس من نافذتي تعلو في السماء، والغيوم المتناثرة تبددت بسرعة، وسمعت صوت الريح تعبث برؤوس الأشجار فتراقصها تارة وتخبطها بعنف تارة أخرى. كنت بمعنويات منخفضة، ورأس مثقل بالأفكار، وقلب حزين. أشعر أنني لا أستطيع النهوض من الفراش مهما حاولت. هناك دموع جافة على وجهي تحرق بشرتي.. نظرت لهاتفي فوجدت منه اتصالًا. بقدر أشواقي أعدت موقف الأمس، وما ترتب عليه من إحساسي بالمهانة. ترى ماذا يريد؟ هل سيعتذر أم سيبرر الموقف. ثم سكت هنيهة وجلة، أم لعلّه ينهرني إذا ما أشعرته زوجته بشيء، واتصلت به لأحسم توتري فلم يرد. وظل هكذا، يتصل بي في وقت أكون نائمة فيه، وحين أعاود الاتصال يرفض الرد من باب القصاص. كنت أعلم طباعه الحادة، وعناده الفظ، ولكن هل هذا وقت عناد؟ أما نحن فيه لا يستحق التنازل قليلا ليداويني؟. أرسلت له رسالة وأخبرته أن يرد عليَّ برسالة

مشابهة، ولكن كان صمته هو الرد. لقد قلب قواعد اللعبة، واعتبر نفسه هو من يستحق الترضية. كيف لي ألا أرد عليه! لعلها وسيلة مثلى للتملص مني.

عاتبت نفسي قائلة: هي زوجته وأنتِ نزوته، هي شرفه وأنتِ عاره،هي سيارته وأنتِ سيجارته، هي المُعلن عنها وأنتِ الخطيئة المخفية. أفيقي واعلمي مكانتك لديه جيدا.

عبثت بصفحة الفيس بوك وكأنني أبحث عن شيء يهدئ من توتري حتى وجدت منشورًا بقلم (غيداء) بعنوان "لستِ أمه".

حينما تنجذبين لطفل جائع وتكونين حانية عليه، وتعطين له الطعام وتبتاعين له الملابس وتذهبين معه للملاهي، وتكرسين وقتك له من لعب، ومشاهدة تلفاز، وتعليم، وتصبح حياتك مرتبطة به .كل هذا لأن أمه لا تقدِّر قيمته وتتركه دائمًا . ولكن حينما يبكي الطفل مثلًا يكون وقتها محتاجا –حرفيًّا- لحضن أمه .وليس لأي حضن بديل حتى لو كان حضنك أنتِ.

ستربتين على كتفه، وستضمينه بحنان، وقد يكف بكاؤه، ولكن ستظل في روحه غصة ورغبة في حضن أمه .فهي أمه وإن قست وإن أهملت، وإن حتى أنكرت أمومتها.

وهذا الحال عزيزتي المرأة مع الزوج أو الحبيب. قد تفعلين كل شيء وتقدمين كل ما تقدرين عليه من حب، واهتمام، وتقدير، واحترام وخوف على غضبه و..

و..و ...وتجدينه يتركك بلا مبرر، أو يظل معكِ ولكنك تشعرين بأن روحه تهيم في مكان آخر.

اعلمي وقتها بأنك لست الأم التي أنجبت نبض قلبه . لا تلومي نفسك وقتها، ولا تلوميه على عدم مبادلتك المشاعر؛ فالقلوب ليست بيد البشر. ولكن اللوم على نكرانه للجميل، وعلى أنه سمح لنفسه أن ينهل منك فقط ليروي جفاف حلقه .واعلمي أن كل طاقتك المهدرة معه خسارة أن تظل في أرض بور.

في هذه اللحظة استلمت رسالة على الواتس آب من صديقتي، لأدخل في حوار جماعي لمشاركة (ريما) مُصابها، فقد غدر بها حبيبها الذي اتضح للصدفة أنه أستاذ جامعي. هي قالت هذه المعلومة الخطيرة تحت ضغط غضبها، وإثر غدره بها لكنها لم تتفوه باسمه، كأنه عار عليها أن تمحوه من ذاكرتها. أصابت هذه الكلمات قلبي في مقتل، واستمعت بترقب وأنا أخشى حدسي، والفزع يعقد لساني. كانت دقات قلبي قد أخذت في التصاعد، كالحصان الجامح يرسل ركلاته في كل اتجاه، حتى خشيت أن تسمعه عمتي في الغرفة المجاورة، فتهرع تسألني عن حالي. كانت (ريما) تحكي كيف أنه صعب المراس، وكيف أعطى لها مساحة الأمان لتقترب، وكيف وكيف وآهة ألم خرجت من حلقي، فقد كان الألم في موضع قلبي قد فاق المدى.من الواضح أنه عابث محترف، يوهم الكثيرات بعشقه، ويعزف لهن الكلمات نفسها، حتى إذا ما كتب شيئًا على صفحته الخاصة، توقعت كل منهن بأنها قطعًا المقصودة.

وضعت يدي على صدري وأنا مصدومة، "إنها نفس الطباع، حتى الأسلوب، وطريقة التعرف والقرب، إنها واحدة. هل يعقل أن يكون هو! هل كان يلعب بعواطفي أنا وصديقتي فى نفس الوقت، ودون أن تدري إحدانا شيئًا، أم أن الرجال يقولون نفس الكلمات، ويتحلون بنفس الصفات، و يتنافسون على وجع النهايات. هل أحبني في الوقت الذي أحب (ريما) فيه؟ هل خدعني كما خدعها؟" أبتسم ساخرة "وما الضرر في هذا؟ أنسيت أنه خان زوجته معكِ! لماذا تتألمين من خيانته إذن؟" "آه يا قلبي المسكين، يوم أن تحب تحب خائنا"، وجال في مخيلتي صديقتي الثانية (نهال) وهي تخبرنا بأن أحدهم يحاول الاقتراب منها، وهي لا تريد. وحينما سألناها عن السبب أخبرتنا "لأنه متزوج" و (لمى) صديقتي الأخرى، التي رفضت أن تكون معنا في رحلتنا المشئومة، لأن أحدهم سيكون هناك وهي لا تريد رؤيته، حتما يقصدونك يا مازن، ومَنْ لقلب المرأة من كاسر سواك. ألقيت بهاتفي، كما الطفل يبدأ في البكاء متشنجا ثم صرخت في تأوُّه مبالغ، وكأن الروح تغادر الجسد. هرعت إليَّ عمتي فزعة، فوجدتني راكعة على ركبتي أمام الفراش، أمرمغ رأسي في المفرش، وأشهق من البكاء، كأن شيئا لا يُقدر بثمن سُرق من عندي.

- ما بكِ يا ندي؟ ماذا أصابك؟ أخبريني؟

دسست رأسي في صدرها بلا كلمة، شعرت عمتي بكل شيء، ولكنها لم تفهم حقيقة ما حدث.. حضنت وجهي بين يديها: أخبريني يا ابنتي، هل نال منك شيئا؟

قلت بحسرة: نال من قلبي يا عمتي، لم يقطف وردتي إذا كان هذا ما تقصدين.

تنهدت عمتها في اطمئنان: كل وجع مقدور عليه إلا الشرف.

-اغتصاب القلوب لا يقل إجراما عن اغتصاب الأجساد.

-من يبكي قلبك عن عمد لا يستحق الحب، فالحب هنا ليس تاجا تتزينين به، وتتحملين المذلة والألم من أجله، فوقتها سيصبح وصمة عار على جبينك.العشق ليس أمرا رائعا على كل حال؛ فهو ابتلاء نجاكِ الله منه يا ابنتي.

ساعدتني على النهوض، ووضعتني في مخدعي ودثرتني، ونامت جواري، واضعة رأسي على صدرها. لعلها شعرت بالقلق والحزن، فمشاكل القلب عادة ما تدمي الروح.

-أنا بردانة يا عمتي، إنني أرتجف، ضميني بشدة.

ضمتني عمتي إليها بحنان المرضعة على الفطيم، وظلت تمسد على شعري، حتى استكنت سكون الطفل الباكي لنشيد المهد، وغرقت في نوم عميق.

التفتت عمتي فوجدت دفتر يومياتي مُلقى بلا اكتراث على أرضية الغرفة، فتحته حيث موضع علامة القلم، فقرأت ما كُتب.

أنا نطفته، التي علقت على جدار رحم أمي في ليلة ما، وعليه أن يعتني بها قليلا. أعلم أنني في حياته، ولكني لست في قائمة أولوياته.هو يشبه أبي في كثير من الصفات، فتحت له قلبي كأني أعرفه من قبل، كأن عقلي الباطن صور لي أنه أبي، وتخيل أن تعشق الفتاة، من يشبه الحب الأول في حياة كل فتاة.

**وفي الصفحة الأخرى مكتوب**

كالطفلة التى تتشبث بأبيها كنت، وكالأب الذى ينهر صغيرته على جرم لا تعلمه فعلت.

كبكاء الطفلة الهستيرى، الذى لا يمكن إيقافه، سوى حضن أبيها صرخت، وكقسوة الأب الذى يكتظ وقته دائمًا عن الاهتمام بصغيرته تجاهلت. ففى حضنك الوهمي بكيت، ومن مشاعري الواقعية سخرت.

تنتبه عمتي على صوت صراخي حين فزعت من نومي أسأل بهستيريا: ماذا حدث؟

لتجيبني بهمس: اطمئني، لم يحدث شيء؛ كان مجرد حلم.

ردت: بدا لي كالواقع ولكنه مبهم.

سألتني: كيف كان يبدو؟

أجبت بعد برهة كأنني أستعيد شريط الأحداث: أقف على جزيرتي، يقف على جزيرته، بيننا بحر رائق، هممت القفز على جزيرة أبعد فلحق بي، لا أذكر

كيف أصبحت في جزيرته، أمسك يدي ونزلنا البحر وأنا لا أعرف فن العوم، كان سبَّاحًا ماهرًا، مشاهد كثيرة بعدها لا أذكر منها سوى ابتلال ملابسي حد الغرق، وانتفاضة جسدي حد الارتجاف.

تحاول بث الطمأنينة في نفسي: ما يقلقك هنا؟ قد كان حلما ليس إلا!

ردت بشرود: ما زال جسدي ينتفض.

*****

عربدت في جوف مازن نزواته ولم يستطع ردع جموح رغبته، في أن يتنشق لهيب أنفاسي المحمل باشتياقي له، فقد كنت كقطعة الملبن الطري، الذي أنتظر أن يشكلني بيديه كيفما يريد، ليخبرني بأنني ناعمة الملمس وحلوة المذاق، يده تتلمس بشغف خجل تلك الخريطة التي وقعت تحت يديه، الملابس تخبره بأنها تداري كنزا خفيا لم يتطرق إليه أحد من قبل، كنت أنتفض بعد كل لمسة، ووجهي المخبأ في صدره يتموج، وكأنه يزيح الجلد ليصل للأعماق، كنت أريده أكثر مما يريدني، شجعه هذا لأن ينهل ما يستطيع أن يصل إليه، فقد كانت الدماء في أوردته أخذت في التصاعد بقوة وغليان لم يستطع السيطرة عليها، فبدا كوحش يقتنص فريسة، مما جعلني أفيق من نشوة سكرتي، لأفر من تحت يديه بمرونة وسرعة أراه حسدني عليهما. فشعر بالحزن بعد مغامرته غير المنجزة، وأعتقد أنه قضى ليلة مضطربه مليئة بالأحلام الشهوانية والرغبة غير المشبعة.

مازن الوكيل ذلك الأستاذ الجامعي، رجل يعشق النساء حتى وإن كن تلميذاته، فهن فتيات وصلن لسن النضوج الشهي كثمار طازجة تنتظر التهامها، هو لا يستطيع أن يرتفع بنفسه وهو واقف أمامهن ليصير ملاكا، كل ما يستطيع فعله هو أن يبدو رزينا أثناء إلقائه المحاضرة، ومهما قاوم لا يستطيع أن ينسى أنه محاط بفتيات يشععن تألقا ونضارة، إنه يحفظ شكل كل طالبة ومواصفاتها الجسدية، لم يكن يبخل عليهن بابتسامته الهادئة ونظراته الواثقة التي تقتحم القلوب، خاصة أولئك اللاتي يشعر بإعجابهن به مِن تعلق عيونهن به طوال فترة المحاضرة، أو تجمعهن حول سيارته يتضاحكن، أو جراءة إحداهن في الجلوس على مقدمة سيارته بانتظاره، وحينما تراه تبدي اندهاشا مصطنعا بأنها لم تكن تعلم أنها سيارته وتقدم اعتذارها، ومن يتابعن مواعيد محاضراته وأماكنها ليثرن مصادفة رؤيته في الردهة، يسعد هو بهذه اللفتات التي تشي بإعجابهن به، ومحاولة لفت انتباهه والتقرب منه، إحساس يجعله يمتلئ بالغرور وسط زملائه، يحرص على ألا يخسر إحداهن مطلقا، قد يتجنب الطالبة الجميلة لأنها تكلفه في مقاومة نفسه ما لايطيق، فماذا إذا راوده ذاك الجمال عن نفسه؛ فقد كنت أكثرهن جرأة، فأذهب إليه في غرفة التدريس الخاصة به لأسأله عن أي شيء، كانت عيناي دائما متعلقتين به بهيام كعاشقة تستجدي فارسها، كنت أقف قبالته بحجمي الصغير وهو جالس يترقب أحاسيسي المخفية التي تترعرع أمام ناظريه فأظنه كان يشعر بي كامرأة مكتملة الأنوثة، يحادثني حينها بمودة ولين، خاصة إذا كانت الغرفة خالية

من زملائه، كأنه يعطي لي تأشيرة الدخول إلى عالمه. لي عينان تضيئان وجهي بشعاع قوي من نور، حينما تلتقي بعينيه يحمر وجهي خجلًا، مما يجعله ينجذب إليَّ أكثر، وشفتان صغيرتان دوما ورديتا اللون حتى وإن لم أطلهما، وأنف دقيق منحوت، وأريجي اللذيذ كأني حلوى خرجت توًّا من الفرن، أعجب بثقتي بنفسي، فأنا لم أكن عفوية قط؛ إذا نظرت إليه فلأن لديَّ نية مُبيتة، وإذا حدثته فقد خططت مسبقا لما سأتفوه به مما يجعلني مُتقنة لكل ما أقوم به. أحبَّ ضحكتي وأنا أرمي رأسي للوراء حين يصدر منه مزحة عابرة وخاصة إذا ما كانت من إيفيه أحد الأفلام الجديدة، وانحناءة رأسي عندما أصغي إليه، والطريقة التي أتحدث بها، فقد كنت كعصفور الكناريا يسر الناظرين ويطرب السامعين، والحيوية التي تفوح من شخصيتي كفراشة دائمة الحراك لا تمل الطيران. هكذا أخبرني وهو يتمعن النظر في ملامحي حين جلسنا ليلا والقمر شاهد علينا. ما زلت أذكر حين صدمته في عامي الثالث من دراستي دون قصد أثناء صعود السلم فكادت أوراقه تطير فساعدته ليلتقطها وانتهى بنا الأمر أن وقفنا قريبا جدا نضحك ووجهنا على بُعد سنتيمترات قليلة من بعضنا البعض، تراجعت أنا بعيدا.. مرتعبة من أن يشعر بطرقات قلبي. فقلت: "معذرة، أسير سريعا كعادتي" كان وجهه جديًّا إلى حد ما، وكانت هناك حمرة خفيفة تزين خدي شعرت بها، أظن أنه كان مبتهجا باعتقاده الرائع أن هذه الفتاة الجميلة معجبة به "لا عليكِ يا ندى، فقط انتبهي فالتصادم المتكرر قد يؤذيكِ" كانت هذه أول مرة يقول اسمي فيها في وجهي مما جعل

ابتسامتي تتسع، الشعور باسمي في فمه ورؤية وجهه ينظر إليَّ من هذه المسافة القريبة جعلت قلبي يحترق كختم من نار وشمني، وبصبر بطيء ألقى سحره معززًا بذلك ثقتي فيه. أراد أن يملأ ما في قلبه من فراغ ، ويسد بي حاجته للعشق الصاخب، الذي طالما تمناه دون التقيد بأي شيء. شككت في مشاعره تجاهي "علَّها شفقة" فأخبرني بحزم "مشاعري ليست صدقة جارية" فابتلعت الطُّعم سريعا كسمكة ساذجة فاستمتع بطهيي على نار هادئة، وكلما أطفأت دموعي النار

وصرخ الحطب تحتي، عاد ليشعله ويقلبني على الجانبين ليستمتع برؤيتي أنتفض، حتى خبت حركتي وسكنت.

*****

في مقهى البورصة الذي يقع في نهاية شارعنا، كان أبي يرتشف قهوته سارحًا في أحداث مضت منذ سنوات...

- لن أساعدك على قتلها، فأنت لا تعرف شعور الابنة حينما تجد أباها يهيم عشقًا في أخرى غير أمها، وأيضا تجبرها على الإقامة معها كحل وحيد غير قابل للنقاش.

- أثق في حنانك يا رنا، ستكونين لها أما رءومًا، ولن تشعر معك بقسوة زوجة الأب المعتادة.

- من أين لك بهذه الثقة؟ من الواضح أنك لا تعلم عن أنانيتي شيئا، ولا عن كراهيتي لمن يشاركني أحدهم شيئا أمتلكه، حتى لو كان له كل الحق في ذلك.

- دعينا لا نسبق الأحداث.

- بل دعنا نفترق، ومشاعرنا ما زالت باقية على العهد.

- أي هراء هذا الذي تقولين؟ عن أي فراق تتحدثين؟

- فارس، أعقل الأمور جيدا، وضعْ نفسك مكاني. تعلم مكانتك في قلبي، ولكني لن أستطيع أن أصبح زوجة أب.

- رفضتِ أن تكوني زوجة ثانية، واستوعبت هذا جيدا. ولم أتسبب في الطلاق حتى لا تشعرين بالذنب، وحينما أتت الفرصة، وطلبت أم ندى الطلاق ضجرًا من برودي تجاهها، وإحساسها بأن هناك من تحتل قلبي، ولا يفسح لها مكانا واجهتني، ولم أنكر، بل كنت أنتظر أن يأتي طلب الانفصال منها، حتى لا أكون جنيت عليها بأي شكل من الأشكال؛ فمجتمعنا لا يرحم المُطلقة، حتى وإن كانت ملاكا، ويعاملها كشيء مُستعمل، ولا يجوز استخدامه مرة أخرى، إلا في أضيق السبل بالحلال، أو بالنظرة الطامعة لنهشها في الحرام، وقطعا احتياجها العاطفي والجسدي سيجعلها تخضع سريعا، أرادت أن ترد لي الإهانة، فتركت لي ندى لتصبح في رعايتي، وتكون عقبة في طريق سعادتي إذا أردت الزواج بمن أحببت، وأراها نجحت في هذا.

- علّها تركت مسمارا في بيتها، ليكون من حقها العودة في أي وقت تريد.

- لا أظن هذا، فهي قد تزوجت سريعا من أحد أصدقائي، ولا أعلم كيف تم هذا بعد شهور العِدة مباشرة!

– هل غضبت من زواجها؟

– لا، غضبت من زواجها من أحد أصدقائي تحديدًا، وكأنها تنتقم بأسلوبها، فهي تعرفني جيدا، وتعرف أنني لا أحب أن يأخذ أحدهم شيئا امتلكته يوما. ألقي ما أنا في غِنًى عنه؛ قد أهشمه وأسمع تحطيمه، ولا أن أجد غيري يستمتع هانئا به.

– قد أجادت التصويب على موضع الإصابة إذن.

– نعم، فلا تجعليها تنتصر عليَّ أكثر، وتحرميني منك بوجود ندى في حياتي.

– ليتني أستطيع ذلك، ولكن لن أغامر بحريتي معك، حتى وإن كان رغبة منك في الأخذ بالثأر.

– لا تفسري ما قلته حسب هواك. أريد الزواج منك لأني أحبك، وليس لأي سبب آخر. أريد أن يظلنا سقف واحد، وتجمعنا جدران واحدة. أريد أن آتي من عملي فأجدك في انتظاري، أرغب أن أصحو على وجهك يغفو جواري بلا مستحضرات تجميل ودون شعر مهذب. أحب أن تكوني أول من يقرأ ما أكتب وأود نشره. أريدك في حياتي يا رنا.

– أنا أيضا أريدك. أنت الرجل الوحيد الذي استطاع أن يحرك قلبي من سكونه، ويذيب الجليد من حوله، أنت وحدك من شعرت بحدوث شيء ما في داخلي فور رؤيتك أول مرة، مبشرًا بحدوث ارتباط روحي ما بيننا. هل تذكر اجتماع محرري الجريدة والذي جمع بيننا أول مرة، اختلطت الأوراق ولتشابه

أقلامنا، توقعوا أن هذا قلمك ولكن بنكهة أنثوية. ارتبكت أنا وقتها، وأنا أدافع عن قلمي، ولم ترد أنت، واكتفيت بمتابعتي. نظرتك وقتها اخترقتني، وشعرت بأن التشابه ليس في الأقلام فقط، فهناك ما هو أعمق.

- لم أفهم سر انجذابي إليكِ، فأنا أعلم جيدا مشاعري تجاه النساء، ولكنك كنتِ شيئًا مختلفًا، شيء عزيز وغالٍ كالأم. فكيف الآن تروِّعينني بفكرة فقدك.

- ستظل وليدي يا فارس، وإن قسوت عليك ببُعدي الآن، ولكن هكذا الأم قد تفعل أشياء تثير حنق أبنائها دون مبررات مقنعة لهم، ولكنها تقيهم فيما بعد من شرور كثيرة سيعلمونها لاحقًا، ووقتها سيشكرونها عليها.

- لن أشكرك على شيء يا رنا، سأظل حانقا عليكِ ما حييت.

- ستظل ابني، وإن عققت بأمك يا حبيبي.

- حبيبك! هل تريدين ألا أسمعها منك مجددا، بربك يا رنا لا تفعلي، قلبي لن يحتمل فراقك، لم أعلم بقوتك هذه من قبل بين يدي.

-لست قوية كما تراني، فأنا على المحك ولكني لن أغامر.

- أهكذا إذن؟ أضع كبريائي تحت قدميكِ الآن وأنتِ تدوسين عليه، تذكري هذا جيدا.

ألمها رده، وهي تشعر بقلبه ينزف، ولا تستطيع فعل شيء. أرادت أن تضمه إليها، وتربت على رأسه، ولكنها ترددت. خافت من كل شيء، خشيت من لحظة ضعف، مع اهتياج مشاعرهما فتجبرها على البقاء، ثم الندم بعد ذلك، وهي

المؤمنة بأن البتر في أول الألم أيسر من التأخر طالما لا بد منه. خشيت أن يتذوقها فيظل مذاقها في جوفه نارا يحرقه اشتياقا..خشيت أن تدمن رائحة عرقه، وتبحث عنها بعد ذلك في أي رجل تلتقيه، علَّها تشفى من أثر الفراق.

لم تعقب بكلمات، فقط انسحبت بهدوء، تاركة خلفها قلبا ينزف بغزارة، ووجعا داميا بحرارة، وإنسانا ساخطا على جنس النساء بمن فيهن ابنته.

يفيق من شروده ثم يفتح حاسوبه ويكتب مشاعره بافتقاد رنا في رسالة يعلم جيدا أنها لن تصل إليها، فهو لن يرسلها، هو فقط سيضعها في الملف المخفي الخاص بها على جهازه والذي يضم كل مشاعره ورسائله وصورها حتى معرض حوارهما إذا ضمهما منشور عام يوما.

"إليكِ يا ساحرة القلب ومالكة نبضاته، أي تعويذة ألقيتيها عليه فصار أسيرا لديك لا يستطيع منك فرارا، ما يثير خنقي عليه عدم رغبته في التحرر من قبضتك له، كأن السجان هو نفسه صاحب البهجة في حياته، فبربك لماذا يفر؟ ما زلت أضاجعك في خيالي بقسوة كلما ألهبني الاشتياق ولم أجد سوى سراب بين يدي، ولكني أعلم أنني لم أكن لأقسو عليكِ أبدا لو كنتِ بين أضلعي، أخوض مغامرات كثيرة بلا روح ولا أستمر كثيرا، يا سيدة النساء وماحيتهم، أعذر نزار قباني حينما قال: "أشكوكِ للسماء،كيف استطعتِ، كيف، أن تختصري جميع ما في الكون من نساء" وختاما: لكِ مني كل اللعنات والقبلات".

نعم ما زال يحبها ولم ينسها قط. يتابع أخبارها ويعرف عنها كل شيء فقد تزوجت وأنجبت. كم تمنى رؤيتها في الواقع ولكن كرامته تأبى أن يتعثر بها. هو يعلم أنها ما زالت تتذكره كما يتذكرها وأكثر، ولكن الحياة لا تقف.

حين عاد إلى المنزل كان شديد الكآبة، كأن ناقوس الذكرى دق عالمه فجأة..

*****

دع عنك عباءة الفروسية فلم تعد تليق بِك،
فقد رأيتك دونها ووجدت وشم العار فيك
اترك السيف الآن فلم تعد خصمًا شريفًا،
وارجع لجحرك واغتسل لعلك تغدو نظيفا.

أمر على صفحة غيداء الشخصية على موقع الفيس بوك وأقرأ رباعيتها وكأنني أنا الكاتبة، تأتي عمتي لتجلس جواري لتسألني عما حدث في رحلتي، ومن هو الذي أصاب قلبي وتسبب في سوء حالتي النفسية البادية على محياي، أراوغها وأطلب منها أن تحضر لنا مشروب شيكولاتة ساخنًا فتمتثل لرغبتي بعد أن أدركت عبء الحكي على نفسي.

أعاود قراءة ما كتبت (غيداء)..

السيجارة المحرمة

السيجارة فرضت نفسها وبقوة على مجتمعنا. لم يعد يخلو مشهد في فيلم أو مسلسل منها، ولم يعد الأمر قاصرًا على الرجال فقط؛ فالنساء أيضًا بمختلف أعمارهن يتنفسنها باستمتاع.

من لم تدخن مسبقًا، أحيانًا تشتهيها، وتتخيل مدى المتعة التي ستحصل عليها، يثيرها مشهد المدخنين أن تجرب. يظل بداخلها رغبة في التجربة حتى وإن لم تبدها، تحلم باليوم الذي ستنال فيه هذه المتعة، وتتخيله كأنه واقع. تسأل المدخنين عن شعورهم أثناء التدخين، علَّها تستطيع تخيل ما يحدث للجسم وقتها، تعلم أن هناك متعة خفية، وإلا ما جازف أحد - وهو يعلم أضرار التدخين- على فعلها سرًّا أو جهارا. تريد أن تحكم بنفسها، حتى لو تسببت في هلاكها. تنتظر بفارغ الصبر أن تأتي السيجارة المحللة، بدلًا من التلصص والتمني بحسرة.

أما من امتنعت عن التدخين لظروف قهرية، فقد ذاقت طعم التدخين، وعلمت ما كانت تجهله، أصبحت تعي مثلًا، متى يلقي المدخن سيجارته بعد الانتهاء منها، وفي موقف آخر يطفئها. أصبح المشهد يثير شهيتها، أصبحت سريعة الاستثارة، ولحرمانها الإجباري تحاول الابتعاد قدر المستطاع. فإيقاظ الشهوة المخدرة بعد سبات يعني كارثة.

إذا ما داعبت الرائحة يومًا أنفها، في وقت كانت تشعر فيه بحنين، فهذا نذير خطر.

فنقص النيكوتين يثير جسدها للتمرد على هذا الوضع، مطالبًا بحقه الطبيعي في الوجود. وما أكثر أصدقاء السوء حينها! فهم يتمنون لحظة ضعف، حتى يذكروها بمتعة الزفير.

أما من لم تدخن أصلًا، فهي في مأمن عن هذا، قد يحركها الفضول، ولكن إن لم تفعلها فجسدها لن يثور.

تعود عمتي لتناولني مشروبي الساخن، أبادرها بسؤالي عن (غيداء) وأحثها أن تسرد عليَّ ما حدث لها، ترتشف عمتي من كوبها ثم تعتدل في جلستها وتقول:

كانت غيداء كلما فرغت من كتابتها وهدأت قليلا، تجده يعود للمبارزة من جديد، وكأنهما أعداء.

فتكتب متعجبة: "ليته علم بأنه لا قيمة لسيف المحارب بعد انتهاء المعركة. يا من ترفعون راية العداوة بعد المحبة كيف استطعتم فعلها". ثم تنشرها على صفحتها الشخصية.

"تمنيت أن تواجهني كالفرسان لا أن تهرب كالجبناء. لا تزعم قدرتك على المبارزة، وأنت تخشى المواجهة." تنشرها على جروب الجريدة على الفيس بوك.

توقف هو عن كتابة ما يثيرها، لعله انشغل بفريسة جديدة، ألهت قلمه عن التحرش بها.

تراه مُلهِما للكثيرات؛ فهو يقتحمهن بجرأة، ويتركهن في نشوة، ويستدرجهن لما يريد دون أن يطرف له جفن..محترف هو، وغريرات هن.

لقد علمها بأن أكثر الرجال تحدثًا عن احترامهم للمرأة وقدرتهم الفذة على عشقها، هم من يتسببون فى تشوهات وجدانية لها. وكادت تتناسى، وكلما قرأت شيئا تعلم أنه سيروقه، تهم بإرساله إليه، وقبل ضغط زر الإرسال، تتذكر بأنه لم يعد من حقها مراسلته. تنسى كل ما فعل، وتريد أن يصبح لها الحق مجددا في التواصل معه. حتى إن لم يجمعهما القدر.

تتذكر قبل عدة أشهر "من أسوأ المشاعر على الإطلاق حينما أخط شوقي إليك في عبارات محملة بالعشق الثوري، وبالجنون العاصف لقلبي.. وقبل أن أرسلها إليك أجدك كتبت شبيهًا لها، ولكن لأنثى لا تحمل صفاتي".

*****

تتنهد عمتي وتخبرني.. كادت (غيداء) أن تجن وصارت تحادثه بينها وبين نفسها: "قلمك يعصف بكياني، ما زال لديه القدرة على أن يمس شغف قلبي، كأن هذا مكمن موهبته. أحتضن أولى رواياتك، وأراك في كل حرف ينطق به البطل. ليتني قرأتها قبل الآن، فأنا أقرأ كل مشاعري مسكوبة على لسان البطل.. بطل روايتك يجمعنا. ولكن ألم ترتوِ بعد! أبعد كل أولئك الفتيات، الغريرات منهن والمتزوجات، العابثات منهن والغانيات، الثيِّبات منهن والعذراوات، ما

زلت تنهل رحيقهن، وترتشف أرواحهن؛ علك تبرأ من عشقها! البطل يشبهك كثيرا واستحق النهاية، فليحيا معذبا بلوعة الفراق الأبدي من معشوقته.

تستعيد مشاهدها معه، وتتذكر كلماته لها "أنتِ جميلة، فرستي الحرون، كل ماهو منك يسعدني" وغيرها الكثير .. تعاتبه في سرها "أبعد كل هذا تدعي بأنني من راودتك عن نفسك، فاستعصمت. كيف يا فارسي طاوعك قلبك أن تفعل بي هذا؟ هل حبي لك كان جريمة في حق ذاتك العليا، تستحق منك كل هذا العقاب؟ قد أكون ما زلت عالقة في حبل حبك الواهي، ولكنني لن أغفرلك ما حييت. سُحقًا لفراغ جعلك تتملكني".

*****

أسرح فيما تسرده عمتي وأتساءل بتعجب: "كيف يتم تحويل المشاعر بهذه السرعة؟" وأعاود الانتباه وقد بدا على عمتي انفعالها التام بحال غيداء فتخبرني، قد كادت تقبل يدي، وتلح عليَّ ألا أنقل شيئًا من صفحته الخاصة؛ فلا تريد معرفة آرائه السياسية؛ ليس لهزالة فكره أو بذاءه قلمه، فهو صاحب نظرة حكيمة وموضوعية للأمور، وقلمه أكبر من أن يلقي بنفايات، ولكنها بالكاد تمنع نفسها من تتبع أخباره. وتصبر نفسها قائلة: "يوم ما قلبي يبطل يوجعني أول ما طيفك ييجي قصادي هعرف وقتها إني نسيتك".

ثم تنهر قلبها قائلة: "تبًّا لهذا القابع بداخلي الذي ما زال يحن إليه، وينبض باسمه. حبي له، ليس له دخل فيه، وكأن الوجع الآن في تقنين علاقتي الفعلية به، أما عن وضع قلبي معه، فهو لم يكن يومًا له دخل بنبضاته. لعل اقترابنا حدث لأستطيع استئصاله من داخلي، فيكون قرار البتر نابعا عن يقين، بعد كل ما فعله بي. كل ما يكتبه الآن حتى وإن لم يكن لي، يثيرني للحنق عليه، فلتحل عليه لعنتي أينما حل.

أتذكر ما قرأته عن لسان (غيداء) في مذكراتها وهي تقول: "أراه يتشدق، ويسيل، ويزبد من مشهد قتل المتظاهرين بعضهم لبعض، وكيف بأن الدم حرام. فتتهافت عليه التعليقات بكونه فارسًا اسمًا على مُسمى، وبعض من هذا الهراء الذي ينافقه به معجبوه. ليتك أخذت بعضًا من صفات اسمك. وماذا إذن عن قتل القلوب، وخنق الأرواح في الصدور، وتعذيب الجسد بألم الفراق.. هل هذا في شرعك حلال؟".

هناك آلام كثيرة مخفية، ولكنها لا تلقى التعاطف كالجروح الظاهرة، فقط لأنها مخفية. فيظن الآخرون عدم وجودها.. كالقلب المجروح، والضرس المخلوع، والعشق الممنوع.

ولهذا كنت أتجرع خذلاني بصمت. فلا حق لي في الصراخ والتأوه.

تنهض عمتي لغلق النافذة وجلب طبق الفاكهة، وتمد يدها لتناولني ثمرة من اليوسفي ثم تتناول السكين لتقشر برتقالة، وهي تسترسل في الحَكْي.

كانت غيداء تعاود قراءة رسائلها إليه بشوق وتعجب، كيف لمن يقرأ مثل تلك الكلمات، المعبقة بصدق المشاعر وأدق التفاصيل، أن يقابلها بصمت مدوٍّ يصم الآذان. ومع الوقت، وكلما رأت نفسها في كلماته مجرد فاجرة راودته عن نفسه، تشعر بالرغبة في التقيؤ. كيف أن ينبض قلبها باسم كائن كهذا! ورسائلهما المتبادلة، أصبحت تراها كصفيحة القمامة، تخشى الاقتراب منها حتى لا تمسها نتن رائحتها، أو تتعثر بلزوجة قذارتها. وبداخلها تصرخ: "لم تعد رجُلي، فأنا لست فتاة هوى".

ترى نفسها في المرآة تكاد لا تعرفها، ليست تلك هيئتها ولا ملامحها "من أنتِ يا من تنظرين إليَّ في اللوح الزجاجي؟" كرهت المرور أمام المرآة، لكي لا ترى تلك الصورة قدرا، فهي لم تكن يوما بهذا القبح. نعم هي قصيرة القامة، ممتلئة قليلا، شعرها كستنائي مقصوص يصنع دائرة حول وجهها، ولكن لها وجه ذو ملامح متناسقة، مع بشرة نضرة بيضاء، من تنظر إليها الآن ذات بشرة شاحبة تميل للسواد، وكأنها تحيا في ثلاجة موتى. أما عن عيونها السوداء، فقد صارت كثقب أسود لحصان جريح حُكم عليه بالإعدام، فصارت عيناه خاليتين إلا من بريق مخيف، وملامحها كعجوز تخطت الثمانين وكأنها قد بلغت من العمر عِتيًّا،

رغم عدم تجاوز عمرها منتصف الثلاثينيات بعد. هذا الوجع لم تتذوقه من قبل، قد صارت بلا روح.

*****

تكتفي عمتي بهذا القدر من الحكي عن غيداء، وتنبهني لضرورة أن آوي إلى فراشي حتى أستطيع النهوض باكرا لحضور الكلية، أتركها في غرفة المعيشة وأدخل غرفتي ومعي شغفي بما تستشعره غيداء، فأنا أرى نفسي فيها الآن.

فتحت حاسوبي ودخلت إلى مدونتها السرية.. أرتشف من زجاجة الماء وألوك علكة بطعم الفراولة، علَّ توتري يهدأ وأبدأ في القراءة.

"كنت لي ثم لم تعد، أفلت روحي من ثنايا قلبك وأحكمت قبضة الفراق. أستدعيك قبالتي لأسألك: كيف استطعت فعلها، لماذا تماديت حتى انقطع الوثاق وانفرط العقد؟! هل كنت عبئا ثقيلا عليك لهذا الحد؟

ثم أتوقع إجابتك كرجل مهذب يخشى مواجهتي بالحقيقة، فيقول كلمات لا تقنع ساذجة.

فتتردد كلمات قاسية في ذهني: "لم يحبك، لم تكوني سوى حالة لم تكتمل".
وأسأل نفسي المصدومة: هل استطاع نسياني؟ ألم يأخذه الحنين ولو للحظات ليعيد الوصال؟

فترد نفسي بشفقة: لم تشغلي حيزا من تفكيره حتى يجد مشقة في نسيانك.. كنتِ عابر سبيل ليس إلا.

أسال بجزع: وماذا عن كل ما حدث؟

فتجيب بلا مبالاة: لم يحدث شيء، لم تثيري بداخله شيئًا. كانت محاولة لاكتشافك ككائن غريب الأطوار ليس إلا.

_هل انتهى الأمر إذن؟

_لم يبدأ شيء حتى ينتهي.

_وماذا عني الآن؟

_ستكونين بخير، أعدك بهذا.

_هل سر ابتعاده أنني أخبرته بكون وجوده مُهمًّا؟

_يجوز، ولكن لا تشغلي بالك أكثر من هذا، فالنتيجة واحدة؛ قد اختار الفراق بنفس راضية.

_ألم يعد يحق لي مراسلته؟ هل انتهينا بالفعل؟ هل هذا حقيقي؟

_دعك من هذا الآن، رفقا بروحك قليلا، استسلمي للنوم عساه يكون رحيما بك.

تتردد كلمات محمود درويش في أذني وكأنها تتر النهاية "وتركت الذي كان بيننا للنار والاحتراق ..ومضيت وكأنما أعجبك الفراق".

انتهيت من القراءة وأنا ساخطة على جنس الرجال برمته، مع فضولي لمعرفة بقية الأحداث وكيف تجاوزت هذه الأزمة.

*****

خرجت وذهبت إلى معهد الباليه، حيث أمضيت ساعتين أعوض ما فاتني من تدريب، لدى عودتي إلى البيت في المساء، استحممت وأعدت عشاء خفيفا ثم ذهبت إلى عمتي وإزاء إلحاحي خضعت لرغبتي وعادت للسرد من جديد.

كانت تدور معارك داخل لا شعور(غيداء)؛ فقد رأت فيما يرى النائم أنها قرب حافة البئر تقف مترنحة، كأن نداهة العمق تجذبها لتلقي برأسها ثم تستدرج بقية الجسد سريعًا. تعي ما حولها جيدا، بداخلها رغبة قوية في الاستسلام. تقف الآن كأنها مقسومة لنصفين. نصف يخبرها أن تنظر إلى القاع؛ لعلها تجد ما يثيرها، والنصف الآخر يخبرها أن عليها الابتعاد. تنظر للعمق الأسود، متخيلة صورا ملونة وأحداثا وهمية، تجذبها الأحداث. ترى نفسها كـ (أليس في بلاد العجائب)، تنجذب أكثر لهذا العالم الساحر، يداها متشبثتان بسور البئر، رأسها يريد التحرر من هذا الجسد، صوت الأذان ينبه حواسها قليلا أن تعود من هذا العالم، تفيق هنيهة ثم تعود مجددًا، كأنها تحت تأثير مخدر ما، تشعر بالأحداث، ولا تستطيع التحكم في جسدها، تتراقص بين الغفوة والصحوة، صوت الأذان يوقظها، تستمع له باشتياق وعيناها تطلب منه النجدة. تغفو مجددا لترى نفسها في لحظة جنون خلعت درعها، وأزاحت جميع احتياطاتها، وسمحت لفضولها أن يقودها. ارتشفت من كأس الغفلة حتى ثملت، فلم تعد تدرك ماذا تفعل.

حينما أفاقت، وفتحت عينيها أصابها الرعب؛ فقد كانت في مستنقع مغطاة بالوحل والدماء، دون أسلحتها من درع، وقناع، وسيف، وزي واقٍ. شعرت كأنها عارية، مع أن الطين يغطيها.

نهضت مشمئزة من نفسها. تحاول تذكر ما حدث؟ ما هذه الدماء؟! هل قتلت نفسًا بريئة بغير حق؟ لو كانت فعلتها، فلابد أن الجثة فى مكان قريب. "عليَّ الاغتسال أولًا، فلا أتحمل جسدي هكذا" هكذا فكرت. وجدت بحيرة قريبة اقتربت منها، رأت وجهها شاحبا تعلوه الجروح، وثيابها ممزقة وقميصها مصبوغا بالدم. جلست على حافتها تتحرى طهارة الماء، وجدته نظيفًا يستطيع إزاحة ما علق بها. ملأت كفها بالماء، ووضعته على ذراعيها، كمحاولة أولى للاغتسال، ولكن الطين كان عالقًا بجسدها ولا يكفيه بضع قطرات لإزالته؛ فنزلت للبحيرة. أخذت وقتا ليس بالقليل لإزاحة ما بها، وفي كل طبقة من الوحل يتم إزالتها، تجد الماء يتلون بالأحمر. أيقنت أن الدماء كانت جراء نزفها، وهنا تذكرت، فحالة السُّكر جعلتها تدمي روحها دون أن تشعر، ولذة النشوة خدرت مركز إحساسها، فلم تشعر بوجع مصاحب لهذا النزيف. "بربك ماذا فعلتِ بنفسك، يا لعاري فقد دنست جسدي!" تخبر بها ذاتها.

تنظر مليًّا للبحيرة فترى صورتها لأول مرة دون ملابسها الرسمية، وأكتشف أنها ما زالت أنثى، وأن زي المحاربة الذي ارتدته منذ سنوات أنساها هذه الحقيقة، ولحظة الضعف التي حلت بها هي ما تسببت فيما هي عليه الآن.

ترى صورًا مشوهة غير مكتملة الأحداث. ترى ذراعيها آخذة وضع العناق. تختفي الصورة، وتظهر أخرى، ترى رأسها ساندة على شيء ما، مع ابتسامة حالمة وعيون مغلقة.

تغمض عينيها بقوة لعلها تستعيد المشاهد كاملة، ثم تضرب الماء بكف يدها بغيظ.

"ما هذا الذي أراه؟ وما الذي فعلته! وهل كان أحد يشاركني هذه المشاهد، أم أني فعلتها وحدي؟ وهل هي حقيقية بالفعل، أم أنها من آثار هلوسة ما شربته؟ حقًّا لا أدري.. تسأل نفسها بفزع.

رأسها سينفجر من التفكير. ترى نفسها جالسة في الوحل على ركبتيها لا تنطق.

تختفي الصورة. صرخة رأتها، وخرجت من حلقها، ثم انتبهت على صوت ضحكة ساخرة. التفتت لتراه واقفًا، عاقداً ذراعيه أمامه سائلًا: ماذا تفعلين؟ هل تتوقعين أن ماء البحر سيطهرك ويعيد نقاءك.

-كيف تجرؤ على التحدث معي هكذا؟ وكيف تقتحم خلوتي؟ أنسيت من أنا؟

أجابها ساخرا: أنسيت أنتِ أين أنتِ الآن؟

قالت بغضب: هل تشمت بي؟ انتظر قليلًا حتى أعود لوضعي الطبيعي، وسألقنك درسًا لن تنساه.

نظر لها باستخفاف قائلًا وهو ينصرف: لن تعودي كما كنتِ، فقناعك الزائف نزعته عنك، وقوتك المزعومة خرَّت ساجدة بين يدي.

- إذن أنت من سولت له نفسه بإلقائي في الوحل، يا لك من وغد حقير!

كان قد انصرف فلم يسمع ما قالته، أو لعلَّه استمع وتجاهل، فقد حقق مبتغاه، وكسر أنف المحاربة، التي كانت بالنسبة له مجرد صورة وهمية لا وجود لها".

كانت تصحو (غيداء) من نومها فزعةً، باكيةً، ترتجف خلجاتها، كأنها خائفة من شيءٍ ما، كوابيسها لم تصمت، فبعد أن كانت تتمنى رؤيته في منامها، أصبحت تستيقظ بإحساس من كان يصرخ، باتت كارهةً لذاتها، تدعو عليه بكل ما أوتيت من وجع. وتستمر كوابيسها كواقع تحياه، حتى أنها كرهت أن تنام كي لا تراه، كأنه لم يكتفِ بإهانتها على أرض الواقع، فيأتي لها خصيصًا على أرض الأحلام، ليؤكد كل ظنونها وشكوكها، بأنه لم يحبها فقط، بل أيضًا لم يرَها سوى مجرد هباء، لا يستحق سوى أن يُزاح أو يُمس بسوء ليُمحى.

الشعور بالعار، كان هو المسيطر الوحيد عليها حتى أثناء نومها، فقد تعرت روحها من لباس الحشمة، وتعرت مشاعرها بين يديه فصارت موشومة بداء العار. لعله حرمان السنين، وكبت أرضها الجدباء، التي كانت تنتظر ولو نقطة ترويها، بعد تشققها من الجفاف حد نسيانها أنها أنثى. كحال صائم ينتظر مدفع الإفطار منذ سنوات، وهذا ما جعلها تظن أنه مبهر؛ فلم يسبق أن تعامل قلبها مع سواه، أو لعلها قارنت بينه وبين طليقها فربح المقارنة بجدارة، رغم أن طليقها كان قطعًا سيخسر في أي مقارنة، حتى لو كان المنافس "دكر بط".

اتجه غضبها ضده إلى غضبها تجاه نفسها، وبدأت تحس بالندم. تتقوقع على ذاتها حد الانكماش محاولة الاختفاء عن عيون العالم الخارجي؛ رغبة منها أن تمد لنفسها الأمان الذى تحتاج إليه.

*****

عدت من السيرك بعد زيارتي لحمزة وأنا متلهفة لسماع بقية الحكاية، استقبلتني عمتي تحثني لتناول الغداء أولا ثم يأتي موعد السرد وقت تناول الشاي والكيك.. وأخيرا بدأت.

ما زال القلم ينزف، وما زالت الورقة تئن. كان نبضها يثور كالمظاهرة، وهي لم تجرب مطلقا غضب الثورات، وعلمت حينها أن الثائر الحق لا يرضيه إلا أن يتحقق مطلبه، أو يموت دونه.. إذن فليستعد لثورتها الهادرة، وليتحمل

عواقب اقتحامها لمدينتها الآمنة. ستبارزه بقلمها؛ نفس السلاح الذي مزقها به سابقا. يعلم جيدًا بأن خصومتها شريفة، ولولا علمها بأنه سيقرأ؛ ما كتبت.. حالة الحب: كحالة السُّكر لا تدرك أفعالك إلا بعد الإفاقة وتكون بطريقة مشوشة، لا تتذكر متى ولا كيف! ولكنك تدرك بأنك فعلت شيئا، لو كنت في كامل وعيك وقتها ما فعلته.

أصبح في عينيها كطاووس انْسلَّ ريشه الجميل فرده القبح دجاجة. ولهذا فهي تتبرأ الآن من إحساسها به الذي قد كان يومًا، وقد أقسمت حينها بوجعها أن تنزفه بقلمها لآخر قطرة، وها هي المحبرة قد أوشكت على الجفاف.

تحاوره داخلها قائلة: "إنها فسيلتك التي زرعتها في روحي، فانظر ماذا أثمرت. ولا تلمني إذا ما كان الحصاد مشوهًا. فقد أحرقتني بقربك، وأنا الزنبقة الندية، فلا تتأفف من وريقاتي المهترئة.

وقبل هذا، عليَّ أن أرجع إلى خالقي نادمة، تائبة على ما اقترفته بحق نفسي. فمن للقلب الحزين سوى الله. أنت الذنب الذي كسرني وجعلني أعود لربي، والقلم الذي نبهني من غفلتي، وخطيئتي الكبرى التي تذوقت بها أنين التائبين. وهذا أهم سبب يجعلني أشكرك كثيرًا.

أولًا: لأني معك تذوقت حلاوة اسم الله التواب.

ثانيًا: لأنك بيدك كسرت الصورة الضخمة التي كانت تزين وجداني، فقد كنت أقيم من يتقدمون لِخطبتي من خلال وضعك معهم في مقارنة، والتي كانت

دائمًا في صالحك.

لم يكن يجرؤ أحد على التقرب من برواز الصورة، كنت أحرص على رؤيتها يوميًّا لأتلو عليها صلوات الرهبان. حينها تم نزعك من داخلي، ونجوت من العيش في دوامة هذا البرواز.

وأتخيله يهمس في أذني "ليس لكِ توبة يا عاهرة"..

إنك كشيطان تجسد في صورة إنسان، ليتسبب في سقوط الرهبان، ويغلق في وجوههم باب الغفران..لن يألم من كانت سقطته سببا في صعوده درجات علا، وسيندم من كانت سقطته للدرك الأسفل بلا رجعة.

وددت لو اقتلعت نفسي من ذاتي، لأسحبها من شعرها، وأضرب رأسها في سِن حادّ، حتى النزيف، ثم ألقي بها على الأرض، وأبرحها ضربًا و ركلًا، وأنهرها على فعلتها الشنعاء.

كيف جرؤتِ على عصياني، كيف تمردتِ على قوانيني، لماذا يا نفس خذلتني.

ماذا أفعل بكِ الآن؟ قولي بربك أي عقاب تستحقين، أي جزاء ستنالين، بمن استهنتِ! ومن أجل من؟ هل نلت مرادك من الخزي المرجو، هل العار ما كنتِ تريدين الوصول إليه.

"في القلب حنين لخشوع الساجدين وآهات التائبين"..

تعلق عمتي قائلة: "عادت إلى الله منكسة الرأس، محنية الظهر،لا تقوى على رفع عينيها للسماء، صارت تنتظر أوقات إجابة الدعاء، لتدعو الله بالعفو والغفران. تسجد باكية، وقلبها يتمزق من الندم".. وتابعنا قراءة ما جالت به نفسها.

"لم أقصد معصيتك يا الله، أردت فقط أن أشعر بأنني ما زلت على قيد الحياة. فاغفر لي يا الله سيئاتي، وذنوب خلواتي، وامحُ اللهم عثراتي، واعفُ عن زلاتي.

اللهم نقني وطهرني وتجاوز عن غفلاتي. فاقبلني يا رحيم وتغمدني برحمتك، وكن لي عونًا على نفسي، ولا تشمت بي الشيطان".

تؤكد عمتي.. ظلت غيداء تناجي الله في كل وقت: "إنني نادمة يا الله على كل شيء، ليتني أنبض استغفارا، ربنا ندعوك دوما في صلاتنا بأن اهدنا الصراط المستقيم، فاستجب كما وعدتنا، واجعلنا من الذين أنعمت عليهم".

يا الله، قد كنت أشتاق لعناقه، وانتظرت كثيرًا هذا الحضن الحلال، إلى أن زهدت رغبتي، واكتفيت بوسادتي. كل الرغبات يكون لها بديل بشكل أو بآخر شريطة أن تقتنع به وترضى، إلا لذة قربك لم أجد لها بديلا، عجز لساني، وخذلني قلمي في التعبير عن شوقي لطاعتك.

القرب منك راحة ليتني أنالها من جديد، والبعد عنك شقاء، ليته يفارقني فأنا منه زهيدة.

أشتاق إليك يا ربي فردّني إليك. ببعدك فقدت روحي، فهبها لي من جديد يا الله، حتى أحيا معك، ولك، وبك. فقد بلغ اشتياق الروح حد البكاء، وأصبح الدمع كسيل منهمر، واقتلعت السعادة كجذر منقعر، وبات القلب كصعيد منصهر.فهب لي من لدنك رحمة، وأؤمر بعودة الروح للجسد؛ لنسبحك كثيرا، ونذكرك كثيرا، إنك كنت بنا بصيرا.

إن عجزت عيني عن البكاء، فلن يعجز قلبي عن الدعاء؛ فدموع الندم تطهير للنفس حتى وإن استعصت. أعوذ بك يا الله من فراغ يجعلني أعصيك فيه. يا لبئس معصيتي، لو انتصر شيطاني وصار يضحك على خيبتي، ويا لنعم توبتي لو تقبلتني، واحترق الشيطان كمدا، وغيظا، وصار يصرخ من طاعتي.

"حينما تشعر بأن صدرك لا يطيق، فاعلم بأن رحمة الخالق لن تضيق".. تنشرها على صفحتها.

"إني إلى الله راجع" كانت ترددها دائما. وظلت هكذا، حتى شعرت بانشراح صدرها.

قد أيقنت أن الاختبار الحقيقي للاستقامة، أن تكون المعصية مُتاحة، وأنت تمتنع عنها قائلًا:

"إني أخاف الله" لئن تزل قدم بعد ثبوتها لهو تصدع ينذر بسقوط مدوٍّي، وأن علمك بالذنب حين اقترافه لهو كارثة، وندمك بعده وتيسير سبل التوبة؛ لهو رحمة، فما بالنا برب يعصيه عباده، وهم على علم بما يفعلون، ثم حينما يستغفرون يتقبلهم، ويعلمهم خطوات التوبة، بل ويفرح بعودتهم وإنابتهم ويبدل سيئاتهم حسنات. "الحنين إلى الله أسمى معاني الحب".

وتكتب على صفحتها:

الحزن وطن يستقر بداخلنا، والسعادة استراحة طريق اجعل الأزمات التي تمر في حياتك وسيلة دعم لقوتك الداخلية، ومدى استعانتك بالله، و ابنِ من الصخورسلالم ، واصعد من خلالها بشخصيتك لتصير أنضج وأقوى.

كن كالحديد تصقله الضربات.

ففي كل أزمة تمر بها، ستتعلم الكثير، وستقودك إلى مرحلة جديدة ومختلفة. فالأزمات تعني تجارب جديدة، وخبرات حياتية وفيرة، تم وضعها في ملف تكوين شخصيتك.

تنهي عمتي قراءتها لمقال (غيداء) وتخبرني أن مشاعرها الداخلية تجاه نفسها قد تم تبديلها فباتت تقول لنفسها: "أنا العابدة الزاهدة، التي أغواها الشيطان، ثم ندمت، وتابت، وعادت إلى بارئها، ترجو عفوه وتطمع في غفرانه، فلا تغتر بطاعتك، فقد يرين الله على قلبك فتصبح من الغافلين.

أسترجع التاريخ على مدونتها الشخصية لأرى ماذا كتبت حينها، فأجد: "حب ربي الآن يغمرني، والحمد لله تملؤني، ورحمته تشملني؛ فقد صرت أنام بعمق، شاعرة بالأمان والدفء، وعاودني اطمئناني الداخلي وهدوء نفسي، حتى بت أشعر بحلاوة مذاق التوبة، وكأنها أشهى من ألذ حلوى تذوقتها في حياتي. سبحان من أخرج حبه من قلبي! نعم يا فارس، أنت ذنبي الوحيد، الذي أتمنى أن يُمحى من صحيفة أعمالي، ولا يواجهني الله به، فبسببك كانت نكبتي في ديني، وأنا الطاهرة التي لم تكن بغيًّا يوما.. كنت لى كحامل الكير، الذى لفحنى سوء رائحته، وسواد عوادمه.، كأن الله أراد أن يطهرني منك، فأحرقني بلهيب قربك، ليعود قلبي نقيًّا خاليًا من أي شائبة تدنسه، ولو حتى بمجرد إعجاب بريء. ومع الوقت اكتشفت بأن حبك كان مجرد نزوة كرصاصة عابرة خدشت القلب ولم تستقر فيه. ولأنال الشفاعة، أقسمت على ربي أن يريني علامة، إذا ما تقبلت توبتي حقا.. وها أنا أنتظرها".

"فقد علمت أن الله سيثأر لها فاطمأن قلبها" أنشرها على صفحتي وأتنهد في ارتياح.

أقبل أبي علينا مُلقيا السلام، فردت عمتي مبتسمة، وكأنه ليس هذا الرجل الذي كسر قلب إنسانة لم تؤذه في شيء، ولكن لا لوم على أحدهما. غيداء ملهمتي وكأن رسالة نزيفها، مفادها "بعد كل سقوط نهوض.. وبعد الظلمة دايما نور".

تعرف إيه عن عشق الروح..

تعرف إيه عن روح بتروح..

لو بس حبيبها كان مجروح..

أقتبسها من قلم (غيداء) وأنشرها على صفحتي الشخصية ثم أتابع مشاركة (مازن) على جروب الكلية على الفيس بوك، وأجده يتعامل بطبيعته المعتادة، كأن لا يوجد شيء يؤرقه، أو يشعر بالذنب تجاهه، وخاصة أنه يعلم أنني قطعًا أبصر ما يفعل.

"هل تعلم بأني لا أكحل عيني.. أفضلها هكذا كما خلقها ربها بريئة طاهرة، و الآن تكحلت، حتى أبكيك سوادًا تحفره دموعي على وجنتي؛ فالخطيئة عليها التوشح بالسواد.

أرى دائمًا أن الدموع تغسل الوجه، وتعطيه بريقًا بريئًا خاليًا من أي دنس، فالدموع الشفافة، مع احمرار الأنف والعين تضيف جمالًا لا شك فيه. ماذا إذن عن الدموع السوداء، فهي تلطخ الوجه وتجعله بشعًا مثيرًا للاشمئزاز.

هذا ما فعلته بي؛ ولهذا أريد رؤية فعلتك هذه، حينما أنظر إلى وجهي بعد البكاء، وسأقوم بتصويره وقتها، وسأضعها أمامي دائمًا، حتى أرى كيف أصبحت معك".

التقطت صورة لوجهي الباكي، ودموعي السوداء المنحدرة على وجنتي وأرسلتها له.

استقبل الرسالة ولم يرد، بل ظل يشارك في الحوارات المدارة على الجروب، يمزح ويضحك بلا اكتراث، بل وقام بتغيير صورة بروفايله لصورته مع طفلتيه.

فأرسلت له مجددا: "من الصفاقة أن تتسبب في وجعي، وتظهر لي مدى استمتاعك بحياتك على هذا النحو".

فكان رده سريعًا: "أقسم أن أجعل رسائلك سيفا أجرده فوق عنقك، إن حاولتِ العبث معي".

استلمت رسالته في صدمة عارمة، جعلتني لا أستطيع الحركة، وكأنه صفعني على صدغي صفعة أعمتني مؤقتا، وما زال رنينها في أذني يدوِّي بحدة.. هل أحببت رجلا يتاجر بأسرار النساء ويهددهن بها؟ يا لي من حمقاء! لو لم يكن عنق إرادتي تحت قبضة قلبي، ما استطعت دق كرامتي على عتبة نرجسيتك و شرفات غرورك. لقد وضع في عيني للحب دموعا، وغمد في فؤادي من اليأس خنجرا.. قسمًا لن أغفر.

عذبني الهلع والقلق طوال اليوم وتذكرت كلمات (غيداء).. "لو أحبك لتذرع الحجج لمحادثتك، لأدمن تفاصيلك وعشق انفعالاتك، لأراد أن يقتسم عمره معكِ، ولحظي بصحبتك مدى الحياة، فقط لو أحبك".

تحولت بكليتي من الرجاء والوجع، إلى الغضب والقساوة، القلق والغضب يغليان في قلبي غليانًا ويبحثان لهما عن مخرج، وصرت كنمرة فقدت وليدها ثم صرخت:

يريد أن يجعلني مثلًا قبيحا على الألسنة ومضغة مُرة في الأفواه، وماذا عن اسم والدي (الأستاذ) هل يريد أن يدنسه بي أنا، ابنته الوحيدة رمز شرفه!

وكتبت على صفحتي:

"أهدته قلبها فطعنها بقسوته، ولم يهدأ له بال إلا بعدما أدمى مضغتها بين يديه، وحينما تناثرت القطرات الحمراء على وجهه.. ثار، وهاج، وأشاع على الملأ كم هي حقيرة، أما علمت بأن متعته في ساديته".

ثم كتبت مُجددا: "كالزجاج أنا؛ فاحذر من كسري حتى لا تصيبك شذراتي".

*****

كيف لم أنتبه أنه كان يمارس هوايته المفضلة على روحي، كان يكره ثبات العناصر؛ فيعبث به بريشته حتى يبدل ملامحه، كانت أصابعه لا تسكن لحظة، يرسم على لوحة بيضاء، كما يرسم على الهواء، أو على أرض ترابية أو رملية، وكأن جُلَّ حياته أن يترك بصمة للزمن تخبر المارِّين بعده بأنه كان هنا يومًا.. ولأنه يكره الرتابة، فإذا مر بلوحة رسمها سابقا، عليه أن يغير حالتها، حتى وإن تسبب في فسادها، كالطفل هو، يهوى العبث على الجدران ، يتصرف كما لو كان مراهقا طائشا، مزاجه متحول، سريع الملل، لا يبقى على شيء واحد فترة طويلة، ولكن هل قلوب الفتيات بالنسبة له مجرد قمصان يبدلها حسب حالته المزاجية! يا له من وغد.

هذا ما علمته حين اقتربت منه. كان في نظري دوما رجلا بما تحوي الكلمة من معانٍ. ليتني ما اقتربت، وليته ظل في عينيي رجلا.

لا تقيم المرأة علاقة مع رجل متزوج إلا بموافقته، فهو الخائن وليس أنا. فلم أكن على ذمة حبيب أو زوج. فقلبي خاليًا، إلا من فتات وجع قديم متناثر في الأطراف، أما عن خيانة ثقة أبي، فلولا تجاهله، وانعدام حنانه ما اقتربت من أحدهم. فإذا كانت الفتاة مشبعة نفسيًّا من أول رجل في حياتها "أبوها" لا تخشى عليها، فهي لن تلقي نفسها في بئر، اعتقادا منها أنه قد يروي ظمأها للحنان، أما إذا كان الأب بعيدا رغم قربه الجسدي، فستصبح سهلة المراس لأي عابر سبيل، يغدق عليها بكلمات مخادعة لينال مراده، وتجني هي العار من بعده.

فعلت كل شيء وحدي. عايشت مراهقتي وحدي، وطفولتي لم أشعر بها، ولا أتذكر منها شيئا. كنت واثقة من أن أبي لن يتيسر له الوقت لمتابعة ما أفعل. كنت أحلم بمن يشاركني وحدتي تلك. حتى (حمزة) صديقي الوفي، ليس بشريًّا يسمعني، يتفاعل معي بوجهه دون كلمة مفهومة، فقط أحس بما يريد قوله.. وحينما ظهر مازن ليعرض عليَّ مشاركتي في الرقص، والرفقة في السفر كان حقا على قلبي تلبية النداء.

ولكن لماذا أراد أن أصبح لوحة من لوحاته، أما كان يكفيه ما عنده. لم يهنأ له بال، إلا بعد أن لطخ لوحتي البيضاء بسواد حبره.

ليته لم يسكب بقعة سوداء مطموسة الملامح، ليته أزاحنى جانبًا دون اكتراث، ليته كتب جملة أتوشم بها بفخر، ليته سطر أحرف الوداع، ليته تركني ورقة بيضاء.

آه يا قلبي المحروم ويا روحي الظمأى، تبًّا لمن استمتع بلهفة الحيارى، وبأنين السكارى، وسُحقًا لمن أراد اللهو بجسد العذارى، وبشرف البكارى.

مرت ساعات ولم أفعل شيئًا جديًّا ولم أجد ما يهدئ نفسي، كدت أن أمد يدي لإيقاف الحاسوب إلى أن طرأ في ذهني نص لرسالة أخيرة إليه.

"سترقص على أشلائي أعدك، وأنا لا أخلف الوعد مثلك. ستكون ليلة صاخبة لم تشهد مثلها ولن تشهد، سأسمح لك بالعبث بجسدي، وسأجعلك تغرس إبرة الوشم، لتنال مرادك، وتتلذذ بقطرات دمائي، وهي تخضب روحي المهدرة، سأرقص كالطير المذبوح، أعلم أن هذه الرقصة تثيرك، ولكني أحذرك أن تتناثر عليك دمائى فتغضب. سأساعدك على خلع قناع الفروسية لتصبح بحريتك دون زيف، أريدك على طبيعتك الذئبية، كما سأكون على طبيعتي الزومبية.

لا تنزعج مما سأصير عليه، فهذه رغبتك وقد حققتها لك، لا تنتظر ظهور أنيابي، فلست مصاصة دماء، لا تخش شيئًا يا صغيري فلن أؤذيك. فقط سأقضي معك رقصتنا الأخيرة، فهل تقبل؟" أرسلتها إليه.

ردَّ عليَّ بصرامة، وتهديد واضح بأن أرحل عن سمائه بلا رجعة "فمصير مستقبلك الآن معي على المحك، إذا أردتِ الحفاظ على تقديرك والتخرج سريعًا، فارحلي بهدوء حتى لا أجعلك تندمين".

وتتوالى صفعاته على صفحة قلبي...

*****

رأيت فيما يرى النائم أن مازن يجلس في المرسم أمام إحدى لوحاته، ويحاول تقييم كل ما حدث بينه وبيني في حوار داخلي مع ذاته.

"كادت أن تستسلم لولا تهوُّري، فابتعدت فترة لأطهي شوقها على نار هادئة.

عدت إليها بعد يومين لأجد لهفة قلبها في انتظاري. كان ما بيننا مختلفًا؛ شد وجذب وحوار لا ينضب، ورغبة متأججة على وشك الاندلاع. وفي لحظة طيش فلت قلبها من يدي، فعلمت باستحالة رجوعه إلى سيرته الأولى من ضعف واستكانة معي مهما فعلت، فابتعدت.

ثارت، وهاجت، وأطاحت بكل شيء وعزمت أن تنتقم.

بعد أن استخلصت قليلا من المتعة راح الملل ينفذ إلى أعصابي بدلًا من التسلية، كدت أصدق نفسي أنني أستمتع؛ حين داهمتني لهفة غامضة فخضعت لها، ولكنني من خلال تجاربي كنت أعلم بأن الأمر لن يستغرق طويلًا لأزهدها تمامًا وكأنها لم تكن، وافتتاني بها قد واراه السحاب.

معرفة زوجتي بما حدث أربكني، وأفقدني شغفي بندى، فلن أهدم بيتي، أو أفتعل مشاجرة مع زوجتي من أجل نزوة عابرة مهما حدث، لم تواجهني زوجتي حينها بشيء، ولكن نظراتها فعلت، وتجاهلها المتعمد للموقف برمته، واهتمامها المبالغ بي بعدها، جعلني صغيرا في عين نفسي.

اكتفيت وقتها بالصمت، علّها تفرغ طاقتها وتصمت و لم يحدث.

فأطلقت سهام غضبي عليها، وطعنتها في شرفها وأخلاقها، واتهمتها بكل ماهو فاحش، وهددتها إن أثارت جلبة أخرى سأفعل بها ما لم يُفعل، فأجدها تصمت برهة ثم ترد بسخرية.

فابتعدت نهائيا عن محيطها؛ فهي لا تخضع لتهديد.

وأنتظر أن تأتي بآخر ما عندها. وأعلم جيدا كيف أجعلها تصمت وتضع رأسها في الأرض".

*****

جلست عمتي أمام أبي وهو مندمج فيما يفعله على حاسوبه المحمول، لتقطع عليه خلوته قائلة: ندى صورة طبق الأصل من أمها، لعل هذا ما يقف سدًّا بينكما؟

رفع رأسه تجاهها ناظرا إليها قائلا: لا تبالغي، فندى ابنتي ولها كل الحقوق.

-ولكنها لا تأخذ من حقوقها هذه شيئا، اهتم بابنتك قليلا، فهي في سن حرج وتحتاجك.

أغلق الجهاز أمامه وانتبه بقلق قائلا: ماذا حدث؟ هل يوجد ما يدعو للقلق؟ صارحيني.

أجابت بنظرة ذات مغزى:- إلى الآن لا يوجد شيء، ولكن ابنتك تحتاجك، فلا تجعلها تبحث عن صورتك المفقودة بداخلها مع أول شاب يصادفها.

هنا فقط انتبه "لقد كبرت صغيرتي، وصارت فتاة تغري أعين الرجال للاقتراب منها".

ذهب إلى غرفتي فوجدني أمام حاسوبي المحمول، نظر إليَّ بإمعان وكأني نضجت في غفلة منه، اقترب منِّي. حينها انتبهت له فأغلقت الحاسوب قائلة: أهلا أبي، هل تريد شيئا؟

-لا يا حبيبتي، فقط أردت الجلوس معك والاطمئنان عليكِ.

-حسنا، أنا بخير. وأقول في نفسي: "هذه المرة الأولى التي أسمع فيها كلمة "يا حبيبتي" منك يا أبي، لكنها ماسخة بلا طعم، كأنك بذلت جهدا خرافيا لتقولها لي، ترى ما سبب سؤاله عن حالي الليلة؟ هل إحساسه بي كأب جعله يدرك أنني في خطر؟ حتى رائحته الليلة لم يفح منها عطر امرأة، مُكتفيًا بعرقه المميز عطرا له؛ فمعجباته بعد تحرره بالطلاق في ازدياد مستمر. لا تمر شهور إلا وتتغير رائحة عطر النساء في ثيابه. أتساءل كثيرا ترى من الخائن حقًّا أمي أم أبي؟ أمي بطلبها للطلاق وزواجها من صديقه، أم أبي وتعدد نزواته؟ إذن لماذا دومًا

يعتبرها خائنة؟ هل لكون رجل آخر امتلكها بعده وصارت زوجته وهو اعتبر هذا إهانة شخصية له!

قطع حبل هواجسي سؤاله لي قائلا: ماذا تفعلين؟

-لا شيء، كنت على وشك النوم..

تردد قليلا قبل أن يستجمع كلماته، ثم اقترب، وجلس قبالتي قائلا:

أريدك أن تعلمي أنك أغلى ما في حياتي مهما بدوت لكِ مقصرًا، وأنني لن أسمح لمخلوق أن يسيء إليكِ طالما أنا على قيد الحياة، لا أريدك أن تخشي شيئًا، أو تخجلي من سؤالي عن شيء. أعلم أن عمتك تفعل ما بوسعها، وأرى أنكما بمثابة صديقتين، ولكنني أطمع أن أكون أبًا صديقًا.

تظهر على محياي علامات من التعجب، لا أستطيع أن أترجمها لكلمات منطوقة. الدهشة هنا هي سيدة الموقف من جانبي، أهز رأسي مبتسمة، يقترب منِّي ويقبِّل رأسي. سأكون هنا دائما لأجلك.. قالها وانصرف.

لم يمنحني شيئا من وقته قط، قد يمنح ولكن بعد فوات الأوان، وقد يمنع وهو في الغالب يفعل.

تمتمت دامعة: كم تمنيت أن تعانقني لا أن تقبِّلني، فلأن تبكي على وسادة حنونة من الأضلع البشرية لهو راحة للنفس المعذبة، أن تغوص بداخله وكأنك تختفي عن العالم المحيط، أن تتدثر بضلوع صدره لعل صقيع روحك يدفأ وأنين وجعك يهدأ. ليتك ضممتني لصدرك يا أبي.

*****

في صباح اليوم التالي تقدم أبي إلى غرفتي لإيقاظي- على غير العادة- كأنه يبرهن لي بأن هناك حياة جديدة مختلفة تنتظرنا معًا.

- هيا استيقظي أيتها الكسولة لنتناول الفطور معا.

لم أصدق أذني، وظننت أنني أحلم، لكني وجدته أزاح عني الغطاء وفتح ستائر النافذة لأجد أشعة الشمس تتراقص بين أوراق الشجر، كما كان يفعلها معي وأنا طفلة قبل أن تتركنا أمي. ابتسمت للذكرى الماضية وفتحت عيناي في دهشة: صباح الخير.

- هل عليَّ انتظارك كثيرًا أيتها الفتاة الجميلة.. يقولها مُداعبا شعري الهائش.

-سأبدل ملابسي وألحق بك. قلتها بابتسامة باهتة.

-لن أتحرك من هنا سوى معكِ، هيا اغتسلي وبدلي ملابسك في الحمام، وسأنتظرك هنا لنفاجئ عمتك التي راهنت بأنني لن أستطيع إيقاظك.

خرجت من فراشي وأنا أفرك عيناي، مبتسمة بسخرية ولم أعقب. ذهبت لأغتسل وفي نفسي أقول: أهذا الأمر إذن؟ مجرد رهان بينك وبين شقيقتك ليس إلا، لن تتغير يا أبي ستظل تهوى التحدي دون مراعاة لمشاعر الأطراف الأخرى، ليتك كذبت عليَّ بأنك اشتقت إليَّ .

انتهز فرصة خروجي من الغرفة ثم اعتدل على السرير ومدَّ يده تحت الوسادة ليتناول هاتفي المحمول،استخدم الرمز السري الذي استخدمته أمامه

يوما دون حيطة، انفتح الجهاز فدخل سريعا على برنامج المحادثات ليعلم تفاصيل المأزق الذي وقعت فيه وإلى أي مدى وصل الأمر. لم يخف على نفسه توجسه مما قد يكتشف ولم يمنع جسده من التعبير عن القلق، من حسن حظه كانت أول محادثة في القائمة فضغط عليها وعلم بكل ما حدث. كوني أقع تحت تهديد حقير. شعر بنار تخرج من جميع جسده وهمَّ بأن يحطم كل شيء، ولكنه سمع خطواتي تقترب، فأعاد الهاتف سريعا إلى مكانه بعد أن أعاد كل شيء إلى وضعه الطبيعي. قابلني واقفا أمام باب غرفتي مُحاولًا السيطرة على انفعالاته: ما كل هذا التأخير؟ سنفطر هنا وليس في الشانزليزيه يا ابنة فارس سيف الدين. ابتسمت من أسلوبه ولم أعلق. فأخذني من يدي سريعا إلى غرفة المعيشة، ليقول لشقيقته التي كانت تجلس في انتظارنا أمام المنضدة بعد أن حضرت جميع الأصناف المطلوبة: بيض مقلي، وجبن أبيض، شرائح خيار وطماطم، وقهوة داكنة خالية من السكر كما يهوى أبي. بطاطس محمرة، وجبن رومي، وشاي بحليب كما أهوى.

"هاهي ذي أميرتي الصغيرة أتت تلبي نداء فارسها" - انتبهت لكونه لم يناديني بهذا اللقب منذ وقت طويل- وهنا لم يستطع التمثيل أكثر من ذلك، فرشف من فنجان قهوته سريعا، ثم تعلل بتذكره موعدا مهمًّا عليه اللحاق به، وبأن تأخري في تجهيز نفسي هو السبب، وتركنا وانصرف.

نظرت إلى عمتي في كآبة ولسان حالي يقول: لن يتغير، سيظل يبني سدًّا وراء سد في علاقته بي دون أن يدري.

*****

ذات صباح استيقظت أتحسس خصلات شعري، فوجدتها لزجة، فقد كان جلد رأسي ينزف.

شعرت بحكة فى ظهري، فخلعت بلوزتي، ووقفت أمام المرآة، فوجدت دوائر صديدية صغيرة وبينها خطوط حمراء دامية، كضربات سياط متوازية.

هممت بارتداء حذائي فشعرت بضيقه، وحينما نظرت لأصابع قدمي، وجدت إصابتها بورم يجعلها منتفخة، مع ألم مصاحب كشكة الدبوس.

حتى أسفل وجهي أصابه شيء ما، فبدا كالمحترق بلونه المتوهج احمرارا، وملمسه غير الطبيعي مقارنة ببقية البشرة، لقد انقلبت سحنتي الجميلة وتشوه وجهي. أصحو ليلا لأجد الظلام حالكا والعرق يبللني كأنني مصابة بحمى شديدة. كل يوم كان جسدي يفاجئني بصرخة جديدة تعبر عن صدمته الموجعة.

كنت كلما فكرت في مستقبلي، بادرني مشهد كئيب من نوبات الصحو فجرا متعرقة، زلزال حميم أرعبني، رأيت بأم عيني حياتي تشتعل، وكلما تخيلت مستقبلي رأيت الرسوب والفشل والفراغ والوجع واسمي المدنس في الوحل.

أصرخ بغضب.. "ليتنى كنت أمثل عشقك كما فعلت معي، فلم يكن يصيبنى شيء نتيجة الفراق. كنت أعلم بأن جلدى هو أكثر شيء يتأثر بحالتى النفسية، ولكنى لم أتوقع أن تسوء الحالة هكذا."

وهنا فقط عزمت أن أؤدي الرقصة الأخيرة، التي طالما تمنيتها معه، ولكنه سيكون متفرجا وليس رفيق رقصة. أتذكر نصيحة أبي "لا تشكي لأحد، ولا تنتظري أن يأتي لكِ حقك على طبق من فضة. إذا كنتِ تعتقدين أن لكِ حقا فخذيه بيدك، ونظِّفي مكانك جيدًا". هكذا تربيت وعلى هذا نشأت. كنت أتعجب من زميلتي في المدرسة، حين يضربها أحدهم، فأجدها تهرول باكية للمدرس الذي لا يفعل شيئًا، سوى أن يطلب من المخطئ أن يعتذر لها وفقط.. هل الاعتذار سيلغي الألم؟ كنت أشكر والدي حينها في نفسي؛ فمن كان يضربني أو يلحق بي أذى، كنت أرد له الصاع صاعين بحسب حجم ألمي وقتها. تخيل أن يترك رجل عمله في منتصف النهار، ليذهب لمدرسة ابتدائي، أو إعدادي، أو حتى ثانوي ليسأل عن مَنْ ضرب ابنته أو تسبب في إيذائها، وماذا لو رآه بالفعل، ماذا بمقدوره أن يفعل لطفل في عمر ابنته؟ هل سيضربه مثلا، أم سيعنفه، أم سيطلب استدعاء ولي أمره ليتشاجر الآباء بسبب تصرف أحمق من الأبناء!

ذهبت إلى (حمزة) فوجدته في قفصه جالسًا، وقفت قبالته هامسة باسمه، رافعة ذراعي لأعلى فهبَّ واقفا سريعا ليأخذني في حضنه، مادًّا يديه خلف القضبان، يحيطني بين ذراعيه وملامحه تشي بابتسامة اشتياق، فأغوص في لبدته حنينًا لحنانه وافتقادا لحبه.. وجلست أقص عليه ما حدث كعادتي معه.

*****

ترجَّلت كثيرا دون وجهة محددة إلى أن قادتني قدمي لمقهى في وسط البلد فدلفت إليه لأتناول عصير ليمون يهدئ من صخب روحي، كانت معظم الطاولات فارغة على غير العادة ولكن على منضدة في الزاوية رأيت (مازن) يجلس قبالة زوجته (رضوى) واضعًا حاسوبه المحمول أمامه، مُمسكًا بجواله يعبث به كالذي يكتب رسالة.

لم أستطع أن أزيح عيني من عليهما وخاصة (رضوى) الزوجة الذكية التي أكاد أجزم أنها تعلم عن زوجها كل شيء، أشعر بها وهي تتأمله بحب غاضب، كأم تعلم جيدا ما يفعله ولدها من تصرفات يندى لها الجبين.

أراها تتنهد بحب ورغبة حقيقية في الغفران، وتُمنِّي نفسها بأن يستمع لحوارها الداخلي مع نفسها والذي تخيلت أن يكون: "أريد أن أحممك بأطيب العطور علَّها تطهرك من خطاياك، أعلم بآثامك، رغم محاولاتك المضنية في إخفائها عني.

فقط لو تسلم لي نفسك دون تمرد، ودون أن يكون الغرض مضاجعتي.

سأتبناك وقتها، كأنك ابني المشاغب الذي يمارس الرذيلة دون علمي، ويدخن في دورة المياه غير مدرك بأن رائحة التبغ تفضح كل شيء، ويعبث في أشياء زملائه دون أن يعلم بأن مُدرس الفصل يرسل لي تقريرا يوميًّا، والذي يهرب من الحصص المدرسية لمجرد شعوره بالملل، والذي يهوى القفز من سور المدرسة، لاختبار مهاراته الحركية رغم خروجه اليومي من المنزل مبكرًا تحت إشرافي،

والذي يتسكع في الشوارع لمعاكسة البنات، ليشعر بالاستمتاع السادي برد فعلهن، والذي يجوب الطرقات، علَّه يجد مغامرة تكسر روتين يومه المدرسي، والذي يسخر من أساتذته، لاعتقاده بأنهم يعلمونه شيئًا لا يفعلونه ولا يقتنعون به.

لن تسقط من نظري مهما غضبت منك. أبغض ما قمت به، ولا أبغض شخصك.

لا تتعجب، فمن تعشق زوجها مثلي، لا تملك سوى أن تحبه فقط. الحب يعني العطاء، وهذا ما أفعله معك الآن.

ابكِ يا صغيري، علَّ دموعك تساعد الماء في إزالة ما علق بك. لا تخجل، فكلنا خطاؤون، وخير الخطائين التوابون.لا تخش أسئلتي عن أي علامة أراها في جسدك لم تكن موجودة سابقًا، صدقًا لن أفعل.

لا تقلق، فظهرك في أمان.أعلم مكانته لديك، سأدلكه بمساج خاص، يحتوي على زيوت عطرية فواحة، سأهتم باعتدال درجة الماء، حتى لا تصاب بالذعر إذا ما وجدتها غير ملائمة لبشرتك. فقط اترك لي جسدك، ولن تندم.

اخترت لك ما سترتدي ليلائم صلاة تليق باعترافك بعبوديتك لله وحده، وندمك على ما اقترفت يداك. سأتسلل إلى روحك، وسأنثر بداخلها نفحات إيمانية. سأذكرك بحالك في الماضي، وكيف كنت. سأذكرك بصوت شيخك المفضل، وهو يتلو القرآن، ونصائح والدك لك، ونظرة أسرتك وخوفهم عليك،

ورؤية أبنائك واشتياقهم الدائم لك، وابتلاءات كثيرة نجَّاك الله منها، ومصائب تحيط بالكثير عافانا الله منها، وبنعم لا تعد ولا تحصى. وتطاول إبليس "وعزتك وجلالك لأغوينهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم" ورحمة الخالق "وعزتي وجلالي لأغفرن لهم ما داموا يستغفرونني".

سأذكرك بعذاب جهنم، الذي لن تستطيع تحمله، وبالجنة التي هي سلوى المعذبين في الأرض. وسأتركك بين يدي الله تبكي وتتضرع له، وأنت عازم على عدم العودة لارتكاب ذنوبك، التي تعلمها جيدا.

وحينما ستخرج إليَّ بنورك المضيء، معتذرًا بخجل عن كل شيء، شاكرا وجودي في حياتك. ستجيبك دموعي فرحة بأني قد غفرت لك، فأنت عشقي السَّرمديّ.

وحينما تحيط وجنتي بكفَّيْك، سأخبرك بأني كنت أعلم أنك ستعود، ولن أتنازل وقتها عن صلاة تكون لي إمامًا فيها".

لم أستطع أن أتحمل أكثر من هذا دون أن أعلن عن وجودي وأفسد عليهما هذه الجلسة الصامتة، وكأن رضوى أفاقت من شرودها على نغمة رنين هاتف مازن المتوالي، ونظرة عينيه الثاقبة لها، نعم كنت أنا صاحبة الاتصال، أراقب انفعالاته وانفعالات زوجته لأجد نظرتها تحمل معاني كثيرة كأنها تقول لذاتها: "لم يسبق له أن أخبرني عن النساء اللاتي قد استحوذ عليهن، والفتيات اللاتي قابلهن، واللاتي ما زلن ينتظرنه، ويتوقعن رجوعه، لأنه على يقين بأني أعلم ذلك، وأسامحه

على ما اقترف من آثام، كما أعلم من صاحبة الاتصال الآن."تنظر له بمعنى لمَ لا تجيب"؟

فما كان منه إلا أن أزال الشريحة من الهاتف، وقام بكسرها، وهو يخبرها بأنه سيأتي بواحدة أخرى، و لن يعلم رقمها سوى المقربين.

ازدت غضبًا بعد تصرفه هذا، وانصرفت دون أن يعلم بأنني كنت في الجوار.

حين منتصف الليل وجدته بدَّل صورته الشخصية على حسابه في مواقع التواصل الاجتماعي لصورته مع زوجته، شعرت أنه يخبرني بهذا أنه يحتمي بوجودها في حياته أو لعلَّها إعلان هدنة قصيرة قبل الخوض في مغامرة جديدة.

تساءلت بفضول ترى هل (رضوى) تستحق الشفقة لعلمها بخيانة زوجها المستمرة، أم تستحق الاحترام لحفاظها على البيت إلى الآن؟

# الفصل الرابع

**(١٩ نوفمبر ٢٠١١)**

كانت الساعة العاشرة صباحا، كنت مرتدية بنطال جينز أزرق وسترة داكنة اللون. وطأت بقدمي أول مرة ميدان التحرير، وقد شاهدت تجمعا هائلا تمهيدًا للمسيرة ونويت أن أشارك الجموع ثورة الغضب، علَّني أنفس عن غضبي الداخلي بصراخ المظاهرات الحاشدة.

لم أكن أولي اهتماما كبيرا بما يحدث على الساحة السياسية لمصر، فقد نشأت على صوت الرئيس (محمد حسني مبارك) المميز ولازمته الافتتاحية الشهيرة "أيها الإخوة المواطنون" والتي أضافت عليه طبع أب صارم يعلم جيدا ما يفعل وما يهم الرعية. لم أستوعب لماذا كانوا يطالبون برحيله صائحين "مش هنمشي.. هو يمشي"!

كانت الأحداث سريعة ومتوالية، والاحتجاجات لا تتوقف مطالبة بإسقاط المجلس العسكري وقوات الأمن.

وكنت بحاجة ماسة لأن ألهي نفسي بما هو أعم، وبالفعل تلاحمت مع موج البشر الممتد إلى أن سقطت إحدى الفتيات جواري إثر طلقة في منتصف جبهتها. أصابني هذا المشهد في مقتل، كيف لحياة إنسان أن تنتهي بهذه البساطة ودون

سبب حقيقي سوى أن ينفِّس عن غضبه. هنا صار الغضب بداخلي حقيقيا. رغبة في أن أثأر لدماء الفتاة البريئة التي استقبلت الغدر بوجهها ولم تفر أو تلتفت أو حتى تتباطأ. ويأتي صوت محمد منير كخلفية موسيقية لهذا المشهد العبثي "إزاي أنا رافع راسك وأنتي بتحني في راسي إزاي"..

علمت فيما بعد أن أبي الأستاذ فارس دائم التواجد في الميدان، بل ويحاور الناس ويحاضرهم بكل دأب، يتجمع الشباب حوله ليستمدون منه العزيمة والإصرار وفهم مجريات الأحداث وما يجب عليهم أن يفعلوه.

كنت أشعر بالفخر تجاهه وتعجبت لِماذا لم يعرض عليَّ أن أرافقه هناك ولو مرة؟ وسألت نفسي: "ألا أستحق أن أخوض هذه الخبرة الحياتية، وأكون ذكريات عن هذه الحقبة الزمنية المهمة التي تمر بها مصر؟!".

"لماذا لا يعتبرني مثل هؤلاء الشباب فيعطي لي من وقته ويهب لي حماسًا أحتاجه؟"

تخللت جموع الشباب لأصبح في مواجهة أبي مباشرة لأراه يتحدث عن كثب، وبينما كان مستغرقًا فيما يقول، حاولت أن ألفت انتباهه لوجودي، ثم ابتسم حين رآني وأشار لي أن أكون جواره.

فرض سيطرته على وجودي ولم يسمح لي بالابتعاد، ولكني كنت أشعر بالدفء والأمان دومًا معه، حتى وإن أفسد خطتي في الاكتشاف والتجول دونه.

ولأني أيقنت أن الدنيا أوسع من نظرتي الفردية للأمور بدأت نفسيتي تهدأ تجاه مازن وأصبحت مستوعبة ما حدث بنضج، رغم أنني لن أمرر ما فعله معي بسهولة.

*****

أصبحت عادتي دائما أن أبدأ بقراءة مقال (غيداء) الصباحي..

(الله لم يخلق المحن عبثًا، فهي ذاك الحبر الأسود الذي يترك بصمته على ورقة حياتنا البيضاء فيحيلها خبرات تنحت شخصياتنا كحال ورقة الجرائد المليئة بالمقالات المختلفة، لكن ازدحام الخبرات قد يملأ صفحتنا مما يجعلنا في كل مرة نحرص على ملئها بما هو أولى وأهم. حتى إذا لم يتبق سوى الهوامش، قد ندون عليها رقم تليفون مثلا على سبيل النجدة في حين عدم العثور على ورقة فارغة. ولذلك لا تبتئس إذا ما اكتشفت أن ورقة حياتك أصبحت كورقة الجرائد يكسوها الحبر سوادًا).

*****

استوقفني تعليق عمتي على قلم غيداء، كان مفصلا، فقد كتبت كأنها تضع خبراتها الحياتية في وجبة إفطار يومي للقراء، فهي لا تفضل حين تقوم بالكتابة عن حالة ما أن تقوم بدور وكيل النيابة، الذي يسأل وعليه أن يتلقى الأجوبة التي ترضيه لينشرها مرتاح البال، بل تفضل أن تنزل إلى أرض المعركة، وتشاهد بنفسها ما يحدث، وتختلط بشهود عيان ليخبروها هم ما يريدونه دون تدخل أو تطفل منها.

دائما ما كنت أحث عمتي أن تحكي لي باستفاضة عن آخر أخبار غيداء فتراوغني، ثم تذهب إلى المطبخ لتحضير الغداء، وتجلس إلى المنضدة الصغيرة وأمامها طبق كبير ممتلئ بالبسلة والجزر، وتقوم بتفصيصها وبدوري أقوم بمساعدتها فتبدأ بالحكي.

أخبرتني أن غيداء حين أرادت أن تكتب عن دار المسنين قامت بزيارتهم مرات متعددة، حتى بنت قاعدة معارف منهم، تؤهلها للدخول إلى عالمهم، دون أن يعتبروا هذا تطفلا منها. وبالفعل أصبحت صديقة لهم، وتجد متعتها في الجلوس معهم، وصاروا يفضفضون لها دون سؤال منها عن كل ما يحدث ويدور خلف الكواليس. ذهبت لهم بعد نكبتها فيمن أحبت لتحتمي بدفء حبهم لها، وونس تجمعهم معها.

مكان فسيح مليء بالغرف المشتركة والأجنحة المستقلة، والاستقبال واسع كغرفة معيشة تسع عدة أطقم للاستقبال، الحائط مطلي بلون السماء، مع بعض الزخارف تم توزيعها لتشمل المكان، مع لوحات على الحائط صناعة يدوية كهدايا تذكارية من بعض الزائرين، ومزهريات موضوعة على المنضدة التي تتوسط الصالة، وستائر بيضاء ينفذ الضوء من خلالها، وقد تم تقسيم المكان لاستيعاب هذا العدد الهائل من المقاعد والآرائك، وتلفاز ضخم يتوسط الردهة يلتف حوله المسنون وقت "العصاري"، منضدة للطعام في جانب الصالة، كل شيء تم تنسيقه بذوق يناسب من يعيشون فيه.

وكل غرفة تحمل طابع شخصية ساكنها، فهناك غرفة ممتلئة بالعرائس كغرفة طفلة صغيرة وثانية تزين جدران الحائط ببوسترات ملونة لمطربي الزمن الجميل، وهناك غرف هادئة رصينة لا يوجد فيها سوى الأساسيات فقط وهم كثرة، وأخرى ممتلئة بأحدث الأجهزة من شاشة تلفاز كبيرة، وجهاز كمبيوتر حديث، وهاتف محمول، وراوتر خاص بالإنترنت، وتكييف (بارد وساخن)، وسخان كهربائي لغلي الماء وما إلى ذلك.

توجد من تهتم بزينتها وتألقها كفتاة في مقتبل العمر، ومن تتعامل كأم لها احترامها ووقارها، ومن تتعامل كصاحبة بيت ترتدي دومًا جلبابًا منزليًّا بسيطًا، ومن تتعامل كضيفة ترتدي ملابس خروج على مدار اليوم حتى وإن ظلت في غرفتها.

وهناك من تهتم بالألقاب مع الجميع ولا تقبل أن يناديها أحدهم باسمها منفردا، وهناك من تتعامل ببساطة، وتُفضل أن يناديها زملاؤها باسمها دون أية ألقاب، حتى لا تشعر بحاجز نفسي، فجميعهن في النهاية رفيقات سكن واحد. توجد من تتعامل بود مُبالغ فيه مع الجميع؛ سواء من رفقاء الدار، أو من الزوار العابرين. وهناك من تتعامل بتعالٍ وتجهم وسخرية من أي تصرف يصدر أمامها.

إحداهن أحضرت معها عصفورين من الكناريا، من الواضح أنهما مصدر لسعادتها، ومن الواضح أيضا عدم وجود صديقات كثر لديها هنا، رغم انطباعها عنها بأنها هادئة وحسنة المعشر.

وأخرى أتت هناك منذ سنوات عديدة بعد أن طلقها زوجها واستولى على بناتها، تحب أن تنادى بـ (ماما رباب) تحيا من معاش والدها، ما زال كسر طلاقها يؤلمها، كأن وريقات حياتها سقطت من كتاب القدر - معها أيقنت بأن الزمن أحيانا كثيرة لا ينصف أحدا- وليست هي وحدها، فغالبية النسوة هنا إما مُطلقات أو أرامل.. المُطلقة ما زالت تحيا بوجعها رغم مرور السنين، والأرملة تحيا على ذكرى طيبة كانت يومًا واقعًا تعيشه.

هناك بالرغم من كونها مُطلقة إلا أنها تنظر لمطلقات هذه الأيام نظرة دونية، كأن هذا اللقب وصمة عار، حتى وإن تذوقته إحداهن ظلمًا، هذا يثير تعجبها كثيرا، فمن تمر بظروف معينة تكون لديها القدرة على رؤية الأمور من بين السطور، ولا تعمم الحكم على أي شيء، فللحقيقة دائما أوجه متعددة.

وضح هذا جليا حينما أخبرتهن ابنة إحدى المُسنات، بأنها تفكر جديا في طلب الطلاق، فزوجها فظ الأخلاق، وصعب المعشر، ودوما يعاملها بجفاء، بالإضافة لبخله في كل شيء.

"وجدته متعجبًا من طلبي الطلاق لأنه يتركني وحدي دائمًا. وكان رده بأنني في الطلاق أيضًا سأصير وحيدة، فالعرسان ليسوا في المتناول السريع إذا كنت أظن ذلك .هو لا يعلم بأن الوحدة عندي تعتبر مبررا كافيا؛ فالوحدة بوجود شريك حياة أمر قاتل .أخبرته أن الوحدة قدر من الله، أما إهمالك لي فهو اختيارك".

فسألتها ماما (رباب) سؤالا ذا مغزى قائلة: ألم يوجد بينكما لحظات تشفع له عندك؟ ألم يقم يومًا بترضيتك بطريقة تبهجك؟

نظرت في عينيها وأجابت: ترى إذا قام أحدهم بسكب هذا الماء في وجهك، ثم استخدم مرحاضك هل هذا يعتبر ترضية لكِ!

فأجابت (رباب): قد يكون موقفك جيدا، ولكن المجتمع يعتبر الطلاق عارًا، عليكِ أن تتجنبيه.

وإذا حدث عليكِ أن تكوني سيدة بمائة رجل.

-وهل هو سيكون رجل بمائة سيدة؟ سأكون سيدة بمائة سيدة.

-هذا مفهوم مغلوط تماما.. فحين يتم نعت المرأة رمز الدلال بالقوة التي تصل للمائة لهو وشم فخر.. فقد استطاعت رغم رِقَّتها وبنيتها الجسدية الأضعف وطبيعتها الحنونة أن تتحمل طاقة أكثر من رجل. ولكن حين سيتم وصف الرجل بأنه بمائة سيدة لهو وشم عار أن يتحول رمز القوة لشخص مدلل، رقيق، لا يتحمل أن يقضم أُظْفُورَه. ليس بالضرورة أن يقوم أهل النزلاء بإلقائهم في الدار والتخلي عنهم، فقد تكون رغبة النزيل نفسه، حتى لا يشعر بكونه ثقيلًا على أحد، أو رغبة منه في وجود من يشاركه الونس، إذا ما سافر أبناؤه خارج حدود الوطن وتركوه وحيدا، أو لم ينجب قط!

هناك الأمية والمُتعلمة، من تقضي وقتها على الإنترنت ومن تقضيه أمام التلفاز، من تهوى الثرثرة، ومن دائمة الصمت.

أما عن ما يدور بينهم، فله العجب، فالنساء لا تتغير طباعهن مع تقدم العمر، فكم تحدث مشاحنات ومشاجرات تصل لحد التطاول أحيانا وتكون البداية مجرد حوار بسيط، أما عن المقالب فموجودة كمراهقات يغرن من بعضهن البعض.

كانت زيارتها لهن تهوِّن عليها الكثير، وتجعلها تشعر بأن معها كنزًا، وهو شبابها، فلمَ تضيعه في البكاء على ما قد حدث بالفعل، ولا يستطيع أحد تغييره، فلتلملم خيباتها سريعًا وتقوم لتمارس ما خُلقت لأجله.

انتهينا من تجهيز البسلة وتقطيع الجزر، لتنهض عمتي لوضع الإناء على النار مع تحضير الصلصة وهي تخبرني "احضني نفسك ولملمي جراحك وداوي وجعك ولا تعتمدي على أحد، وبهذا أنتِ في مأمن من الخذلان".

أعود من درس الباليه وأنا في قمة انتشائي؛ فقد أجدت الوقوف على أطراف أصابعي وقتا أكثر من كل مرة وبالمقارنة ببقية زميلاتي، ما زالت غيداء تثيرني لمتابعتها، وخاصة بعد أن عادت لحياتها الرتيبة، أتابع صفحتها الشخصية لأجدها كتبت: "هي أحبته حب حواء لآدم، ذلك الذي لم تجد سواه في عالمها".

أذهب إلى عمتي لأجدها تقرأ في كتاب عن التاريخ، فأسألها عن موقف غيداء في ثورة يناير، هل ذهبت إلى الميدان؟ هل رأت أبي هناك؟

فتضع الكتاب جانبا مقلوبا على وجهه لتحدد الصفحة المتروكة فيما بعد، ثم تحكي لي بشغف عن قصتها مع الميدان.

**(ديسمبر ٢٠١١)**

حين طال انتظار (غيداء) لسيارة أجرة تقلها إلى الميدان، فكلما أخبرت سائقًا عن العنوان الذي تقصِده، هزّ رأسه وانصرف، كإعلان منه أن لا عاقل يذهب إلى هذا المكان في ظلّ التظاهرات التي أصبحت تملأ البلد.

لكن، أخيرًا هز أحد السائقين رأسه بعد تفكير قائلًا: "تعالي" وكأنه رمي لها بطوق النجاة.

كانت تنظر للطريق باهتمام وترقب، والسائقُ ينظرُ إليها في المرآة العاكسة بنفس التّمَعّن الذي تنظر هي به إلى الطريق!

مرت سيارة الأجرة من أمام متاريس ومدرعات مصفّحة ودبابة، فتمتم السائق: "لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم" كان شابًّا ملتحيا ذا بشرة سمراء، يرتدي نظارة طبية، ويخفضها على قصبة أنفه كأنه يقرأ، وله شعر أسود ناعم ومتساوٍ ومسرّحٌ بعناية.

بدون مقدمات وجدته يتحدث كأن هناك من يحاوره قائلًا: لا يوجد ما يسمى بحكم العسكر، فالإسلام قد سنّ الدستور منذ القِدم، وفي أيام وجود النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يوجد عسكر، وهذا ما يجب أن تكون عليه الدولة، وأن تشريعات القوانين في الإسلام واضحة؛ فآيات التحريم لا جدال فيها، كتحريم الخمر والميسر مثلا، واستشهد بمواقفه المختلفة مع الركاب، وأكثرهم من النساء اللاتي كن يرددن عليه بنقيض ما يقول أو لا يبدين اهتمامًا، أو

يتهمنه بأنه "إخواني وملعوب في دماغه" وكلام آخر كثير كان يقوله بانفعال شديد، فتارة ينظر للخلف، وتارة أخرى ينظر أمامه، وقد ساعده في ذلك طول الطريق نتيجة المظاهرات، التي جعلت حركة المرور، كالسلحفاة الحامل التي تخشى أن تضع بيضها فجأة.

هنا فقط تذكرت غيداء أنه نسخة كربونية من طليقها. له نفس الملامح، وخاصة البورتريه الجانبي، فحينما كانا يخرجان معًا كانت أمه تأبى أن تتركهما وحيدين، وكأنها تخشى على عذرية ابنها منها، فكانت أمه تجلس بجواره، بينما تكون هي خلف المقعد الذي تجلس فيه حماتها؛ مشهد السائق أعاد إليها الذكريات، حتى إنه يشبهه في الانفعال الحماسي في الكلام، إذا ما أخذته الجلالة في الحوار ليثبت أنه على صواب، وأن الآخرين أغبياء، حركة يده وتعبيراته بها كمن يتشاجر مع من يحادثه، لا يحاوره.

تذكرت اتهامه لها بالبرود العاطفي معه، وحواراتها مع نفسها التي لم يكن يعلم عنها شيئًا.

(قبل أن تتهمني بالبرود العاطفي وتضجر من بلادتي الجنسية، كان حقًّا عليك أن تلومَ نفسك مرارًا أولًا، كان عليك أن تقومَ بفعلِ أيِّ شيءٍ يثير غريزتي فيجعلني أكون لك كما تريد، كان طلبك الصريح لمضاجعتي يثير اشمئزازي ورغبتي في التقيؤ "هيا، تعرَّي"، أسلوبك كان يشعرني بأنني جارية عليها تنفيذ كل ما تريد، بغض النظر عما تريده هي، هكذا تطلبها دون مقدّمات، ودون أن

تهيئ جسدي لذلك، كنت كمن يجبرونه على الضحك وهم يجلدونه بالسوط. بأي برود تتهمني، وأنت لم تكن تريد سوى جسد ساكن حد الموت صامت حد الخرس، لدرجة تجعلك تفعلها وأنا أغط في سبات عميق، لأستيقظ فزعة فأجدك أوشكت على الانتهاء، ولم يكن لي منك وقتها سوى أن تذكر اسمك حتى أطمئن بأنك لست مُغتصبًا، وأن صفتك كزوج تتيح لك فعل كل شيء وفي أي وقت، أنا من لها الحق فقط أن تلوم وتشكو، فأنت على الأقل تفرغ شهوتك بي، أما أنا فلم أشعر معك يوما بشيء سوى ثقل جسدك فوق جسدي، ما زلت أتعجب ممن يصفون العلاقة الحميمية بالمتعة! هل تذكر كم من المرات أردت مداعبتك حينها لأصدم من رد فعلك وأنت تنهرني لأن هذا يجعلك تفقد تركيزك كأنك في مُهمة شاقة؟ هل تذكر رغباتي البسيطة ورفضك لتلبيتها وسؤالك لي وقتها: "لماذا؟ أو "مش وقته" أو "لما أحس أني عايز أعمل كده هعمله" أو "من أين عرفتِ هذه الرغبة؟" وكأن رغبتي في قبلة أو عناق تتطلب تقريرًا بإبداء أسباب مقنعة. لم تُقبلني يوما ولو على سبيل التمهيد كأنك تبرهن عدم حبك لي، معك كنت أشعر بالجوع العاطفي والحرمان الجسدي وكأنني لست على ذمة زوج يتمتع بي كل ليلة، حتى طلبك مني أن أتلوى أمامك لا يدل على برودي كما تدّعي. فجسدي ليس آلة وطلباتك له ليست زرًّا سحريًّا. عليكَ أن تقوم بالضغط على الأزرار الخاصة بي مرارًا، فإذ لم تفعلها لا تلم الجثة الراقدة تحتك. ترى أي ذنب وقعت فيه فعاقبني الله بك)!

مر الوقت بصحبته بطيئًا مُملًّا، كما كان يمر مع زوجها، مما جعلها تزفر في ضيق، وتنظر لساعة يدها بنفاد صبر، فذكرياتها القميئة جعلتها لا ترغب في أن تبقى في مكان واحد برفقة من يشبهه.

أسأل عمتي بفضول: كيف تزوجته؟ ولماذا وافقت عليه؟

فأجابتني قائلة: أعتقد أن حماسه أثار إعجابها، فقد شعرت بأنه ربما يكون صاحب قضية، ويستطيع الدفاع عنها جيدًا. ربما أعجبتها وسامته وملامحه المتناسقة، بما فيها صف أسنانه المرتب المتلألئ البياض. ربما هو النصيب الذي يسّر كل الأمور ليتم الزواج بسهولة ودون أي تعقيدات أو منغصات.

بعد الزواج بفترة قصيرة وفي لحظة فرج من الله، جاءه عقد عمل للخارج، ولم يعرض عليها أن تذهب معه ولم تطلب هي ذلك، فقد جاءها هذا الحل السحري، لتنفصل عنه بدون طلاق، كأنه اتفاق ضمنيّ بينهما، لم يتصل بها بعد سفره إلا في أضيق الحدود، ولم يرسل لها أية مصروفات خاصة إلا من خلال أمه، لدرجة جعلتها تضجر بهذا الوضع، وتمتنع عن الذهاب إليها لأخذ المصروف، فالأخيرة دوما تمن عليها وتمطرها بتعليقاتها المقززة من آنٍ لآخر، عن حتمية معاناة جسدها في غياب عنتر زمانه. كانت أمه تحاول تحريك غيرتها، وإثارة فضولها لتشكو لها من غيابه وعدم اتصاله، كانت تتعمد استفزازها باستفساراتها وبخيالاتها المريضة وأسئلتها المغرضة، كأن تقول مثلًا: ماذا لو علمتِ بأنه تزوج من أخرى وأتى من السفر بها ليجبركما أن تعيشا تحت سقف واحد؟.. كان

يتحدث عن الدين كما يتحدث هذا السائق، فكان بر أمه من وجهة نظره يتضمن أن تشاركهما حياتهما، وتقحم نفسها في خصوصيات زوجته، ولولا وجود مكان إضافي لشاركتهما غرفة النوم، فإذا كانت هي من آثرت هذا الانفصال وامتنعت عن طلب الطلاق حتى لا توشم بلقب "مطلّقة"؛ ماذا عنه، لمَ تركها معلقة عامًا كاملًا قبل أن يطلق رصاصة الرحمة؟

رغبت في أن تصرخ بوجه السائق: "أنت آخر شخص يمكن أن يكلمني عن الدين، هل عاملتني على كتاب الله وسنة رسوله كما هو العقد المسمى بيننا، فلتصمت للأبد إذن".

أفاقت من شرودها على صوته وهو يخبرها بأنها وصلت إلى المكان المراد. أغلقت الباب بحدة بعد أن ترجّلت وتنفست الصعداء، ولم تعلم بأنه كان بالفعل زوجها السابق وأن ذاكرتها أسقطت ملامحه إلا من تشابه طفيف شعرت به.

*****

كنت أعود من السيرك وأنا ممتلئة بالمحبة، فحمزة تفاعله معي لم يتغير رغم حجمه الذي يزداد ضخامة، ما زال كما هو في عيني شبلي الصغير، قراءتي لاصطباحة غيداء الكتابية اليوم كانت مبهجة، فقد شعرت بكون قلبها قد برأ تماما، فقد كتبت: "حينما استطعت رؤية ذكرياتنا بإرادتي الحرة، ورغبتي في تذكر كل شيء، ووجدتني أبتسم، علمت حينها بأنني قد شفيت منك".

ناديت على عمتي التي كانت جالسة في الشرفة تستنشق الهواء العليل وتستمتع بنسمات الطقس الباردة، فأجابت أنها تنتظرني وتعلم أن فضولي في أوجه، فبدأت بداية مثيرة، قائلة:

"الكبت يولد الانفجار، وضياع الحقوق يولد الثورة، والثورة تؤدى إلى غضب الحاكم، وغضب الحاكم يؤدى إلى إبادة الشعب، والشعب "غلبان"، أى شيء يرضيه. لكن الحاكم واعٍ ومُدرك بأن الشعب الذى يرضى بالفتات ليس هو نفسه الشعب الذى يثور، ولذلك عليه أن يبيد الفئة الثائرة ويسيطر على الفئة الجائعة. سياسة مدروسة لا يستوعبها شعب أمل حياته أن يجد قوت يومه.

لن نكون لُقطاء الوطن بعد الآن، هكذا رفعت شعارها وذهبت لأداء صرخة المنفيين في أرضهم، كانت تسمع صوت أقدام الأرجل، كأنّ الجيش أعلن استعداده للهجوم، لم تعلم إلى أين تقودها قدماها، فالزحام والفوضى هما المحرك الأساسي في هذا الميدان، تفاجأت بـ (فارس) قبالتها؛ لم تنطق، في حين كان يلحّ عليها ويشير لها بيده أن أسرعي من هنا.

ترد بحيرة غاضبة : هل تخاف عليَّ؟

يشير إليها بيده بلهفة قائلا: - ليس هذا الوقت المناسب، أسرعي .

- ترد باستهزاء قائلة: -هل تخشى أن يقوموا بتعريتي أمامك؟ أم تريد أن تنفرد بي لتفعلها وحدك؟

يجيب بنفاد صبر مُقتربا منها قائلا: - هل هذه فكرتك عني؟ مهما حدث بيننا، فالأمر الآن أكبر من هذا، أسرعي؛ الخطر في اقتراب.
-تجيب بعناد طفلة: - لا، لن آتي معك، وإن كنت الطريق الوحيد لنجاتي من هذا المجهول.

وجرت في الناحية المقابلة له، لكنها تفاجئت به يأتي من خلفها، ويمسك ذراعها ليسحبها معه في الطريق الآمن قبل ظهور الجنود بلحظات. أجلسها على الأرض، وجلس بجوارها واضعًا يده على فمها، نظرت إليه بغير فهم لسبب تصرفه معها، هل سينقذها فعلًا أم أنه سيقوم بعمل دنيء؟
استرق النظر ليجد الجيش منتشرا في الطرقات، يسدّ جميع الاتجاهات، ويجب عليهما إن أرادا الخروج أن يحتكا بهم، أو أن يغوصا في الأحياء الضيقة المليئة بما لذ وطاب مما خفي من البلطجية المنتشرين في جنبات الأحياء والأزقة.

يقول بتوتر حقيقي: -لا أعلم ماذا يجب أن نفعل، مصيرنا أصبح واحدا.
تنظر إليه متعجبة وتقول بصوت هادئ: - لماذا فعلت هذا، بماذا تهمك سلامتي؟
يساعدها على النهوض قائلا: - لنخرج آمنين أولًا، وسأقول لك ما يشبع فضولك.

كانت غيداء وفارس يتابعان ما يحدث للفتيات في التظاهرات من انتهاكات جسدية، واغتصاب، وهي لم تشاهد هذه الحقارة من قبل، ولم يكن خيالها قادرًا

على تصوّر ما يحدث، مهما سمع من حكايات، لم تكن تفهم معنى الاغتصاب بالأيدي، لم تكن تدري أنّ هنالك مراهقين مأجورين، يقومون باللّهو بجسد فتاة، وكأنّهم يبحثون عن شيء فُقد منهم داخله، لم يطرأ على مخيلتها ولو للحظة بأن يوجد شباب ورجال يساعدون على هذا الفعل، وينتشون برؤية ما يحدث، وكأنّ التي وقعت فريسة داخل الدائرة على الكل أن ينهل منها.

شعرت بأن دموعها تحجرت، وأصابها الخرس مع ألم في صدرها، ووجع حقيقي في قلبها، وعدم قدرةٍ على التنفس، ثم فقدت الوعي بعدها. حين أفاقت، وجدت نفسها بالمقعد الأمامي في سيارته، في حين كان ينفث عددًا لا بأس به من السجائر خارج السيارة، وعندما انتبه لكونها استعادت توازنها، جلس على عجلة القيادة ونظر لها قائلا: "حمدًا لله، لقد استطعت الخروج بكِ دون أن يمسك أحد بسوء".

فقالت: "ممتنة لك إذن" وهَمَّ يحكي عن ما حدث وكيف خرجا..

تهمس في نفسها: اعتذارك لي بمثابة الخل الوفي أتمناه ولا أتوقع حدوثه، ثم تقاطعه سائلة: لماذا؟

أجاب قائلا بعدما فهم مغزى سؤالها: كنت أحميكِ من نفسي.

ثم واجهته وحدقت في عينيه لتسأله مجددا: لماذا؟

يخمن قائلا: لماذا ابتعدت؟

تخبره: لا، لماذا اقتربت؟ لماذا سقيت البذرة التي لحماقتي أخبرتك بوجودها؟ لماذا حينما بدأت تنبت مبشرة بظهور برعمها الصغير قتلتها في المهد بلاشفقة أو رحمة؟ لماذا أعطيتها المساحة الآمنة لكي تخترق الأرض معلنة عن وجودها مطالبة بحقها في الحياة؟ أخبرني بربك لماذا؟ فإجابتي أنا لن ترضيك، قل أي مبرر أو سبب مهما بدا وسأصدقه، هل لمتعتك في قتل كل ماهو يوشك على الازدهار؟ هل لشخصيتك الوضيعة وطبيعتك السادية؟ أم هل لعقدتك القديمة ورغبة الانتقام في جميع النساء عدا معشوقتك؟

- هل تسخرين مني أم تخطئين في شخصي؟

قاطعته منفعلة: هذا دائما ما يلفت نظرك ويهمك في الحياة، ألا يمس أحدهم ذاتك. أنا الآن لا أهينك، أنا فقط أضع مرآة لترى فيها وجهك الحقيقي لترى ما أراه، عامة لم يعد يجدي شيء الآن. وهمَّت بالانصراف، لكنه منعها.

– انتظري، إنه القدر الذي جمعنا لأتحدث إليكِ، والذي جعل الصورة تتضح لي الآن.. لكن أريدك أن تعلمي أنني صدقا لم أكن أفضل أن يحدث كل هذا بيننا، لم أكن أريد أن أكون خيبتك التي صُدمت بها.

ردت قائلة: لم تكن خيبتي، بل كنت أمنيتي، عشقك لم يكن أبدًا مباغتا، بل كان حلمًا ينبت على مهل، حتى إذا ما قوت جذوره، ووجد نفسه يريد الاستنشاق والتعبير عن وجوده صعد بلا مقدمات كالخيزران الصينى لعدة أمتار، غير مكترث لما يقابله فى طريقه. لقد استغليت ظمأي، ووضعت كأس الماء على

شفتي، ثم انتزعتها انتزاعا قبل أن أرتشف منها نقطة.

أو تدري شيئا، كنت على أتم استعداد أن يظل حبي لك عبر الأثير فقط، دون المطالبة بإثباته على أرض الواقع كحب مي لجبران، لكنك لم تكن لي سوى حقيبة مليئة بالخذلان. تمنيت أن يرسمني قلمك لا أن يذبحني.

- دعينا من هذا الآن وأنصتي لي، سأحدثك الآن كأب وليس كرجل.

تابعت بغضب: الرجل لا يخون، ولا يلهو بمشاعر النساء ولا يتسلى بقلوب الفتيات، ولا يحنث وعده، ولا يكذب وإن كان السيف على رقبته، الرجل لا يطعن مَنْ أحبته في شرفها. فأي رجل أنت تدعيه! ما بيني وبينك شرف مجروح بالبهتان؛ ادعيت أنني راودتك عن نفسك،

وقلت بسخرية إنني أمثل دور "خضرا الشريفة"، وبأنني أدَّعي الفضيلة. فإذا أردت الغفران عليك بتقديم قربان. فلم يمسسني بشر ولم أكن بغيًّا، لم أقل لك يومًا هَيْتَ لك، بل قلت دومًا الموت لك، آمنت بالمروءة المزعومة، بنظري خسئت، وبك صبأت، هدرت كرامتي على يديك، واستحللت عرضي، و بسمعتي خضت ولعبت، وكنت بي من الهازئين.

قال بانفعال: كفِّى يا غيداء، أعلم تماما ما حدث ولا داعي لتذكيري به، فياسمينتي الصغيرة المتمثلة في ندى ابنتي أرى ذبولها يومًا بعد يوم، أرى معاناتك بسببي فيها.

- إذن فسبب دموع الندم البادية عليك، خوفًا على ابنتك أن تكون فاجرة؟

- إذا كنتِ يومًا عاهرة فابنتي كذلك.

- عجبًا لأمرك، هل تقسم بشرفي الآن بعدما دنّسته بظنونك.

- غضبي فتك بي وسيرني للجحيم، كلما قسوت عليكِ مرضت ابنتي، كأن هذا ارتباط شرطي، لم أنتبه له إلا الآن، فهناك رابط بينكما وأقسم بشرفي لا أعلم السبب.

قالت باستهزاء: أي شرف هذا الذي تقسم به؟ هل مثلك يعرف معنى الشرف؟ الشرف أن تفي بالعهد وإن كنت في اللحد، الشرف ألا تتفوه بكلمة وأنت تعلم جيدًا بأنك لن تنفذها، الشرف ألا تنتهك حرمات الله خوفًا من أن يتم انتهاك حرماتك. أقسمت لي يومًا بشرفك واعتبرتك صادقًا ولم أكن أظن قط أنك خائن، وهنا أقسمت على الله بحق خديعتي فيك، وحق غوايتك لي، وخذلانك لثقتي ومحاولتك الفاشلة كي تجرني للرذيلة، أن تتذوق ابنتك من نفس الكأس الذي جرعتني مرارته حتى احترق حلقي. لم أختلِ بربي مرة، إلا وناديته أن يأخذ لي بالثأر، وأن ترتشف جرعات مكثفة، لعلك تفيق وتعترف بطهري وفضيلتي، وها أنت الآن تفعل.

- لم ألمسك يومًا، لم أختل بكِ قط.

- ومع ذلك تحدثت عني كفاجرة مُنحلة.

- لم أتمنّ يومًا أن يصل بيننا الأمر لهذا الحد، صدقيني.

- من الجاني إذن؟ ومن السبب في الدنو؟ ومن السبب في القطيعة والفراق

وعداوة الفساق؟

- صلِّي لابنتي، وأقسمي على ربك أن يغفر لي، ويحفظ شرف ابنتي.

- ولماذا لا تفعل ذلك وحدك؟ أليست ابنتك أم أنك لست على طهارة؟

- لا تسخري مني يا غيداء، أطلب ذلك منكِ لعلمي بطهرك وقربك من المولى.

- الآن علمت وقد قذفت حصني بالباطل؟

- ماذا يرضيكِ؟

- لا شيء، يكفيني انتقام ربي.

وبداخلها تقول: "لقد بالغت في العداوة فلم تجعل بيننا للصلح مكانًا".

انتهت عمتي وهي تلقي بورقتها الأخيرة، فقد كنت أنا انتقام القدر في أبي! ولكني أراه لم يكترث لما حدث لي! الآن فهمت منشورها على صفحتها الشخصية. "لا تسامح من لم يطلب منك الغفران.. فالتسامح هدية لا يقدر قيمتها إلا من شعر بالذنب، وقدم أفعالا تدل على ندمه على اقتراف ما فعله تجاهك".

وفهمت أيضا معنى هذه الجملة التي نشرتها على مدونتها السرية:

- "انكساره قد جبر كسري، فرؤيته هكذا تكفيني وضعفه أمامي يرويني".

# الفصل الخامس

كنت أجلس في الشرفة مستمتعة بنسيم الصباح، أحتسي شايًا بحليب، وأقرأ رواية كاتبتي المفضلة غيداء (نزفتك حتى ارتويت) جذبتني بدايتها..

"في ذكرى النكسة سيتحدث قلبي عن خيبته، فأنصتوا له جيدًا؛ فعزف المجروحين دائمًا مثير".

وأسرح في كلمات إحدى مقاطعها "خُلقت من ضلعك يا آدم وخرجت من رحمي فلمَ تنعتني بالعهر؟ وإذا ما ناديتك اتهمتني بالفُجر، هل تعرفت عليَّ في حانة سُكر؟ ألم تأتِ بإرادتك إلى داري. ألم تبدأ بمراسلتي والاتصال بي، على أمل أن تنال رضاي. فلماذا بعد ما تمكنت من قلبي، تركته وتصفه بما ليس به، مثلما تفعل ذريتك مع أمي حواء الآن؛ فهم ما زالوا ينسبون إليها خطيئة قضم الثمرة؛ فإذا كانت حواء جانية، لماذا همت في الأرض تدعو الله أن يغفر لك، فلا ترجمها بحجر، وأنت تدنسك الخطايا".

أنهيتها في جلسة واحدة طويلة حتى وصلت للخاتمة.. "أحببتك حتى اكتفيت، ونزفتك حتى ارتويت، والآن أصبحت في حياتي مجرد طيف وانتهيت".

أرفع ناظري قليلا، فأرى عصفورًا يقف على سور الشرفة، ريشه الرمادي يلمع تحت الشمس، وتبينت بوضوح منقاره الصغير، لكن أكثر ما شد انتباهي سيقانه التي كانت على مرمى نظري مباشرة، لا أعلم لِمَ لفت نظري حينها أكثر من

أي وقت مضى، ظللت أنظر إليهما، وكأنني أول مرة أكتشف أن للعصفور ساقا رفيعة هكذا. تأملي جعلني أتخيلهما كغصن شجرة. هما بالفعل يشبهان غصن الشجرة كثيرًا، حتى في اللون.

ومرت بي نزعة سادية؛ فقد هممت بأن أكسر هذه الساق بثنية بسيطة، كأني أكسر غصن شجرة، لأرى رد فعل العصفور، هل سيتأوه وقتها؟ وكيف سيقول الآه وصوته أصلًا غناء. كيف لتغريده أن يكون أنينا؟ وماذا سيفعل؟ هل سيطير أم سيظل مكانه يئن في صمت؟ وماذا إذا رآني أحد من قبيلته كيف سيتصرفون معي ومعه؟ وفي النهاية عزمت قراري، واكتفيت بتخيلاتي. فلم أجرؤ أن أكون سببًا في وجع روح خلقها الله لتغرد في سلام.

انتابتني أحاسيس متضاربة حتى عاودني النوم فنمت.

*****

عندما استيقظت كانت رغبتي في مقابلة غيداء كبيرة، فقد أبهرني قلمها ووجدت فيه نفسي كأنها كانت تكتبني، فقررت الذهاب لزيارتها. لم أتخيل أن ترحب بي بكل هذه الحفاوة، استقبلتني بلطف حتى قادتني إلى غرفة مكتبها ودعتني للجلوس. أخبرتني بأنني أشبه ابنتها وظلت تحاكيني حتى إنني نظرت لها بدفء وأحسست بأنها لا تراني غريبة عنها. قطع خلوتنا اتصال هام، فقامت لتجيبه وتركتني في غرفة مكتبها كأنها تقدم لي كنزا يحوي مذكراتها وكواليس كتابتها لرواياتها..لا أنسى جملتها الأخيرة التي كانت تؤكد محبتها لي قبل

مغادرتها. كانت نظراتي تتفحص ما حولي باهتمام ورحت أتأمل في كل شيء حتى وقعت على مسودة كتاباتها التي تقول فيها: "اليوم سأجعل قلمي يقف له بالمرصاد، لينزف كل شيء حتى آخر قطرة علَّني أتبرأ منه، علّني أخرجه مني ذات يوم بلا رجعة، وطالما لم يمنع نزيف المجهضة فليستمع إلى صراخها.

ذات خذلان انساب وجعي كالسيل المتدفق، فكففته بأوراق مطهرة، وعلق بها كنطفة في جدار الرحم، منتجًا هذا الجنين الورقي المعبق برائحة الدم الشافي حد الارتواء، سأكتب عن أوجاعي لأتحرر منها، ومن ثم أستطيع التحليق عاليا.

أقلب الصفحة لأجد نصًّا بمثابة رسالة تقول فيها:

"أخبرتني يوما بأن من يقترب منك تدميه الجراح، فهممت بتنفيذ النصيحة، وآثرت عدم الاقتراب، فوجدتك تتقرب بخفة ونعومة لم أستطع مقاومتها؛ فكان الصراع شديدًا بين رغبة قلبي الجامح، ونصيحة عقلي الهادئ، وانتصرت مع قلبي ضدي فانقلب السحر على الساحر؛ فعزمت بأن ألقنك درسًا لن تنساه، من الحماقة أن تلهو مع من تهوى الكتابة، فقلمها سيتولى مهمة العبث بك، سيخلد قلمي فعلتك معي حتى تنال اللعنة على مر الأجيال؛ فقد نسيت أن أخبرك وقتها بأن من يؤلمني أطلق عليه سهامي بلاشفقة".

وكانت تلك البداية لمعرفة من هو بطل روايتها وفارسها الذي تخلى عنها.

*****

لو أن للحياة رائحة لكانت تلك اللحظة هي أشدها نفاذًا. فالروائح ليست خيرا خالصا هذا ما ترسخ في قلبي عند خروجي من منزل غيداء، كل شيء حولي كان يشي بالخذلان، أسطورة أبي، صمود غيداء، وضاعة مازن، تواضعي في تحقيق أحلامي. بمرور الوقت عرفت أن الأحلام قد تغادر كأي شيء آخر، وأنها لا تحتمل التواضع.. كنت مدفوعة– بمشاعر مختلطة– لإسقاط مازن من الذاكرة. لم أفهم كيف تمكنت من الضغط على كباح الفرامل في هدوء لأقف بالسيارة أمام مرسم (مازن)، تناولت هاتفي لأكتب إليه رسالة على الفيس بوك بعد أن علمت بتغيير رقم هاتفه:

"أعلم أنك في المرسم الآن، أنا في الخارج بانتظارك داخل سيارتي، أعاهدك أنها ستكون المرة الأخيرة التي تراني أو حتى تسمع فيها صوتي، لن أتسبب في إزعاجك أبدا ما حييت، وهذا وعد مني بذلك".

بعد دقائق فتح الباب، وخرج مُتململا في مشيته، إلى أن وصل أمام نافذة السيارة للمقعد الجانبي لي ثم انحنى قائلا: "ماذا تريدين يا ندى؟".

أزحت خصلة شعري من فوق عيني، ثم نظرت إليه بهدوء مُزعج، وابتسامة خلابة. كنت في أبهى زينتي من عطر نافذ ذي رائحة جذابة أعلم جيدًا عشقه له، وبلوزة (كب) جلد سوداء عارية الصدر والظهر، تحتها قميص أبيض ذو ياقة ضخمة مفتحة الأزرار، يظهرعنقي الطويل عاجي اللون كجيد جواد ناصع البياض، مُشمرة كُم القميص ليظهر ارتدائي لأنسيال فضي يتدلى منه قطرة

ماء فضية، و أظافر طويلة مطلية بلون أحمر قانٍ، تضيف رونقًا خاصًا على مظهر يدي المُمسكة بعجلة القيادة.

-ألن تركب؟ ألا أستحق أن تجلس جواري لآخر مرة؟!

زفر بضيق، وفتح الباب وجلس جواري في هدوء، أغلق الباب خلفه لينظر إليَّ في استفهام، وهنا انتقلت يدي سريعا جواري من البخاخ المُخدر لأرشه في وجهه، حتى سقطت رأسه أمامه، فعدلت وضعه للخلف وانطلقت بالسيارة.

*****

لا أحد ينجو من الوجع، وبقدر الوجع يكون الانتقام، وكيف يمكنني أن أنسى أنك قد شممت رائحة عطر زنبقة ليست لك، ورشفت رشفة من أثر البتول تستحق اللعنة بها إلى يوم الدين.

كان وجه (مازن) خدرًا وخاليًا من التعبير، فكأنه شعر برأسه يدور قبل أن يستعيد وعيه كاملًا..أزحت الغمامة من على عينيه، ونظرت إليه باسمة بتحدٍّ، وابتعدت عنه قليلا لأعطيه فرصة أن ينظر حوله، ليرى نفسه مصلوبا على عمود خرساني، وكمامة على فمه تمنعه من الكلام. ينظر إليَّ وعيناه تتساءلان "أين أنا؟ وما هذا الذي ترتدينه؟".

كنا في بهو واسع، كأنه مرأب مهجور، أقف قبالته، وقد بدلت ملابسي بفستان باليه يصل للركبة، يسترسل شعري الغزير بعيدا وراء كتفي، رفعت يدي

كأني أرقص. درتُ حول ذاتي في انتشاء وأنا أسأله بابتسامة: "ما رأيك في فستاني؟ لا تتعجب وتتهمني بالجنون، فأنا من تحررت معك من عقلها في ليلة عشق لم تكتمل، ومن حينها غادرني عقلي وصرت كما تراني لا أعبأ بشيء. كانت لحظة ضعف مليئة بالاحتياج، ومغموسة بالكبت والحرمان. هذه مبرراتي حينها، ماذا عنك إذن يا من قلبه لم ينبض باسمي ولو مرة عابرة. لماذا فعلت وأنت مشبع نفسيا، وجسديا، وعاطفيا. أللهو فعلت؟ أم لحقارة منشئك؟ أم لدناءة أخلاقك؟

ثم ارتديت قناعا من الجدية لأخبره بتأثر: "كغصن ورد ذابل كنت، وكحذاء طفل عابث سحقت.. طعنتك لم تترك ندبة مع الوقت ستزول؛ فالخنجر ما زال مغروسًا ولم يقدر على نزعه أحد، تخيل أن تعيش بجسد ينزف طوال الوقت، وألم دام كلما هبت نسيم قدرًا موضع الطعن جلطت الدماء حوله، أو أراد أحد الصبية الحمقى نزع الخنجر عنوة، فيقطع بعضًا من الأوردة في محاولة فاشلة، أو حينما تستسلم لفعل الأدرينالين في جسدك وتستسلم وتتأقلم على وجوده، لتجد فضوليًّا أرعن يذكرك بما أنت فيه بسؤالك عن سبب الطعن.

فقد كنت لي كحامل الشعلة، أضأت دروبًا أجهلها، واقتربت، وفي عز ارتياحي ابتعدت، فاشتقت، ثم عدت لتجدني في لهف الاشتياق، فأشعلت فتيل قلبي، وكل القناديل بصدري، واختفيت. هل تستوعب حقيقة كونك لا تستحق سوى أن تحيا معذبًا الباقي من عمرك؟.

كنت بالنسبة له تغيرت كثيرا، فقد فككت كعكة رأسي الأزلية، وتدلى شعري الأسود خلفي هائجا، فبدوت بشكل صاحب مختلف، وبدلت ملابسي الشبابية (الكاجوال) بملابس رقصي للباليه (الفستان القصير الواسع عند الخصر الذي يشبة وريقات الورد فبدوت كزهرة التيوليب).

ستكون الرقصة الأخيرة هنا والآن كما وعدتك. أدرت أغنية (ارجعيلي لهاني شاكر) وبدأت بالتمايل..

"أيوه سبتك غصب عني القدر كان أقوى مني
بس وحياتك ما خنتش غلطتي إني ما قولتش
عن سبب بعدي ورحيلي لما كنتي بتندهيلي
ارجعيلي"..

كنت أقفز، وأنثني، وأدور بخفة، ثم أقف على أطرافي معانقة السماء بأصابعي بسرعة.

وبعد ما انتهيت قلت: أبي كان يسمعها دائما حتى أحببت لحنها.. في البداية ولأقرب وقت لم تثرني كلماتها في شيء، ولكن مؤخرا انتبهت لكلماتها، ووجدت أنها تليق بهذا الموقف "عايز أقولك يا حبيبي وده اختياري إن بُعدك عني هيكون انهياري".

أنت تشبه أبي كثيرا: وسيما، متحدثا لبقا، مغازلا محترفا، قناصا بارعا، تهوى الجميلات...

الأستاذ أيضا زير نساء وكما لك مرسم تستقبل فيه ضحاياك، هو أيضا له شقة خاصة بمثابة معرض ذكريات، كل فريسة لها ملف خاص بها وصور كثيرة وهدايا تذكارية، منها إيشارب حريري أزرق اللون بغلافه الخاص؛ جعلني أتساءل هل كان تذكارًا من امرأة أم كان ينوي منحه لكنه لم يفعل!، لا أحد يدخل بوتقته إطلاقا، ولكني فعلتها خلسة ورحت أتفحص كل شيء بعين ثاقبة.. لم أكن أعرف حتى ما أبحث عنه، لكنه الفضول الذي جعل كل شيء بات واضحًا، كل قطعة استعادت مكانها، لكن بعد ما أبرحتني وجعا، صفعتني الحقيقة ببداهتها، نزلت لغرفتي هاوية الفؤاد، اجتاحتني موجة من الانفعالات وحين انحسرت تركتني مترنحة. أصبحت واعية أنني أتنفس بصعوبة من فمي، ولا أنسى موجة الغثيان التي أصابتني تحت أثر المفاجأة الصاعقة واكتشافي أن أبي راعي الفضيلة ذئب مخادع. تماثل التواريخ أنبأني بأنه كان يقيم علاقات متعددة في نفس التوقيت.. ألم أخبرك بأنك تشبهه؟ هو أيضا لم يطرق في مخيلته للحظة أن ما يفعله بالأخريات سيُفعل بي. مثلما تفعل أنت، لا يأتي في مخيلتك أن ابنتك ستُسقى من نفس الكأس الذي أسقيتني منه.

قرأت نظراته الجامدة لي، كأنه يريدني أن أنتهي من هذا الهراء سريعًا، وأن يعرف ماذا أريد. "ألم تريني رقصتك الأخيرة! ماذا بعد؟." هكذا أحسست به يسألني، فأجبته:

"لاشيء؛ فقط قررت أن حان الوقت لأثأر لكرامتي المهدرة على عتبة غرورك، ولسمعتي التي لهوت بها، ولمشاعري التي سخرت منها، ولقلبي الذي صدقك في لحظة حماقة ودست عليه بكل برود وقسوة، ولنفسي التي احتقرتها لأنها أعجبت بك يومًا، ولبراءتي التي اغتصبتها ولثقتي فيك التي خنتها، ولاسم والدي الذي هددتني بتدنيسه وفضيحته بي أنا، ابنته الوحيدة، ولهتك سترنا مع زملائك للتباهي، ولمستقبلي الذي أقسمت ألا يرى النور وألا أتخرج أبدا بعد أن كان حلمي أن أصير أستاذة جامعية، ولملابسي الغالية التي اضطررت لحرقها، فقد كانت محملة بعبق عطري الذي كنت أضعه قبل مقابلتك، وكم كرهت هذا العطر كما كرهت ملابسي تلك، فكل شيء يذكرني بأوقاتي معك وبخيبتي فيك. وحيث إن الجروح قصاص، فسأدمي قلبك كما أدميتني، وسأنتزع روحك كما قتلتني، وسأمثل بجثتك كما مثلت بنبضاتي. نسيت أن أخبرك بأنك صنعت مني إنسانة جديدة ستتعرف عليها الآن لعلها تروقك، فطبيعتي الغجرية الآن هي مَنْ ستتعامل معك، وأظن أن هذه الطباع تلائمك".

"لقد حذرتك من أن تقعي في حب الغرباء، ونبهتك بأنني أكثر الناس حِدَّة وغرابة"..

"أعلم ردودك جيدا وأحفظها عن ظهر قلب، فلا تنس أنني تلميذتك على مدار أربعة أعوام، بل خمسة.

لم تكن يومًا غريبا حتى أحذر منك، لم تكن يومًا سوى قريب وعِشرة عمر وحبيب. فكيف أحذر بمن باسمه القلب استبشر، وكيف يخون من كان دومًا فوق الظنون، وكيف تقسو وتهين على من وضعت ثقتها فيك! اعلم يا من كنت لست بغريب أنه لم يكن يليق بك ما فعلت بي. والآن بماذا نبدأ؟ دعني أفكر معك بصوت عالٍ".

هنا لمحت منه نظرة سخرية مفادها: "لن تستطيعي فعل شيء، فنبضات قلبك المرتفعة ما زلت أسمع فيها اسمي".

فما كان مني إلا أن نظرت له مُتحدية، ثم أمسكت خنجرًا وقمت بالتصويب، أغمض عينيه بفزع ثم فتحهما على صوتي: "يا خسارة.. نسيت أن أخبرك أنني لا أجيد النيشان، فقد قصدت عينك اليسرى لأجده يستقر في كتف القميص دون أن يلمسك".

نظرت له رافعة حاجبي الأيسر: "من الغباء أن تتحدى من رقبتك تحت سيفه. أعلم أنك تريد أن أزيل هذا اللاصق لتستطيع أن تقول أي مهاترات قد تشفع لك عندي، ولكن هذا لن يحدث، فوقت كلامك قد انتهى. بعد أن رفضت محاورتي طوال الفترة الفائتة، وأنت تراني أتفتت داخليًّا لعدم ردك عليَّ، ولو حتى باعتذار، أو أي طريقة مهذبة تشعرني بها بأنك احترمتني، وبأنني لم أكن يومًا في عينيك رخيصة، لم يكن من اللائق أن تتعمد جرحي وتظهر امتعاضك من تأوهي".

أتيت بكرباج، وضربته على الأرض محدثًا دويًّا مرعبًا. "سأغمض عيني وأضرب لنرى معًا ماذا سيصيب". سمعت أنينه حينما لامسه، ونظراته زادت شراسة.

-هل تعلم أن كل ما كان يثيرني معرفته هو كيف لعلاقتنا التي لم تستمر شهرا كاملًا أن تستغرق شهورا لإنهائها، ولهذا أردت وضع تتر النهاية بطريقتي الخاصة، حتى أنتهي من صداع هذه العلاقة إلى الأبد. أنت آخر شخص يتحدث عن الأخلاق، والشرف، والفضيلة؛ فأنت خائن لزوجتك، التي طالما تتشهد في عظمتها. أنت تعلم كما أعلم أن عظمتها هذه تتمثل في كونها تخصك فقط، لا في كونك تحبها مثلا، فلو أحببتها بحق لكفتك وأغنتك عن نساء العالمين. توقف عن مهاتراتك بأنك ابتعدت فقط حتى لا تجرح وجودي، أو حماية لي من نفسك. فهذا

كلام لا ينم سوى عن ضعفك وجبنك.. أتدري؟ تذكرني الآن بموقف رئيس الدولة حينما ثار عليه الشعب، قابل هذا أيضا بالصمت الرهيب، والابتعاد عن الموقف، وكأنه ليس مسؤولا بشكل أو بآخر عن هذه الثورة. من الغباء أن تقابل الثورة بالتجاهل، والغضب باللامبالاة، فهي لا تعني شيئا سوى أن الرئيس جبان أو لا يهتم بشعبه وهي إهانة لا تُغتفر، أظنك تدري جيدا ماذا يعني أن يهينك أحدهم. هذا ما فعلته معي وليست مرة واحدة، بل تماديت في إهانتي، وطعني، وسبي، وقذفي وكأنني يوما قتلت لك غاليا، أو أتلفت لك شيئا ثمينا عن عمد. كل ما فعلته معي كان مع سبق الإصرار. غرورك صوَّر لك بأنني أضعف من أن أرد لك طعناتك، توقعت بأنني سأقابل إهانتك وتهديدك الحقير لي في صمت.

ثم أمسكت فرشاة شعر واقتربت منه، ينظر إليَّ باشمئزاز، فقابلتها بنظرة مستهزئة قائلة: "لا، لن أمشط شعرك، سأمسد ذقنك"، وجذبت شعره للخلف بقوة، فوجدت عينيه ناريتين مع زمزمة صوتية وكأنه يسبني، فضربته بالفرشاة على وجهه بغضب قائلة: لست أنا من تستحق اللعن. لم يكن عليك أن تلهو معي، أو حتى تفكر في هذا، طالما لا تأخذ الموضوع بجدية، فأنا لست من هواة هذا المزاح السخيف. ومشاعري ليست للتسلية. أنت معتاد أن تنسحب دومًا قبل انتهاء اللعبة، حينما تشعر بأن غريمك سيهزمك، أو حين تصاب بالملل، على

النقيض منِّي تمامًا، فأنا أفضل أن تستمر اللعبة للنهاية لأرى من الفائز. لا أحبذ أبدًا النهايات المبتورة.

تابعت بتململ: من الواضح أنك بالفعل لا تعلم عني أشياء كثيرة. على سبيل المثال: أنت لا تعلم بأنني أهوى صيد الحشرات، أو أنني مثلًا لي صديق غير بشري..سأقدمه لك الآن.

أزحت غطاء من على جسم مستطيل يشبه سيارة نقل مغطاة ليظهر أسد داخل قفص حديدي.

-أعرفك بـ(حمزة) ينتظرك منذ فترة، لقد حدثته عنك، أخبرته أنك الوحيد الذي استطاع أن يلهو بي كالعروسة الماريونيت، ووعدني حينها بأن أترك الأمر له. أنا وحمزة أصحاب منذ زمن، لقد ربَّيته منذ أن كان صغيرًا، وقتها كان يشبه القط الكبير. هو صاحب لوحاتي التي كنت تشيد بأدائي فيها. زأر حمزة وتحرك خطوة للأمام، كأنه يعلن مُشاركته للحوار.

- من الواضح أنه يعرفك بنفسه ويؤيد كلامي، أخبرتني سابقا بأنك تهوى الحيوانات، وخاصة فصيلة الأسود، أليس كذلك؟ على العموم سيظهر كل شيء حينما تحدث المواجهة بينكما.

لا تنس أن طبعك الرديء تغلب عليك، وجعلك تنقض عليَّ وتلتهمني حية، فكان لزاما أن أرد لك نفس الشعور. تخيل، يوجد أناس "ساديُّون" يقتلون ثم بعد هذا يمثلون بالجثث، لا أفهم كيف يفكرون؛ فما المتعة في تعذيب شخص ميت لا يستطيع حتى الصراخ. هل نسوا أن للموت حرمة عليهم احترامها، وهذا الفرق بيني وبينهم. أنا سأمثل بك، وسأتركك تواجه الموقف ولو مرة واحدة في عمرك، والاختيار لك سيكون حسب مقدرتك على التحمل..عن نفسي لست على عجلة من أمري فقد فرغت من جميع مهامي.

أو تعلم كنت نويت أن آتي بـ(مروة) إنها كوبرا رائعة، ولكن فحيحها هادئ رغم قوتها وسرعة أدائها، عكس (حمزة) الذي يشي صوته بحجم ما يستطيع فعله. لا تتعجب، فأنا أهوى اقتناء تلك الكائنات الرائعة؛ فهي واضحة ولا تدعي صفة ليست فيها، والأغرب أنها وفية لمن يحنو عليها ويحبها بصدق. حينها قد بدأ الملل يتسرب إليَّ. ثم اقتربت منه بخطوات ثابتة، ونظرت في عينيه بتحدٍّ، ويدي تداعب حزام سرواله عازمة القبض على سيفه. يغمز لي بعينه مداريًا خوفًا ممزوجًا برعب خفي.

-ما لي أراك خائفا هكذا؟ ألا تريد أن نلهو قليلا؟ ألا تريد أن أراه، لعلِّي أشعر بالحسرة.. أليس هذا حصانك الذي تراهن عليه دائما، وسيفك الذي تحارب به؟!

دعبست بأصابعي الطويلة النحيلة الثغرة الضيقة من بنطاله، حتى أحكمت قبضتي عليه وسحبته خارجًا ليتدلى منه، ما هذا أيها المحارب العتيد؟! ،أم أنك معتاد على منح الألقاب الكبيرة للأقزام الصغيرة، وابتعدت قليلا لأرى الجسد كاملًا ثم أحضرت سكينًا مسنونًا من قبل، واقتربت منه مجددًا.

الآن نظرته حملت من الرعب والهلع ما لا يوصف.

- يجب أن تشيع جنازته الآن، فهو سبب كل مصائبك ونزواتك، فأنت لم تستطع ترويضه، ولم تعلمه متعة الحلال، فأصبح يرتع في الحرام باستمتاع، بحجة أن سيفك لم يجد غمدا يلائمه، الآن ستشاهد بتره حتى تستريح من رغباته.

جذبته بيدي بشدة، وأجريت السكين سريعًا عليه بحركة واحدة، فتناثرت الدماء.

هنا أزحت الكمامة من على فمه ثم ضغطت زر التسجيل في هاتفي لأحفظ صوت صراخه. سب ولعن والدم متفجر منه. نظرت له بلا مبالاة مبتعدة حتى لا تأتي عليَّ الدماء.. أتيت بزجاجة ماء لأغسل يدي وأتمتم بصوت مسموع: لا أحب أن تكون يدي ملوثة، أفضلها نظيفة دائما..واصل عواءك فهو يمتعني.

أردتك زوجًا.. أردتني عشيقة، أردتك حبيبًا.. أردتني خطيئة، قتلتني بالأمس ..ذبحتك اليوم. لا تثريب عليَّ إذن. قد اقتربت أكثر مما ينبغي فخسرتني كما تستحق. كان لزامًا عليك عدم الاقتراب من حقل ألغامى، حتى لا تعوي من الألم كما تفعل الآن.

أعلم أنك كنت تعتقد بأنه إذا كان لابد من البتر، فلأبتر لسانك الذي طعنني في شرفي، وخاض في عرضي بالباطل، ونعتني بأقذع الألفاظ، وكل هذا من أجل أن سلمتك قلبي يوما، وأنت بعد ما لهوت به ألقيته كخرقة بالية لم يعد لها فائدة عندك، ولكن قطع لسانك لم يكن يكفيني، ومن حقي أن أطفئ ناري بالماء الذي أختاره ليرويني.

لتأخذ حماما سريعا لكي تفيق، فمن غيرالمقبول أن تُصاب بإغماء في صحبتي. أتيت بخرطوم مياه وسلطته بعشوائية تجاهه.. أفاق يلعنني، فنظرت بتشفٍّ غاضب تجاه المرحوم وأخبرته بأنني سأرسل من يشيع جنازته حالا، وسأقيم عزاء يليق به، فسأدعو فصيلًا نادرًا من النمل الأبيض ليتولوا مسألة دفنه، فلا تقلق.

أتيت بصندوق صغير في ركن هذا الجراج الواسع واقتربت من موضع الجثة، وفتحت الصندوق، فخرج بعض من النمل ذي الحجم الضخم، هم

سيتولون مهمة محو أثره.. النمل ذاك الكائن المنظم، الذي لا ينذر حجمه بمدى قدراته على الفتك، أو محو الأثر كأنه لم يكن.

ثم قدت "تريسكل" كان يغفو في الجوار، ساحبة به قفص الأسد ذا العجلات حد الالتصاق به كأنه حائط.

- اطمئن، لن أفتح له باب القفص، ولن أدخلك عنده، فقط سأجعل القضبان الحديدية هي الفيصل بينكما؛ فحمزة يريد أن يثأر من أجلي، ويثرثر معك عما فعلته بي.

مخيف أن تعلم بقدوم الموت إليك بسرعة وبقسوة لا تعرف الرحمة، لكن رؤيته أمامك شيء آخر أكثر هولًا. نظر الأسد للدم المنبعث، وقام بلعقه من خلال فتحات القفص الواسعة. صرخ مازن بذعر فور اقتراب حمزة منه، طالبًا إغاثة لن تأتي. ابتعدت بعد أن استقر الروع في قلبه، وتركته فزعًا، هلعًا، خائفًا، مترقبًا أن يؤكل جسده حيًّا أمام ناظريه، لا يملك سوى انتظار الموت الذي يتمنى أن يصل سريعًا لإنقاذه. خرجت وأغلقت باب المرآب خلفي، وسندت بظهري عليه ثم سقطت جالسة على الأرض، رافعة ركبتي إلى مستوى ذقني، واضعة رأسي بين ساقي، عاقدة ذراعي حولهما، يغطيني شعري في انهيار باكٍ قائلة:

أحببتك دون شك وسأقتلك دون رحمة. ثم فتحت هاتفي وكتبت على حائط صفحتي الشخصية:

"إذا وجدتني أساق إلى كتيبة الإعدام بتهمة قتله، فأخبرهم أنها كانت تحبه، ولهذا قتلته".

*****

انتبهت من شرودي لأجد نفسي كما أنا لا شيء تغير ولا شيء قد حدث، فقط حلم يقظة راودني ورحل. نفضت عن رأسي آثار حلمي وأدرت السيارة وانطلقت إلى السيرك، قابلت (عم رشدي) صديقي العجوز واقترحت عليه فكرتي التي تتلخص في أن يظهر السيرك في برنامج تليفزيوني ويكون لحمزة نصيب الأسد، رحَّب بهذا وناقشت الفكرة مع بقية الفريق ومنهم صديقتي (مارو) مُدربة الأسود.. الكل أبدى تحمسه.

ذهبت لحمزة لأقوم بحمومه وأنا في قمة حماسي، سكبت الماء بالخرطوم عليه وغوصت يدي في لبدته وأنا أدندن أغنية لماريا:

"بحبك قد إيه مش عارفه أد إيه
من شوقى وحبى ليك أنا عمرى بخاف عليك
أنا عايزه أقولك كلام محدش قبلي قاله
أنا عايزه أعيشلك غرام أكبر من الكون بحاله".

أديت عليها رقصتي اليوم أمام الجمهور، كنت في حالة من الانتشاء الصاخب لم أرقص بها أمام العامة من قبل.

أخبرتني (مارو): "أراكِ ستعودين بقوة بعد غياب طال شهورًا" ويؤكد على كلامها مجموعة من الزملاء. أبتسم مبتهجة وأطلب منها أن تلتقط لي صورة مع حمزة.

في اليوم التالي استطعت معرفة طريقة للتواصل مع مُعدّ برنامج المقالب الشهير الذي يذاع في رمضان، وبالفعل حددت معه موعدا لعرض فكرة البرنامج.. التقيت به مع مارو، استقبلنا بترحاب حين علم هويتنا ومعرفة رغبتنا في حدوث تعاون وعمل مشترك، اتفقنا على كل شيء بما فيه الموعد المحدد لإخراج الحلقة.

تم طباعة الدعوات لبعض الشخصيات العامة لحضور حفل السيرك دون التنويه عن تصوير حلقة تليفزيونية، أو بمعنى أدق تم دعوة أساتذة القسم في كليتي، ومنهم الوغد مازن وأسرته.

في اليوم المنشود ذهبت باكرًا إلى السيرك لأتمم على كل شيء، ولأطمئن أن حمزة قد أكل حتى شبع ولم يعد في نيته التهام أي وجبة أخرى خلال اليوم، لكنني تعمدت استفزازه وأنا أريه بعضًا من الصور غير الحقيقية (المتفبركة) لمازن، تارة ويده ملطخة باللون الأحمر وجواره صورة لشبل يذرف الدماء، وصورة ثانية لمازن وهو يضع حذاءه على رأس أسد، وأخرى لمازن وهو يمسك السكين وينحر

به أسدًا.. استغليت كل صوره على الفيس بوك واستخدمت برنامج الفوتوشوب لأضع صورة الأسد المقتول بدلًا من صينية البيتزا التي كان يطهيها مازن في الصورة الأولى، والثانية بدلا من الصخرة التي كان واقفًا جوارها رافعًا ركبته عليها، والثالثة بدلا من صديقه وهو يمزح معه. ظللت أعيد عليه مشاهدة الصور حتى شعرت أنه بدأ يزأر غضبًا.

كنت أخشى ألا يلبي مازن الدعوة وتفشل خطتي، ولكني كنت أعلم عنه حبه لتجربة كل ماهو جديد، ثم أن الدعوة لأربعة أفراد، عرض لا يتكرر كثيرا.

ما لم أكن أعلمه بأن مارو قد قدمت لي مساعدة دون أن تشعر، فاهتمامها كان من أجلي.. نعم، ولكن على سبيل الاعتناء بمن وقع الاختيار عليهم من قبلي لدعوتهم، (مارو) من ذهبت بنفسها إلى (مازن) متذرعة حجة أن تتأكد من وصول الدعوات، وبالطبع احتفى بها مازن على خير ما يكون؛ فهي تتمتع بجميع مقومات الأنوثة التي يهواها، من جسد ممشوق، وملامح متناسقة، وأسلوب جذاب، ونظرات ساحرة، أبدى دهشته حين علم بكونها مُدربة أسود، فمَنْ برقَّتها وحُسنها تتعامل مع وحوش مفترسة! لم يأخذ منها وقتا وهو يتوقع أنه استطاع أن يلقي شباكه عليها، بعد أن تحدثه بدهاء أن ما تفعله لا يستطيع هو أن يفعله، عرض عليها أن يفعل، وأن تكون بالقرب لإنقاذه، وهنا عرضت عليه أن يشاركها فقرتها ولا يخشى شيئا، فهي ستكون معه وكل الأمور تحت السيطرة.

في اليوم الموعود رأيته يتقدم إلى الخيمة، ومعه زوجته وطفلتاه، الدعوة تعطيهم الحق في الجلوس في الصف الأمامي، بدأ الحضور من الأساتذة وعائلاتهم، كانت المقصورة الأمامية شبيهة بمقاعد حافلة لرحلة جامعية. وبدأت أولى الفقرات: التوازن والأكروبات ويليها التنشين بالخناجر، كنت أستعين بخيالي في أن اقوم أنا بالتنشين ويكون هو المصلوب أمامي، ثم أفيق وأتنهد لأتابع الفقرات بترقب مع فريق إعداد البرنامج.

أتت اللحظة الحاسمة والفقرة المرتقبة بالنسبة لي، تم خروج الأسود الواحد تلو الآخر للقفز على المقاعد المخصصة لهم، ثم القفز داخل حلقة من نار ذهابًا وإيابًا، ثم تنحني (مارو) بجذعها للخلف ليقفز الأسد من فوقها.. كان خروج الأسود يتم بشكل منظم فلا يخرجون معًا، ولكن بترتيب معين والأشرس دوما يكون في المؤخرة. عرضت (مارو) أن يشاركها أحد الجمهور فقرتها إن أراد، وبالطبع لوح (مازن) بيديه ووقف إعلانًا عن رغبته، فساعدته بفتح باب السياج المحاط بالحلبة، قام بتحية الجمهور مُبتسما ملوحًا بذراعيه للجميع صارخًا بصيحة الإثارة، وقف جوارها وهي تقترب من أحد الأسود وتحني جذعها للخلف ليقفز الأسد من فوقها فيصفق لها (مازن) بإعجاب؛ فقد بدت أمامه أنثى مثيرة، ثم طلبت منه أن يقف جوارها ويحني جذعه معها والأسد سيقفز فوقهما معًا، وبالفعل فعلها (مازن) تحت إثارة الجميع وترقبهم.

وهنا أتى دور الكاميرا الخفية وخروج المذيع ليعلن من خلال المكبر الصوتي بوجود مسابقة تحدٍّ من قِبل إدارة السيرك مَنْ يفوز بها سيحصل على تذكرتين للسيرك صالحتين لمدة نصف عام. كان (مازن) داخل الحلبة بالفعل عاقدًا ذراعيه أمامه، يريد أن يثبت لمارو بأنه يستطيع فعل أي شيء، "سيصعد المتسابق لأعلى واقفًا على مسطح خشبي باستخدام مصعد من الحبال، وعلى الجانب الآخر سيكون هناك أسد داخل قفص، على المتسابق أن يسير على اللوح الخشبي ليصل إلى قفص الأسد ويقدم له قطعة اللحم المُلقاة أمام باب القفص من الخارج" لم يستغرق الأمر لحظات من تفكير (مازن) فلا شيء يدعو للقلق، فهو سيقف على قطعة خشب تشبه أرجوحة الأطفال، وسيتم سحبه إلى أن يصعد، ثم يسير على لوح خشبي عريض، إلى أن يصل إلى القفص، فينحني ليلتقط قطعة اللحم، ويلقيها للأسد بداخله، ثم يعود أدراجه مجددًا للحامل الخشبي، ويتم سحبه للأسفل. طالما التحدي يعتمد على سرعة المشي على اللوح الخشبي فقط فالأمر يسير إذن.. أعلن (مازن) استعداده للقيام بالتحدي، وتم إخلاء الحلبة ووضع شبكة كبيرة لأمانه إذا ما سقط من علوّ، وتم الصعود.

أصبح (مازن) في مواجهة (حمزة)، كان يخطو أولى خطواته، وحمزة ينتظره، فالخدعة هنا أن قطعة اللحم مربوطة بحبل رفيع لا يُرى في باب القفص، وإذا تحركت من مكانها يفتح باب القفص تلقائيا، مما سيثير في نفس المتسابق الفزع حين يكتشف أنه بدون قصد قد فتح باب القفص ولم يعد يفصل بينه وبين الأسد

شيء، عامل الأمان أن الأسد مربوط من رقبته بحبل سميك مخفي داخل لبدته يجعله لا يستطيع الحركة.

كان (مازن) يسير بثقة منقطعة النظير، و(حمزة) يزأر غاضبًا لرؤيته، بدأ القلق يدب في قلب مازن وظهر هذا جليًّا على مُحيَّاه، وهو يلمح نظرة الترقب من الأسد أمامه وزئيره المُرعب يتحداه، (مارو) في الأسفل ترسل له إشارة الثقة بإبهامها (لايك)، وزوجته وطفلتاه مع الجمهور وسط زملاء عمله وبقية الجمهور في انتظار ما يستؤول إليه الأمور. اقترب من قطعة اللحم وانحنى لالتقاطها، وهنا وقف (حمزة) كاشفًا عن أنيابه، ومع قبض (مازن) على اللحم بيده وانتباهه لباب القفص يفتح بشدة، ومحاولة (حمزة) الهجوم عليه التي فشلت إلا من لطمة حصل عليها في رأسه، أسقطته من اللوح الخشبي على الشبكة الكبيرة مع صيحات من الجميع، كل هذا قبل أن يستوعب مازن ما حدث.

تم تداول المشهد على مواقع التواصل الاجتماعي بسرعة الصاروخ، ونقل مازن إلى المستشفى لتطهير جرح رأسه من مخالب حمزة.

بغض النظر عن تعاطف الجميع معه واعتذار البرنامج وتوضيح حقيقة المقلب وإبداء الرغبة في التعويض المناسب غير تكلفة علاجه، ولكني كنت أعلم جيدًا شعور مازن بأنه قد تمت خديعته، وكان هذا يكفيني. ذهبت لزيارته مع مجموعة من الأصدقاء مبدية تعاطفي معه قائلة بتأثر: "رؤية الأسد وهو يلطمك

على وجهك كأب يعاقب ولده.. ترى ماذا فعلت له لتثير غضبه، قلوبنا انفطرت يا دكتور، وظننا أنك هالك لامحالة".

فيرد بغيظ يداريه بابتسامة ساخرة: "ما زال في العمر بقية، متشكر لزيارتكم" فأنهينا الزيارة بـ"حمدًا لله على السلامة".

استيقظت في اليوم التالي وأنا أشعر بأنني في غاية الارتياح، ظننت أن ذلك نوع من رد الفعل الجسدي للمرة الأولى منذ عدة أشهر. كأن الموت قد مرَّ ببابي ثم غير اتجاهه في اللحظة الأخيرة. بل لم أفهم كيف حالفني الحظ وصارت الأمور أفضل مما تمنيتها. مهما يكن من أمر فإني نويت أن أقدم هدية قيمة لـ(مارو)، شعرت بأنني منتشية تمامًا، ولديَّ طاقة للرقص. ذهبت إلى السيرك وأنا ممتلئة بطاقة من السعادة أفاض أثرها على مُحيَّاي، نظرت إلى (حمزة) مباشرة في عينيه ورويت له ما حدث بدقة. كنت في قمة حماسي لقد ثأر لي دون أن يعلم. وما إن أنهيت سردي وهو يستمع إليَّ بانتباه أدرت على هاتفي لحن "أنت عمري" فوجدته كمن يستعيد ذكرياته ووضع لبدته على كتفي فحاوطته بذراعي بامتنان.. قمت أتمايل وأنا أحثه بإشارة من يدي أن يتفاعل معي، فلبَّى النداء، وحينها أديت رقصتي معه بكل ما أوتيت من طاقة وشعور بالنصر.

*****

تبدلت معاملة والدي كثيرا، فقد صار يهتم بي ويسألني عن دراستي وأساتذتي ومشروع تخرجي وموعد امتحاناتي وما إلى ذلك. لم يكتفِ بهذا، بل لقد دعاني إلى السفر معه إلى باريس لمدة أسبوع، وقمنا بزيارة متحف اللوفر لعل لوحاته تلهمني فكرة جديدة أستخدمها في لوحاتي.. شتان بين شعوري مع أبي في السفر وشعوري مع مازن؛ فقد اتضح لي بأن أبي هو الأصل وأن أي مشاعر وجهتها لمازن كانت في الأصل لفارس سيف الدين، ذلك الحبيب المتفرد على عرش قلبي، والرجل الذي يقترن اسمي باسمه..

أسير جواره متشبثة بذراعه، ولأول مرة أجرب إحساس أن تتساقط الأمطار وهو معي في الشارع.. لم أره من قبل صاخبًا هكذا كشاب في سن المراهقة ونحن نجري معًا للاختباء من المطر المُثلج الذي يحيط بنا، في الأوقات التي يكون فيها حنونا هكذا، أشعر أنني خفيفة للغاية كأنني على وشك الطيران، وأن قلبي يعانق الكون كأنني امتلكت العالم بأَسْره، تمنيت لو تطول تلك اللحظات، ليس لانفرادي به فقط، ولكن لأن الابتسامة المرسومة على وجهه وهو ينظر إليَّ جعلتني سعيدة للغاية.. أنا أحبه حقا وأحاول أن أتفهم طباعه.

التقطنا صورًا في كل مكان ذهبنا إليه: عند الهرم الزجاجي أمام متحف اللوفر، أمام كل لوحة داخله، التزحلق على الجليد، برج إيفيل، مقبرة العظماء، قصر غارنييه، ديزني لاند. كان أسبوعًا مثمرًا في علاقتنا وبإعادة توازني النفسي.

ولكن كعادة أبي وتقلباته المزاجية لم يستمر هذا الأمر كثيرا، وعاد لحياته المتوحدة، ناسيًا وجودي في حياته، كأنه اطمأن بأني قد تخرجت من الكلية بسلام، لم يهتم بسؤالي يومًا عن حالي أو طموحي أو ما أنتوي فعله، كأني موظفة حكومية يومها روتيني آمن ومستقبلها المهني مضمون.. ما دمت لم أشركه في شيء، فأنا إذن على ما يُرام! هو لا يعلم أنه بالنسبة لي أداة لتكسير مجاديف، فكلما قصصت عليه رغبتي في السفر مع صديقاتي لقضاء نزهة مثلا يعترض دون سبب مقنع، وإذا تأخر موعد عودتي من الخارج عن الساعة التاسعة مساء يعاقبني بعدم الخروج لمدة أسبوع بعدها وكأني ما زلت طفلة!

أراه يحاول فرض سيطرته وليس خوفًا عليَّ كما يدَّعي. أحادثه في نفسي بقهر قائلة: "حسنا يا أبي، سأفعل ما أريد في المواعيد الرسمية التي أقررتها ودون أن أثير ريبتك أو أتسبب في مشاجرتك".

كنا إذا ما حضرنا مناسبة اجتماعية، شعرت بتمثيل مبتذل، هذا ما يعاملني به أمام العامة، يُظهر حبًّا مصطنعًا ومزاحات لا تليق بمكانته، وإذا اختلى بي عاد لخرسه الدائم كأنه ينكر علاقته بي.

أمام الناس أنا السعيدة التي حظيت بأب يحبها حد أنه لا يستطيع كبت مشاعره وسط الجمهور. فتارة يقترب منِّي ليحادثني بصوت مرتفع، وتارة يُقبِّلني

إذا ما التقط أحدهم صورة مفاجئة لنا، كنت أبتسم بسخرية فور رؤية الصور الملتقطة لنا وهي تظهر كم المحبة التي أتمتع بها.

وتارة أخرى كان يتعمد إثارة غيرتي بمزاحه مع بنات أصدقائه اللاتي تقتربن منِّي في العمر، لأثور على تصرفاته الحمقاء، فيعتذر لي ويبدي احترامه لمشاعري. أشعر بأن ما يفعله معي أمام العامة كرسالة منه للآخرين، وأنا في الغالب أندمج معه في هذا التمثيل.

كنت بعدها أقف أمام مرآتي أسأل نفسي كل مرة: متى ينتهي هذا الهراء؟

*****

لا توجد محنة تعبرنا دون أن تترك أثرها في الروح. بعد تخرجي وإتقاني فن الرسم عدت أمارس الرقص بنفس شغفي الأول داخل السيرك، لم أعد أخشى أن يعرف أبي، بل بداخلي تمنيت أن يعلم، علَّه يدرك بأنني نضجت لأصير مسؤولة عن حياتي بعيدًا عن تحكماته، كانت هذه دومًا رغبتي الداخلية، ولكني ما زلت أحرص على أن تكون الإضاءة خافتة وقت رقصي في صالة العرض.

صرت أقضي مع (حمزة) وقتًا أطول، بل ودربته أن يشاركني رقصتي داخل قفصه ولا يكتفي بالمشاهدة الصامتة، ثم بعد ذلك في صالة العرض لتساعدني سعة المساحة تحت إعجاب جميع العاملين في السيرك.

كان عم (رشدي) ينظر إليَّ نظرة الأب الذي يخشى على ابنته أن يصيبها مكروه جراء اندفاعها وشغفها تجاه الرقص مع حمزة، كانت أسعد أوقاتي وقت تناول كوب من الشاي في منتصف النهار مع ساندوتشات الفول بصحبة العاملين في السيرك، كنت أشعر بكوني فارغة داخليا من أي عواطف أحتاج إليها، حد أن أمتلئ بمجرد كلمات مجاملة من عم (رشدي) وأعيش اللحظة كاملة وهو يناديني أحيانا بابنتي.

أخبرتني (مارو) بأن (مازن) يحاول صيدها وهي تجاريه وتدَّعي انجذابها له وتعلم متى تجعله يتحسر على فراقها، وأخبرتني أيضا بأن (حمزة) جاء له عرض سينيمائي في هوليود بعد تحقيق برنامج الكاميرا الخفية على أعلى نسبة مشاهدات، تحمَّست كثيرا وقررت أن أسافر معه فأنا أحق برفقته، ودعوت مخرج الفيلم أن يأتي بنفسه ليشاهد حمزة في دور جديد وهو يرقص معي. نعم، قررت أن تكون فقرة رقصتي الخاصة بمشاركة (حمزة) لأول مرة أمام جمهور السيرك، وفي حالة نجاحي أمام المخرج سأفعلها أمام العالم أجمع.

تم الإعلان عن هذا بدعاية قوية جدا، فهي فقرة فريدة من نوعها تحدث لأول مرة (راقصة باليه مع أسد حصريًّا في السيرك القومي).

ضاعفت من تدريباتي مع (حمزة) حد اطمئناني أنه سيفعلها معي باقتدار، فهذا ليس بالجديد علينا.

بدأت الفقرة مع الإضاءة الخافتة وظهوري واقفة على أطراف أصابعي و(حمزة) بالجوار متمددًا.. بدأ لحن "أنت عمري" فتحركت بخطوات بطيئة تجاه (حمزة) منحنية تجاهه مادَّة ذراعي الأيمن، فاعتدل في جلسته وقام واقفًا، ثم تحرك تجاهي مادًّا يده إليَّ فلمستها ودرت حوله على أطراف أصابعي، وهو ناظر تجاهي، ثم يتقدم بخطوة بطيئة تجاهي فأتراجع بخطوة، ثم حين أتقدم تجاهه بخطوتين يتراجع هو، تتبدل الأماكن بيننا، وحين أقترب منه يرفع يده تجاهي فأدور برفقته. وظل التناغم في الأداء مستمرًّا بيننا، إلا أن ابتعدت وأنا أدور حول نفسي في حركات بطيئة فاردة ذراعي كأني أطير، وانتهت الرقصة بانحناء جذعي للخلف وهرولة (حمزة) تجاهي تحت أنظار مترقبة؛ خشية أن يهجم عليَّ ولكنه عانقني واقفًا.. وهنا علت الإثارة وانتهى اللحن، وتعالى التصفيق ووقف أبي منبهرًا بهذا الأداء المتفرد الممتع، وعلى وجهه ابتسامة حماس ودهشة. كنت مُسلطة نظري تجاهه وحين أضيئت الكشافات نزعت القناع عن عيني ليظهر وجهي جليًّا أمامه دون أن يحجبه أي شيء.

**تمت**

**١٩نوفمبر ٢٠١٥**